إدوار الخرّاط

تباريح الوقائع والجنون

تنويعات روائية



تباريح الوقائع والجنون

تنويعات روائية

إدوار الخراط

لوحة الغلاف: كولاج للمؤلف

الطبعة العربية الأولى : اكتوبر ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/١٠٣٤٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-108-6



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

إدوار الخـــراط

تباريح الوقائع والجنون

تنويعات روائية



تقدير

في هذه التنويعات الروائية نُتَفٌ من سيرةٍ ذاتية ، صحيح ، ومع ذلك لم ألتزم قط بحرفيّة أحداث حياتي أو خيالاتها ، ولا بدقّتها . أما الوقائع اليومية مبرّحة الإيلام فهي هي ، بحرفيتها ، وهي التي تدعو للجنون . جئت بها من ديوان هذا الزمان ، في الصحف والمجلات، لم أخرم منها حرفاً .

أما شطحات الفانتازيا والخيال وخطفات الرؤى الشعرية فهي عندي جوهر الواقع الحيّ . لسنا نعيش بالعقل وحده ، نعم ، على أن العقل وحده يظل دائماً هو الإمام الحيّ في الكتيبة الخرساء .

إدوار الخراط

(١)

ثلوج كاليمانجارو

كان خميس نحيلاً ، طُوالاً ، داكن السمرة. عيناه عميقتان تلمعان، من داخل سواد بشرته ، بعزم ووداعة في الوقت نفسه .

سار أمامنا يُحدّ بصره بحرص ولكن دون تردد ، بيده السكين الطويلة حادة الشفرة كأنها المنجل مقوسة السنّ قليلاً ، يخبط بها الأعشاب الكثيفة الضارية إلى خُضرةٍ غضيرة مليئة ، فيصدر عنها وشيش وحفيف يدعو إلى الطمأنينة .

قال : هنا أحياناً ترقد ثعابين البُوَا المعتصرة ، تقدر أن تهتصر صدر بقرة أو حتى فهد .

كان يتكلم الجليزيةً بسيطة ولكن مُعبّرة .

ونحن نسير وراءه ، أحذيتنا قد ابتلّت قليلاً من الأرض الندية .

عندما حاذيته رأيت أن قميصه الأبيض ، نظيفاً وناصعاً - بالتضادّ

مع بشرته - كان مرتوقاً بعناية عند الياقة حول عنقه الطويل ، خيوط الرتْق الدقيقة صغيرة الغُرز كانت قد بدأت تنفكّ لكنها كانت مقصوصة الأطراف ليس فيها أدنى تشعُّث ، وكان بنطلونه الرمادى مكوّياً حادّ الطيّات وإن تندّت أطرافه السفلية فوق الحذاء الكبير الذى يشبه أحذية الجيش .

البنات يثرثرن وراءنا الآن ، يتخيّرن مواقع الخطى بمرح وانفعال . أحسست أن المغامرة ، وتحدّى الخطر ، وهواء الأحراش المفتوح ، يجعلهنّ أكثر إثارة وأكثر غواية .

كان هواء الصبح الاستوائى ما زال رطباً ، والسماء ما زالت غائمة بسحبٍ بيضاء خفيفة نعرف أنها سرعان ما تنجاب عن حرارة ثقيلة سوف تطأ الروح .

قال خميس فجأة وبلهفة : نعود الآن للسيارة .

عندما ارتد باب السيارة بصوتٍ ثقيل متمكّن ، شعرت بدفءٍ غامر ورطب . أحسستُ ساقها تستند إلىّ ببطءٍ وتلمُّسٍ أولاً ، ثم تطمئن إلى التصاقها بى .

استدارت إلى خميس ، وجهها إليه ، لكن جسمها الذى يفيض بشهوية مكتومة يستند إلىّ ، فى المسافة الضيقة للمقاعد الأمامية ، وسألتْه كم تستغرق الرحلة إلى «موشى» ، كأنما لم تعرف توتُّرى واستجابتى الصامتة .

سارت «الفورد» المتينة القديمة على الطريق المسفلت بين الأشجار الشاهقة الثقيلة ، والمراعى المتموّجة الفسيحة .

قال لى خميس بحسم : بوانا . الآن اغلقوا النوافذ بإحكام . من فضلك ، بسرعة من فضلك .

كانت البنات فى المقاعد الخلفية للسيارة قد استغرقن فى حديث طويل حميم عن مشترياتهن وأسعار الأنسجة الحريرية ومزايا التُحف المستوردة من آسيا . يتبارين فى التباهى ببراعتهن فى مساومة التجار الهنود فى «أروشا» . بينما كانت الأحراش تتكاثف شيئاً فشيئاً على جانبى الطريق . ولاحت لنا من بعيد عند الأفق تقريباً عبر مساحات من الخضرة المتنوعة . رقبة زرافة تبدو رشيقة ممشوقة ودقيقة بالنسبة إلى الرأس الذى يرتفع إلى الأطراف السفلى من أغصان حشبية رفيعة تبدو مرسومة مخططة على صفحة السماء الرائقة الآن ، وقد تجردت الأغصان من أوراقها .

قلت له : الدنيا حرّ ، خميس . لماذا نقفل الزجاج ؟

قال ، بإلحاح بوانا . فى وسط هذه الأشجار القريبة . هناك «شيتا» . الفهد المنقط ، تعرف . يهجم كالبرق . أنا أشمْ رائحته . وأيضاً هناك عائلة سيمبا : الأب واللبؤة والأشبال

كانت قرى الماساى قد تناثرت ثم اختفت

وكذلك اختفت القامات المرنة الطويلة حليقة الرأس تماماً . شامخة فوق الصدور الداكنة الناهدة العارية مكوّرة الأثداء تقريباً . لمحناها من بعيد . ولمعت فى نور الصباح المشعّع حلقات الفضة المتراكبة بعضها فوق بعض باستدارة كاملة تهبط وهى تتسع تدريجياً من العُنق حتى أعلى الصدر

قلت لها : هل تتصورين ؟ الفهود رابضة هنا بين الأغصان الممتدة فوق السيارة تقريباً ، متربصة ، مسحوبة الأجسام ، مستعدة للوثوب ؟

قالت وهي تضحك ، بغواية أنثوية : وهل تتصور أنها سوف تثب فوق السيارة ؟ هذا خيال شاعر . أنتم جميعاً شعراء . قل لى هل تكتبون الشعر على موسيقى سير الجمل فى رمال صحراواتكم؟ صحيح؟

لم أشأ أن أدخل فى مناقشة فقهية ، أو فى درس تعليم ، وكنت قد سئمت هذا النوع من المناقشات .

قلت : عندنا أنواع كثيرة من الموسيقى .

وأضفتُ ، بعد لحظة خاطفة : منها موسيقى الجسد أيضاً .

فرمقتنى بنظرة غير مفهومة إلى حدٍ ما .

عندما وصلنا إلى موشى ، قبل موعد الاجتماع التمهيدى بين المندوبين وجهاز سكرتارية المؤتمر ، تركتنا «نيتسا» وقالت لى ، ببساطة: إلى اللقاء . خذ بالك من نفسك ، بانجليزية فيها لكنة يونانية واضحة ذكّرتنى ببنات اسكندرية .

قلت : بعد نهاية المؤتمر سنصعد إلى فندق «كوين ڤيكتوريا» تحت ثلوج كاليمانچارو .

قالت : صحيح ؟

خطر بذهنى أنها تحب كلمة «صحيح ؟» كأنها لا تصدّق شيئاً للوهلة الأولى .

قلت : صحيح .

قالت : أنا مقيمة هناك ، أسبوع أو نحو ذلك ، قبل أن أعود إلى دار السلام . تركت سيارتى الجيب أمام الفندق ، سأخرج بها للصيد .

قلت : إلى اللقاء نيتسا .

قال سائق سيارة أجرة فى عَمَّان إن فتاة ركبت معه إلى بيتها فى السوق القديم ، جنب الجامع ، وكانت تبكى ، وعندما وصلت إلى باب البيت ، قالت له أن يمر عليها غداً لأنها نسيت أن تحضر معها نقوداً وليس هناك الآن أحد بالبيت . قال إنها كانت ترتدى فستاناً افرنجياً أزرق مشجراً وعقد كهرمان وأن اسمها صبيحة وردان . قال إنها كانت جميلة وصبيّة ورقراقة منوّرة الوجه .

عندما عاد للبيت فى الغد وطلب حقّه قال له أهل البيت إنه ليس عندهم بنات ، الأب والأم والأخوة تجمعوا عليه ، الأم خنقتها الدموع وهى تقول إنه كانت لهم بنت فى السادسة عشرة من عمرها ، اسمها حقاً صبيحة ، ماتت فى مثل هذا اليوم بالذات السنة التى فاتت ، وكان عندها ، صحيح فستان افرنجى أزرق مشجر وعقد كهرمان ما زالا مقفلاً عليهما مع كل ملابسها فى غرفتها التى لم تفتح منذ موتها .

أقسم سائق سيارة الأجرة بكل الأنبياء والأولياء الصالحين ، برأس سيّدنا ومولانا الحسين، إنها جاءت معه للبيت، ودخلت من هذا الباب .

وفى ١٤ أغسطس ١٩٩٦ كتب رمضان حنضل فى المساء القاهرية : «ما زال عفاريت عين شمس يثيرون الرعب والفزع فى قلوب سكان العقار رقم ١٩ بعد أن أشعلوا النيران فى كل شىء داخل المنزل .. ونطق الجماد وتحركت الكراسي وتحدثت الحوائط بأصوات غريبة وتعطلت

التليفونات وظهرت العفاريت فى كل مكان داخل البيت .. مما اضطر السكان إلى الهرب خوفاً على حياتهم وأبنائهم بعد أن فشلوا فى السيطرة على «العفاريت» ولم تفلح تعاويذ الدجّالين فى إيقاف الرعب أو القضاء على تلك الظاهرة ..»

وكتب أيضاً أن فاطمة حسنين التى تسكن فى شقة بالدور الأرضى قالت : «الأمر لا يقتصر على النيران فقط والتى تترك وراءها قطعة قماش صغيرة يشم منها رائحة «جاز» .. ولكن هناك أشياء أخرى منها صدور همسات من الجدران وأصوات من الأطباق ورؤية أشباح ، قالت إنه من الغريب أن النور لا ينطفئ ومع ذلك توجد هذه الظواهر .. وعندما حضر أحد الأدعياء .. انتهى الأمر بالطابق الأرضى وانتقل إلى الطابق الثانى ثم الثالث .. والبقية تأتى ..»

أو كما قالت ..

«وصَرْعهم للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما يتفق للإنس مع الإنس ، وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد ، وهذا كثير معروف .. وكره أكثر العلماء مناكحة الجن ..»

«ولهذا يتصوّرون فى صور الإنس والبهائم فيتصوّرون فى صور الحيات والعقارب وغيرها ، وفى صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وفى صور الطير وفى صور بنى آدم» .

(من كتاب «الجن» لابن تيمية ، مكتبة الإيمان .. شارع أحمد سوكارنو .. القاهرة ، ١٩٨٩) .

عندما وصلنا فى آخر يوم من يناير ١٩٦٣ إلى المدرسة الثانوية التى

كانت الحكومة - أو الحزب - قد أعدتها لاجتماعات مؤتمر التضامن الأفريقي الأسيوى قرأنا فى صحيفة «تنجانيقا ستاندارد» أن مسز جولدا مائير وزيرة الخارجية الإسرائيلية قد وصلت بالطائرة إلى موشى وكان فى استقبالها الآنسة لوسى كاميل نائبة وزير التعاونيات والتنمية الاجتماعية ، والسيد والوا المفوّض الإقليمي للمنطقة الشمالية .

كان بانتظارنا فى فناء المدرسة السيد شيانج لى مندوب التضامن فى الصين الشعبية ومساعده السيد هوانج شو .

قال لى شيانج لى ، وهو يضع ذراعه على كتفى بمودة وألفة ، إننا ننتمى كلنا إلى العالم الثالث ، مصر جمال عبد الناصر ، وأفريقيا كلها وإندونيسيا سوكارنو ، ولكن الاتحاد السوفيتى دولة عظمى إمبريالية .

رأيت السيدة عديلة من أعضاء السكرتارية الفنية ، تسرع فى فناء المدرسة إلى التواليت ، وقد سقط الغروب علينا ، وأصوات الغابات غير بعيدة ، غامضة فى أول الليل . كانت تهرول بخطوات متقاربة تضم ساقيها، إحداها إلى الأخرى ، بشدة ، وخيّل إلىّ أن قطرات نزرة ترشح ببطء على أسفل ساقيها تحت الجوبة الطويلة الخفيفة . سمعتها تهمس لنفسها بصوت لم أكد أسمعه «يا فضيحتى .. يا فضيحتى يانا» وأدركت من الرائحة الخاصة التى أعرفها أن العادة قد فاجأتها على غير انتظار وأنها تسارع إلى علاج الأمر كيفما استطاعت ، وكانت آرليت تتابعها بالنظر من على باب القاعة وهى تبتسم لنفسها ابتسامة لا تخلو من شرٍ هيّن أو من شماتة أو من سخرية أو منها جميعاً .

العمود الحار المشرئب على فخذك المدملجة .

أنت تستطعمين فيضاً فجائياً للمنّ والسلوى .

في صبيحة اليوم التالي استيقظنا مبكرين .

أفطرنا في المطعم على سطح الفندق الصغير الذي كانت تملكه وتديره عائلة يونانية ، ابنها الصغير يجري بين الموائد ويضحك مع النزلاء ، وتعاكسه بنات السكرتارية بحنان .

كانت جولدا مائير تفطر في الجانب البعيد من المطعم مع الوفد الإسرائيلي والمسئولين أو المرافقين الأفارقة . وبدأت حركة ولغط وانفعال عندنا فقلت لأعضاء السكرتارية إننا لا نتكلم معهم إطلاقاً ، لا نحييّ ولا نحتك ولا نتحرش ، إلا إذا تحرشوا بنا من ناحيتهم ، عندئذ نردّ بقوة ولكن بعقل ونظام ، لأننا ضيوف في هذا البلد الطيب .

وفي المساء سافر الوفد الإسرائيلي -الله لا يرجعه- إلى دار السلام.

عندما نزلنا كان خميس ، مهذباً ، وديعاً وحازماً ، نظيفاً لا شائبة فيه ، كعادته ، ينتظرنا على باب الفندق ، أمام سيارته السوداء العفيّة الشكل ، بمقدمتها المربعة التي تبدو قادرة على التحدي .

الشمس كانت قد غابت وراء كاليمانچارو ، والفورد الآن تصعد الطريق الجبلي الضيّق ، في نور الغسق الذي يضيء الوهاد العميقة والشعاب الوعرة بزوايا مفاجئة ، بين الأحراش التي تلتف بالمهاوي ويأحضان الجبل وحُيُوده . المطر يسقط بهدوء وصمت تقريباً ، ثقيلاً ومدراراً وحاراً ، ولكن دون تعجُّل ، ثابت القطْر ، كأننا نتوغل في بحر أخضر الموج من غمار الغابات .

وصلنا في النهاية إلى فندق «كوين ڤيكتوريا» على سفح

كاليمانچارو . أنواره الكهربية مبلولة بالماء تُشع بضعف . وقفت الفورد على الهضبة المستوية الضيقة بين حفافى الجبل النازلة ووعوره المغطّاة تماماً بأشجار ضخمة الجذوع أثيثة الأغصان ، مُهدِّدة . المطر ينسال تحت أنوار الواجهة يتعرج فى خطوط رفيعة متصلة على جدران الفندق الخارجية المعمولة من جذوع أشجار متينة مدوّرة متلاصقة وينسدل بنعومة على نوافذه الزجاجية العريضة .

جلسنا ، أنا وخميس والبنات ، فى ردهة الفندق المبنى على الطراز الإنجليزى العريق ، كان المندوبون وأعضاء السكرتارية والمرافقون قد سبقونا . تأخرنا إذ كان علينا أن نُنهى آخر وثائق المؤتمر ، وأخذت عينىّ زخارفُ الحديد المشغول على هيئة أوراق شجر وأغصان رفيعة ملتوية على نمط الـ "نوفو آر" الكولونيالى ، وراءها زجاج مضلّع سميك ، جدران الردهة من جوهّ ، ومنصة الاستقبال ، من رخام أسود مشرّج بخيوط بيضاء ناعمة غائرة فى لحم الرخام ، والضوء بعد غبشة الجبل وغاباته ، ساطع يتوهج من مصابيح ڤيكتورية القوالب مزدهرة الزجاج ، ثمار ناضجة شهيّة .

جاءت جلستى على مقعد واطئ هو ساق فيل ، مدورة ، مقطوعة ، مجوفة ومجففة ، عليها قرص من خشب الموجَنَى المصقول ، مقعّر إلى أهون درجة بحيث يكون مريحاً ، ومنعشاً للجالسين . جلد الفيل المقدّد الخارجىّ كما هو ، ما زالت فيه تعاريج وتلافيف توحى بأن الساق المبتورة فيها حياة قوية .

جاء السقاة الأفارقة ، مرتدين حلّة سوداء وطربوشاً أوغندياً قصيراً ،

برشاقةٍ وخفة ، قدموا لنا كوكتيل الترحيب فيه طعم المارتينى والأناناس، وبينما اللغط البهيج حولى ، فى انتظار أن نملأ استمارات تسجيل النزول فى الفندق ، وفى قلب التزاحم الهيّن ، خطفَتْ ببصرى "نيتسا" ، بقوامها اللدن ، فى فستان خفيف بحمّالات رفيعة ، يلتفّ بخصرها الرقيق وردفيها المكتنزين المضمومين . هل لمحت كتفيها ، عاريتين ، تومضان بنضارة البشرة البضّة التى لوّحتها الشمس الاستوائية ؟ هل وقعت عيناى من على بُعْد ، من بين القامات الذاهبة الآتية والحقائب المرصوصة والمرفوعة ، والأكواب والصوانى الفضّية ، على نهدين متحررين صغيرين ممتلئين بالشهوة وراء نسيج الفستان الطرىّ ؟

عندما وقّعت بإمضائى على استمارة الفندق استرقتُ النظر إلى سجلٍّ النزلاء ، ولمحت رقم غرفتها ، ١٧ ، ن . خريستودولوبوليس .

لم أنَم . كان ثمّ ما يؤرقنى بقلق التشوّف والتوقّع وحميّا اللهفة وحريق الروح .

بعد منتصف الليل طرقتُ بابها ، برفق .

فتحتْ نصف فتحة .

لمحتُ مصباح سريرها منيراً على كتاب مفتوح .

كانت ترتدى روب نوم أبيض حريرىّ الشكل ، ينسدل على الجسم الذى أحسسته عارياً فائراً بالحرّ ، من وراء شقّىْ الروب المضمومين على تعجُّل بحزام رفيع .

نظرتْ إلىّ ، من وراء الباب الموارب ، بتساؤل قليل . كأنما كانت تعرف .

قلت : نيتسا ، افتحى لى .

هكذا ، مباشرة ، بلهفة ، دون تحيّة ، من غير مقدّمات .

هزّت رأسها بتردد ، كأنما لم يستقر عزمها على شىء .

قلت بصوت خفيض : أحبك

قالت : دعك من هذا .

همست : أحبك . تفتحى لى أو أصرخ ، أوقظ الفندق كله علَىَّ :

"أحبك ، أحبك ، أحبك"

قالت وطيف ابتسامة يرود شفتيها النضرتين غير المصبوغتين :

- لن تجرؤ

قلت : جربينى .. لا تتحدينى .

هزت رأسها مرة أخرى .

ففتحت فمى ببداية صيحة مدوية : أ ...

وضعت يدها بسرعة ، أحسستها رخْصة لدنة منعشة ، على فمى ، فاندفعت إلى الداخل .

فى خطفة برق كانت بين ذراعىّ ، على السرير . وكنا نتقلب معاً فى هوس الحب .

كانت فى حضنى ، لكنها أيضاً لم تكن معى ، شهقتُ ، كنت أسقط فى هوّة غائرة من النشوة . أحسست أننى أهبط معها تحت ، إلى عمق ما فى دخيلتى . وبشكل ما كنت أحس فيها جسداً هو أكثر من جسد ، كأنه ممزّق وصافٍ . كنت أقبض على ملء جوارحها اللينة القوية ، فمى

ووجهى يتمرغان على الجسد الوثير ، وكأننى غائب ، أو هى الغائبة .

من نافذتها خطفت أمام عينىّ قمة كاليمانچارو تحت القمر كامل الاستدارة ، كانت القمة المخروطية تحت البدر ساطعة بثلوجها الشاهقة ، ونحن فى دفء جسدينا معاً ، كأنها تتربص بنا ، كأن فيها إرادة غير مفهومة وكأن ثلوجها فى الضوء اللبنىّ الكثيف القوام ، تتهدل ، تهبط أطرافها قليلاً .

لا أذكر كيف عدت إلى غرفتى فى أول الفجر .

عندما نزلنا للعودة قال لى خميس إن الفتاة اليونانية التى كانت معنا من أسبوع ، ووصّلناها إلى موشى ، خرجت وحدها للصيد تحت ثلوج كاليمانچارو . قال إن سيارتها الچيب سقطت فى الهوة بين جبلين، إلى تحت ، تحت ، فى العمق السحيق ، قال إن أحداً لم يستطع الوصول إليها بين الأحراش ، وإن المنطقة خطرة مليئة بالثعابين الضخمة وفهود الشيتا . قال إنها بنت جميلة وشجاعة .

قبل أن نبارح "كوين ڤيكتوريا" سألتُ عن نزيلة الغرفة رقم ١٧ ، هل نزلتْ للإفطار ؟

قال لى موظف الاستقبال إن الغرفة خالية من سبعة أيام .

***

(٢)

الخلاعة والدلاعة مذهبى

كان صوت الشيخ مدبولى أبو دومة خشناً، أجشّ ، بلهجته الصعيدية العريقة ، وفيه نوع من الحنوّ الخَلْفىّ - إذا أمكن القول - وهو ينشد طقطوقة أم كلثوم القديمة ، وقد أدخل عليها تغييرات لم أكن أعرفها عندئذ:

الخلاعة والدلاعة .. مذهبى

والحب دينى - وهواها - والنبى

عرفت بعد ذلك أنها إحدى أغنيتين ممنوعتين من الإذاعة ، وأن الشاعر أحمد رامى عدّل مطلع الطقطوقة إلى :

اللطافة والخَفَافة .. مذهبى

لكى تغنيها أم كلثوم فى حفلاتها ، وأن المقطع الثانى هو :

من زمان أهوى صفاها .. والنبى .

كان الرجل متين البنيان ، فيما يبدو ، وكان متمكن الجلسة على

المصطبة التى تغطيها فروة سوداد ناعمة الوبرة ، عمامته البيضاء الناصعة مستقرة على الرأس الصلب ، عظام صدره الداكنة تبدو ، عليها عرق خفيف وشعيرات بيض ملتفة ، من تقويرة القفطان المستديرة ، أكمامه ، المنسحبة إلى تحت بوسْع ، تنحسر عن ذراعين مفتولتين ، ناحلتين قليلاً .

حرارة الليلة قد آبت إلى انحسار هين ، أنفاس النيل المليئة البعيدة تأتينا عبر غيطان الفول والبرسيم المنتعشة بالقمر ومقدم الفيضان .

وقف إلى جانب الشيخ أبو دومة عازف المزمار الصعيدى الطويل ، وإلى شماله الطبّال يدق بانتظام على الواحدة ، بإيقاع محكوم ، الطبلة الفخار ، ذات الجلد المشدود البنىّ ، تبدو واضحة تحت نور الكلوب الساطع الذى يفحّ بحرارة .

هذا كلّ التَخْت .

فهل كان هذا الصوت الرجولىّ العميق يتضمن إيحاءً خلفياً بنغمة أنثوية فى الوقت نفسه ؟ أم كانت الكلمات - فقط - هى التى تستفز هذا الوهم ؟

لم يكن فى تنغيمة الصوت أدنى ميوعة أو لين ، لماذا إذن أحسست فيه ترجيعاً أو صدى نسوياً ، قوياً قوة نساء الصعيد ؟

الشيخ حسنين الوليد ، عميد الوَلايْدة وعُمدة ساقُلته كان مؤاجراً لأرض أولاد عمى - هم أولاد أعمام أبى على الحقيقة - جيصَر وبُقْطر وزِكْرى ، وكان بدوره كالمعتاد يترك الأرض يركبها الفلاحون والأجَريّة، جاء إلى بيتنا فى أخميم ودعانا - حلف بمحمد وعيسى وموسى وأولياء

الله جميعاً - أن نذهب إلى البلد ، لنحتفل بطُهور ولده على .

حضرنا زفة الطهور على المغارب ، الولد فوق الجمل الذى يتبختر بدلال ، أمامه الخيل ترقص وهى تحجل على ترجيعات المزمار أبو رُوحين. التراب يثور تحت حوافرها وبين أقدام الفلاحين الحفاة ، زغاريد النسوة تلعلع من البيوت من وراء النوافذ العالية المغلقة فى حيطان مصمتة ، والغفراء يطلقون الأعيرة من البنادق الميرى ، فى الهواء ، بين الأسطح المحملة بأعواد القطن اليابس وأقراص الجلة الجافة .

ومن بين سيقان الخيل والجمال والرجال لمحت الأطفال الصغار ، ملبّدى الشعر ، بجلابيّة واحدة قصيرة على اللحم ، سيقان كالعصيان وكروش مستديرة ، عيونهم جائعة حطت عليها أرتال من ذباب لابدٍ عنيد ، أصابعهم السوداء فى أفواه مفتوحة على نهم لا شبع له ، أما الصبيان الأكبر قليلاً ، قاماتهم الناحلة ، فتبدو عظامُهم ناتئة ترفّ فوقها جلاليب طويلة غير نظيفة ، اللبِد والطواقى مكبوسة على الرأس الحليق ، يهرولون بترصُّنٍ مبّكر جداً عن سِنِّهم ، كلهم حُفاة .

كان أولاد عمىّ فى مقدمة الموكب ، على خيول مطهّمة ، أما أنا فقد أعدّوا لى حماراً أبيض فارهاً شامخ الرقبة ، وطيّعاً .

لمحت الولد على يتأرجح فوق الجَمَل ، وهو يفرّج بين رجليه ، على وجهه ما يشبه الغياب ، والفرح ، وعدم الفهم ، وجهد إخفاء الوجع معاً ، كما يليق بالرجال .

قلت لنفسى : أنا أيضاً أخفيت ألمى ، لم أقل إنه يوجعنى ، هل كان ذلك حياءً أم استرجالاً ؟

لم أكن أكبر من على إلا بقليل . وكنت قد تطهرت من خمس سنوات

أو نحوها ، هل كان ذلك إذن فى ١٩٣٣ هل كان ذلك قبل التناصير ، أم بعده ؟ قَبْله بلا شك .

جاء حلاق الصحة المعتمد ، من مكتب راغب باشا إلى بيتنا فى غيط العنب ، وبعد أن استحممت ، بعد الظُهر ، ألبسونى جلابية بيضاء زَىّ الفلّ ، لم يقل لى أحد شيئاً .

رأيت الرجل يسخن الموسى المقوسة البيضاء حتى احمرت وتوهّجت ، وتركها تبرد دون أن يمسّها . فوجئت إذ وجدتهم يمسكون ذراعىّ وساقىّ ، بقوة ، يسحبون اللباس بسرعة ويفرّجون بين رجلىّ . وضعوا الطشت تحتى - جنب السرير العالى مباشرة - وقد امتلأ الماء السخن فيه بالدم القانى . ظننت أننى لم أحس ألماً عندئذ ، ولكنى ما زلت أذكر - أو أتوهم - صرختى تدوى فى أذنىّ حتى الآن ، نمت على سرير أبى ، الأربطة البيضاء الكثيرة حول العضو المطهّر تصطدم بها ساقاى عند نزولى للمرحاض ، والحرقان الخفيف .

أسأل نفسى الآن : لماذا تأخرت كل طقوس الطفولة والصبا والشباب عندى ، بعد موعدها المفروض ، سنوات ؟ الطهور ، التناصير ، وصُنْع الحب ؟

الشقاوة والحلاوة مذهبى

والحب - وهواها - دينى والنبى

شوف دلاله ولاّ قدّه وطلْعته

تفرح القلب يا ناس كده .. والنبى

هل كان هذا المُغنّى الصعيدى العفى الذى لا تخفّى رجولته ، بل

خشونته ، يطوى هيكل جسمه وثيق الأيْد ، على دلالٍ نسوىّ مضمّر ومنصهر في بوتقة ذكورته المتأججة ؟عندما تغنى بجمال المحبوبة ، سواء كانت امرأة أم وهماً ، كان عوده يهتز بنشوة المطارد القنّاص الصائد ، وكأنما كان يهتز أيضاً بنشوة الطريدة التى وقعت فى الشِباك عندما اخترقها السهم النافذ إلى الصميم .

الطلاوة والنقاوة مطلبى

والحب دينى ومذهبى

هل اتحد فيه ، وفى صوته وإنشاده معاً ، نقش الأسد القديم المنحوت غائراً على صروح البرابى العتيقة مع الغزالة المستلقية راضية بل سعيدة بالسقوط والتسليم ؟

بعد الزحمة والزياط ورشّ الملح وضرْب الرصاص والزغاريد والمزمار البلدى ، غسلنا أيدينا ، وقد أُذّن للعشاء وقاموا للوضوء وللصلاة وعادوا ، وجاءت نسمة الطراوة ، أحضروا الأباريق النحاسية اللامعة وصبّوا لنا الماء على طشوت نحاسية محمرّة وواسعة ، على أرض الدوار، وسقطت المياه من بزبوز الإبريق المقوّس ، بقرقرة بهيجة وقد صُفّيت بنوى المشمش فى قعر الزير ، فنزلت رائقة شفافة .

دخلتْ أناجر الفتّة واللحمة الضانى ، وطواجن الرزّ المعمّر باللبن والحمام المشْوى سخنة من الفرن ، وأرغفة العيش القمح المرحرح بأقراصه المستديرة العريضة ، وصوانى البطّ والوزّ المحمّر يشرّ بالسمنة الصعيدى الكثيفة على رزّ الخلطة بالكِبَد والقوانس ، والفطير المشلتت بطيّاته رقيقةً هشةً على السطح ، بيضاء دسمة ناضجة العجينة فى القلب الحارّ.

والتمّ ، على الأكل ، المدعوّون وأهل العِزوة وشيوخ الخفر من البلدة

والقرى والعِزب القريبة وإمام الجامع وقسيس الكنيسة وبقية الأعيان والخواجات القبط والمعلمين ، وعلى رأسهم مأمور المركز مع اثنين ثلاثة ضبّاط ، كانت العزومة حافلة ، ابن العمدة البِكْرى .

سمعت خارج الدوار ، من خلال ضجة الوليمة ، همهمة الكلاب الأرمنت وهبّات عوائها النهم المفاجئة ، تختلط بصيحات زَجْر طفلية خشنة وصرخات الخفراء .

كان الأولاد يقاتلون الكلاب على لقمة عيش .

بعد الأكلة الضخمة ، والكلام والهيصة ، والعزومة بالحتة دى والنبى ، طَبْ والمسيح الحىْ ما لأنت واخد يا خواجا جيصر عادْ ، يا زكرى افندى دا بيتك ومطرحك ، والبيه الصغيّر عَيْشرّفنا أوّل مرّة والأ الوكْل الصعيدى مش لاددْ عليك عادْ ، وطبعاً لذّ لى الأكْل ، جاءت الجوافة المعتبرة فواحة الرائحة ، والبطيخ ، والبلح الرُطب جلدته السوداء الندية جاهزة تنسلخ بنعومة لا تكاد تحتمل التقشير عن لحمه الطرىّ المتماسك كهرمانىّ اللون ، أما شرائح الشمام الاسماعيلاوى الذى جاء بالمركب من بلده الأصلى فقد كان جسمه الأصفر المبيضّ الشهى ، فى كل قارب من قواربه المبقورة ، تنزّ بحلاوةٍ كأنها مرئية بالعين ، عطرها يسطع فى أول الليل .

أخذنا راحتنا وجاء آخر دور من أدوار المغنّى والسماع ..

الخلاعة والدلاعة مذهبى

والحب دينى والنبى

نمت على الكليم الصوفى الغنبى فى ليلةِ أوائل سبتمبر تلك ، وأحسست فى النوم بالسيارة الفورد القديمة تهتز وتتمايل فى الطريق

على النيل وبين الحقول ، راجعة إلى أخميم .

"هويدا عبد السلام عبد الحميد (١٣ عاماً) التحقت بالعمل فى مصنع غَزْل الموبيليا منذ ثلاث سنوات بعد إصابة والدها بعجز كليّ نتيجة إصابته بالجلطة وإصابة أمها بالقلب ، ... هويدا لها ثلاثة أخوة وأخوات منهم ولد يكبرها بسنوات قليلة يعمل "أرزقى" يعنى على باب الله ، هويدا تعمل من الساعة السابعة صباحاً حتى الخامسة مساءً أى عشر ساعات كاملة ، لا يتخللها سوى نصف ساعة للغداء ، على ماكينة شدّ الغَزْل الذى يستخدم فى حشو الأنتريهات والكراسى ..."

"...... تقول هويدا ، كان نفسى اتعلم .. واطلع دكتورة أو مدرّسة أو محامية ، لكن أعمل إيه .. آخرتها جيت هنا المصنع علشان أصرف على اخواتى .. أجرتنا ٣ جنيه فى اليوم .. مرّة الماكنة جرحت إيدى لكن الحمد لله ربنا ستر وما عملتْليش عاهة زىّ بقية الأولاد اللى الماكنة قطعت إيدهم.. صاحب المصنع ما رضاش يرجعهم علشان ما بقوش ينفعوا" .

فى حلم مضطرب سمعت ، كأننى لا أسمع ولا أصدّق :

- الناس لبعضها
- واحد عدس واتنين ساده
- خليك معاى .. طبّق
- اتنين وَرْد وواحد معسّل
- خَلّص يا أنور خلّص
- يا جمعة شهّل شوية ..
- شاى بوسطه ..

جدائل شعر النخيل تسقط على فخذين مبتورتين والأذرع النسوية متماسكة فوق العيون المسبلة على حومان أحلام حارة مستحصدة وحانية . نهدٍ واحدٌ منضغط على عظمة الساق المنجردة عن لحمها . أحس لدونة في عظم حقوي هأنذا ، شأني دائماً ، عارى العظام في مناعم العشق العجاج . أصابع اليقين مشدودة مغمورة في بركة الطين الرائق المستقر تحت رقرقة الأحلام في المياه الطامية الحمراء الهادرة بهمهمة غير مفهومة وصيحات زجر وضربات عواء مفاجئ .

"استطاع سائق سيارة نقل تحمل ٦٠٠ أسطوانة بوتاجاز إنقاذ المنطقة التجارية في بني سويف من الحريق أمس ، عندما انفجرت حمولة السيارة أثناء تفريغها . فوجئ السائق بتسرب الغاز من إحدى الاسطوانات واشتعال الحريق فيها .."

"أسرع السائق محمد مرسى محمد بقيادة السيارة إلى إحدى المناطق النائية حيث أبعدها عن المخزن الذى يقع في حيّ سكنيّ وبجوار أكبر المراكز التجارية .. وفي أثناء ذلك توالت الانفجارات والتهمت النيران ٥٥٣ أسطوانة"

تتوالى الانفجارات ، ما زالت تتوالى ، مَنْ ينقذ البلد من حريق العقل ، هل تلتهم النيران جسد الوطن وروح الحب ، هل تتهاوى صروح الحرية والفكر رماداً تحت اشتعالات البداوة والجفاوة ، وضراوة النهب والعطب المستشرى ؟ تعتلج شعاليل نار البوتاجاز متقدة متراقصة حول أشلاء الأجساد النسوية والذكورية المتراكبة والأيدى الطفلية قد بترتها الماكنات ذات الشفرة الحادة المسننة وسيوف المتاجرة بالمقدّس ورشّاشات النصوص

المجمّدة التى لا ترحم ، لم تعد الأيدى تنفع صاحب المصنع، لا يريدها ، هل ثم أمل أن تعرف هذه الأيدى دلاعة أو خلاعة على الرغم من كل شىء؟ كيف تمتد الأيدى المبتورة لتلمّ طرفىْ الملاية اللفّ المنسدلة المحبوكة على الجسم العريان تحت القباب المملوكية فى مقابر الإمام؟ كيف تمتد لتسقى الصبّار الشرس الذى هو وحده قادر على رىّ عطش الراقدين بلا راحة تحت التراب ؟ هل تظل ترجيعات الأذان الرخية تتردد فى آفاق الفجر وتظل الأجراس تقرع وترانيم القداديس والأذكار بالقبطى الديموطيقى والعربى تصدح مع عقابيل الروْع وعَوّة النبْحات والصرخات البربريّة العاتية ؟

"كانت قد قالت له : ما ذنب الوردة المسكينة تسحقها وتفتتها بين أصابعك ؟ نعم رأيتك طبعاً ، صديقك لم يكن فى عظامه ذرّة شرّ ، كان طفلاً كبيراً ، أعرف أنا نوع دون چوان المكشوف اللعب ، الغلبان . ولكن ما دمت أنت قد غضبت .. هل كنت تريد أن تمزّقنى أنا ، وتفتّتنى قطعاً صغيرة ؟ لماذا لم تفعل يا حبيبى ؟"

أما حروفى فترنيمة باثى إلى الزهر المشمشى اليانع المنسرح على قدود القنَن ، أما السين فهو حرف الأرابيسك المخرّم يدخل النور فى نقوش التفافاته ، وحرف الشين من زهرتىْ الأوركيد البنفسجيّة السوداء المتفتحة للأشواق الناضجة ، أما الكاف فهو عندى الحرف المتهدّل المحتقن بلون البنفسج البهيج أيضاً ذى الذؤابات السوداء أمام ومضة الإشعاع المكثّف الساطع بثقافةٍ ألفيّة .

السحاب أبيض طويل سابغ على المساء وثمر المجد مشرئب ومستكنّ تحت النمنمة المبرقشة المنداحة فى تفريعات أفنان الجنون . حمرة قانية فى

فوهة السماء الذهبية حوافها سوداء ترصّعها نجوم المغيب القلقة الناصعة بنور فضى رجراج الاسكندرية شريط لهب رفيع يحيط بدوران القبة السماوية المزدوجة وتندّ عن الأفلاك موسيقاها إذ ينشق السحاب عن ربوبيّته وتندلع نجمة الزهرة المتألقة المكتومة كأنما هى تحتدم بالوجع المكبوت، البحر ساجٍ وهامس بالأسرار التى لا تنفكّ شفرتها وفى الأرض المسرّة على معارج التربة المخطّطة المُعدّة للبِذار وقد غرس بين وهدتيها ثقل الخصوبة المدرار بينما الثيران القوية تحرث الوطأ الوعر بمهاويه وكثبانه المنتزعة من مستنقعات بحيرة "أبو قير" القديمة وملأحة مريوط، ساحة سماء اسكندريتي مشتعلة بنيران الغروب اسطوانات اللهب تنفجر بين وديان السحب المتراكضة أمام الريح مالحة الطعم .

عندما قال بول إيلوار : "إننى لا أخترع الكلمات ، بل أخترع الأشياء والكائنات والأحداث وأخلق لنفسى العواطف .. القصيدة تكشف عالماً جديداً وتصبح - هى - إنساناً جديداً . ظن البعض أن الكتابة التلقائية تدع القصائد لا جدوى فيها ، لا بل هى تزيد وتنمى من مجال تفحُّص الوعْى الشامل الشاعرى وتكسبه غِنى . فإذا كان الوعى كاملاً توازنت العناصر التى تستخرجها الكتابة التلقائية من العالم الداخلى مع عناصر العالم الخارجى .. وعندئذ تتحقق المساواة بينها جميعاً ، وتندمج، لكى تُكوّن الوحدة الشعرية" ..

فهل أقول إنها قادرة أيضاً على أن تُكوِّن وحدة تنويعاتٍ روائيةٍ ما ؟
وهل الطلاوة ، والحلاوة - فقط - هى مطلبى ؟

***

(٣)

خنّوم وعجلة القدر

كنت في حالي ، لا عليّ ولا ليّ ، عندما ناداني خُنُّوم .

كـان الاسـتـاذ برتي برسـوم دليلنا السـيـاحي ، يسـبـقنا في طريق الكِباش، بين معبدىْ الأقـصر والكرنك ، يحكي عن التاريخ بانجليـزية ڤيكتـورية فـصحى ووراءه قطيع السيّاح الملون المجهَد ، عـجائز وشيـوخ أمريكان وألمان ويابان ، بقبعات عريضة وشورتات مخططة ووجوه محمرّة أو مـعـروقـة، يجـرّون الأقـدام ويتـدافـعـون ليلتـقـطوا دُرَر المعلومـات والإحصائيات من فمه ، كان الرجل صعيدياً ، جاوز السبعين بكثيـر ، قال لي إنه تعلم في مدارس الإرساليـات الانجليـزية في أسيـوط ، أيام الاحتلال. قال : كانت أيام .

كـانت الشـمس على وشك المغيب ، والطريق وعـر وطويل ، ناداني خنوم ، كما قلت ، ولبّيت دعوته .

أسير في نفق تحتى فسيح مع أن نور المغرب الحارّ ينسال على الصرح الرماديّ المهيب ، انجردت عنه بهرة ألوانه الزاهية ، عاد إلى جوهرٍ طيني وصخرى ركين ليس فيه بهجة التلوين والتطريب ، وظلّت الرموز والنقوش الألفية غائرة فى جسد الصرح ، يبوح لى بأسرار أعرفها تمام المعرفة فى غورٍ منى ، لكنى لا أعرف كيف أفكّ شفرتها .

قلت لنفسى : بطّل تخاريف ، خلّيك فى السليم .

قلت : ما السليم وما العوار ؟

البرودة الطرية فى قبو البنك الأهلى المصرى فى شارع شريف ، اسكندرية ١٩٤٧ ، وأنا أنزل مع انطونيو پانجويتى المصرى الطليانى الطيب أسمر الوجه ، قديم فى الكار ، يلقننى أسرار الأقباء والخزائن القوية ، وطقوس إيداع الأوراق "الذهبية" والأسهم والسندات فى توابيتها المعدنية الصغيرة المصفوفة فوق بعضها بنظام وذوق ، والأرقام السحرية التى تنفتح لها ، أمامنا وأمام عملاء البنك من الأروام والشوام والطلاينة وبعض الإنجليز والملايْطة ، ومدير البنك اسمه مستر سميث - نعم ، صدّق أو لا تصدّق ، سميث ! - إنجليزى طالع من رواية لديكنز أو كيپلنج ، الوجه المربع المحمر دائماً ، الشعر الأشقر المحفوف ، الشفتان شفرة حادة مطبقة ، ولهجة "البابليك سكول" الراقية أو إحدى الجامعات المكرّسة ، وحتى فى عز الصيف الاسكندرانى الرطب ، القميص ناصع البياض بنصف كُمّ ، ربطة العنق المخططة التى عرفت أنها رابطة عنق "المدرسة القديمة" .

اختارونى - بعد اختبارات وتوصيات - مصرياً وحيداً جامعياً فى

كل هيئة البنك الأهلى الذين كانوا - هم أيضاً - من اليونانيين والإيطاليين والشّوام واليهود ، ونثار من أهل البلد بمؤهلات متوسطة ، كانوا يُعِدّونني لأكون مصرفياً عتيداً ، لكنى أحبطت آمالهم وذهبت إلى مسارٍ مختلفٍ جداً .

هل هبطتُ ، مثل أورفيوس ، إلى هاديس ، أم طرقتُ طريق الكباش إلى غير عودة ؟

كتب أ.د. محمدرفعت الجوهرى إلى باب "بريد الأهرام" الشهير ، فى ١٩٩٥/٧/٣: "طالعنا الأهرام ٦/٣٠ فى صفحة الحوادث بخبر مضحك جداً حيث أن شر البلية ما يضحك . وموجز الخبر أن شركة للصرافة تساهم فيها الحكومة قد أبلغت النيابة بتغيب مدير الخزينة ، وحين تم جرد الخزينة اكتشفوا عجزاً فى مبلغ بسيط جداً عبارة عن أرنب + ورك (مليون ومائة وخمسون ألف جنيه) .. إن المضحك فى الخبر هو أن السيد المدير قد هرب هو وأسرته خارج الديار والمضحك أيضاً أنه ظل يأكل من الأنجْر بمزاجه إلى أن اختفى بمزاجه ثم هرب للخارج بمزاجه أيضاً أى أنه إذا كان قد استمر فى عمله فترة أخرى كان يمكن أن تكون الحصيلة سرباً من الأرانب . وتذكرت على الفور ذلك المجرم الأثيم طالب الجامعة الفقير الذى اتُّهم بتزوير اشتراك لركوب الأتوبيس للذهاب لكلّيته حيث لم يكن يحتكم على بضعة قروش يومياً وكيف تم القبض عليه والتشهير به علناً والله أعلم ما هو مصيره الآن وما تأثير ذلك الحادث على مستقبله . وتذكرت أيضاً تلك الحملات أو الغارات التى تشنها شرطة المرافق وآخرها تلك التى شاهدتها منذ أيام حيث تم القبض على بائع بصل

وعربته الكارو وحصانه وسيقوا جميعاً لقسم الشرطة لأنه كان واقفاً فى الممنوع ولأنه أيضاً باع البصل بخمسة قروش زيادة ، وده طبعاً عيب وما يصحّش ، ولله فى خلقه شئون" انتهى .. هل انتهى قط ؟ ياه يا دكتور جوهرى ، أسراب وقطعان من الأرانب والثيران والفيلة تهرب من البلد كل يوم .. "أرنب وحتة" إيه ؟ دول مليارات متلتلة يا دكتور ..

نداءات العالم البذيئة كيف أواجهها ، كيف أقاومها ، ضجيج جحافلها يصمّ الآذان ؟ لكنّ النداءات ملتبسة .

ها قد امتزج نداء خُنُوم بنداء أوزير ، النداءات فى الطريق الجوّانى قد تعددت ، لكنها لا تسدّ الباب إلى الخارج المزدحم .

خُنُوم هو أيضاً ستعيت سيدة المياه والصواعق ، صاحبة القوس والسهام ، وهى إيزة الأمّ العذراء أم الصقر حور .

خُنُوم هو رامْ الكبش المؤنث ، هو رامة التى أرى أفعى نفثات البخور تتلوى حول ساقيها العبلتين ، صاحبة الباب راعية ميلاد الصياغات صاحبة العرش فى جزيرة الحب فِيله التى تحيق بها الأمواج السمراء المحملة بالخصب . أنتِ القوة الخلاقة الأولية ، أنتِ الهوّة المائية الأولية ، أنتِ صاحبة مزاليج الإبداع حتمعيت عَنْقتْ تختالين بتاجك من الريش تخايلينني وطوفان المياه الثقيلة الغنية تضرب صخور الجنادل الستّة تحت سيقان الفِيلة العظيمة وتهدر بين ضلوعى بصرخة العشق غير المهدورة إلى آخر الزمان .

أما فى ٢٠ فبراير ١٩٠٢ فقد كان أهم اكتشاف وُفّقتْ إليه إدارة متحف الاسكندرية هو قبر القدماء الكبير فى كوم الحديد على مقربة من

كوم الشقافة. وما عُثر عليه من القطع الذهبية فى سنة ١٩٠٠ - ١٩٠١، وما دخل المتحف من الآثار المهمة التى اهتُدى إليها على أثر أعمال السكة الحديدية .

أنثي الصقر الفخور ممتدة الجناحين حتى أفق الدلتا مفتوحة الساقين على البحر الطامى

هل أنت الخلاقة القديمة تطلين برأسك القوى وشعرك الوحىّ من متن سيتشا الذى التَهم روح العدم المغوية هل أنت أنثى الفهد المجنّح ذى رأس الصلّ المنتصب تحت شمس الجنوب وتحت ثلوج كاليمانچارو التى ينبثق حابى من قمتها الذائبة ، أى وريشة الأبدية الطالعة من رحم ذاتها المادة الأصلية والصورة غير الموصوفة معاً تملأين بطنى بكلمات السطوة المندلعة من بحيرة النار هأنذا أعلوكِ هل أنت الثور المؤنّث فى برجِك المكين تحت نجم الشعرى اليمانية يا صاحبة الأيدى القادرة يا صاحبة الأسماء الخفية الجلية صاحبة الأصباح المظلمة والليالى ساطعة السَنَى ضممتِ شِقىّ المنشطرين ثم أعدتِ شَقّهما غير القابل للالتئام مرة بعد مرة بلا انتهاء آكلة قلوب الأرباب وأكباد البشر الغلاّبة القاسية الحانية ، عرفت فى حضنك من أروع النشوات والسكرات ما لم يعرفه بشر منذ الأزل وإلى أبد الآبدين .

هأنذىْ أهذى بحبك ما زلت ، هأنذا أرتل آياتك البيّنات .

خُنُوم الكبش ذو القرون الأفقية المتموجة والوجه المسحوب يرفع حاجبيه المزجّجين يتدلّى من عنقه صليبٌ مورق وهو جالس على كرسى الخيرزان المشغول فى مقهى الفيشاوى يدخن شيشة بعد الظهر مرتدياً

جلابيته السابغة على جسمه المنسرح يضع رِجْلاً على رجلٍ وينظر بتأمل وبلا اهتمام حقيقى إلى باعة الفستق الحلبى والسياح الإسرائيليين والألمان والسكنداف ، وينساهم .

"الطريف أن أصابع الاتهام تشير عادة إلى موظفى ومسئولى البنوك.. ولم يكن جورج إسحق حكيم الذى فرّ بعشرة مليون جنيه حصل عليها كقروض بدون ضمانات قبل الهروب إلى الولايات المتحدة الأمريكية سوى مثال واضح على ظاهرة "القروض الطائرة" .. هؤلاء نهبوا ٣.٥ مليار جنيه من البنوك المصرية" ، والكبش العتيق رابض على عجلة القَدَر ، ما زال .

عندما تكلمتُ عن صبوات الموسيقَى عند صديقى عادل ميلاد ، تكلمتُ بحبٍ وحرص ، خاصمنى ، وفقدت صداقته التى دامت ما يقرب من نصف قرن من الزمان (كم فقدتُ من صداقات!) قال لى إننى أفشيت على الملأ "أسراراً عائلية" وخرجت على الحقائق ، وعلى الأصول . عندما حاولت أن أصالحه ، وأقول إن ذلك كله كان فى سياق التخييل والإيهام وتعمية الأسماء والوقائع ، وإن الكلام كان عن جوهر حبٍ عميق لا عن مسطحات الأمور ، لم يقتنع عُدت أحاول أن أستعيد مودّته فقال ببرودٍ هادئ : يمكن ، يمكن الزمن يصحح الأمور .

وطبعاً الزمن لم يصحح شيئاً .

وطبعاً ما زالت عجلة القدر تدور ، كما يقال ..

وطبعاً حزنت جداً ، يا سيدى . كم نحزن .. ! كلّنا ..!

استبد بى حنينٌ غير مفهوم ، لماذا تأتى هذه النوستالچيات ، بعد

نصفِ قرن ؟ فحاولت أن أجد صديقى القديم جداً چورچ يوسف خورى ، زميلى فى المدرسة العباسية الثانوية أيام الأربعينيات المبكرة . كنت قد فقدت أثره ، قلت : أستردّه ، أستنقذه من سطوة الماضى .

سألت دليل التليفون فى اسكندرية ، قالت عاملة الدليل : ليس عندى هذا الاسم . عندى اسم مادلين يوسف خورى قلت هاتى الرقم . يمكن أخته (التى كنت نسيت اسمها ورسمها معاً)

ردّت علىّ فى التليفون ، قالت إنها زوجته ، وسألتنى من أنا ؟ لماذا أسأل ؟ قلت : زميله فى المدرسة ، من زمان . قالت : ياه ما الذى ذكّرك به الآن ؟ تسأل عنه الآن ، مات زوجى منذ عشرين سنة - كان صوتها بارداً هادئاً ، بلا مبالاة تقريباً . كنت أسمع من بعيد صوت فتاة أو بنت صغيرة ، هل كانت بنته ؟

من عشرين سنة ؟

ترقرقت دموع نزرة ، ولم تنسكب ..

ودارت عجلة الأيام ، طبعاً .. لماذا لا تدور ؟

أما وفيق ، أصدق أصدقاء عمر الصبا والشباب ، فقد كتبت عنه - ومنه - ثلاثة كتب كلها أبنية محترقة وأخيلة متطايرة ورقرقة أحلام ، قيل لى إنه الآن يكرهنى كراهة التحريم ؟ فهل هذا صحيح ؟ قلت لماذا يا ربّى ؟ وما زال القلب العجوز يهتز ويخفق بمودةٍ غابرة ولكن غير بائدة.

طبعاً أقاوم أن أقول إن عجلة القدر .. إلى آخره

خُنُوم إيزه رامة عنقت حتمعيت مريم عشتروت دولسينيا فائقة الكلّ.

تموّجات القرون الأفقيّة تموّجات النيل حفافى الأفق تجلب البعث من الموات تقود حركة الشموس والأقمار .

الصائغة المُشكّلة الموحِّدة البنّاءة صانعة كلّ الحيوان عريقة فى القدم فحولتك وخصوبتك مضرب الأقوال صاحبة المكانة العليا عند الغُنُوصىّ المتبتِّل النهم إلى العبّ من ضروب المُتَع المتراوح بين اليقين وبين العطش الذى لا يريم . ألم تنبثق من بين فخذيك أول بيضة اندلعت منها نيران الشمس يا جامعة الآلهة الأربعة رع وشو وجيب وأوزير سيدة العناصر الأولى الأربعة النار والهواء والأرض والماء المعبودة فى كل الأقاليم وكل الأقانيم روحك تسرى فى كل شىء يا مهندسة الكينونة صاحبة الأسماء السبعة ، نسّاجة الضياء ربّة بيت الحياة رامية البذار ناثرة قطرات المنىّ على أطراف الأرض ستعيت وأساتى إيزيس حتحور هأنذا أتوحد بك يا أنا الأخرى .

كتبت منال العمرى يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٩٦ فى "الأهرام" ديوان الأيام:

"بعد وفاة زوجها منذ أربع سنوات ودفنه بمقابر الإمام الشافعى بالقاهرة ، توجهت أرملته "٤٨ سنة" إلى المدفن ونبشت داخله بحثاً عن جثمان زوجها ، ولم تجد منه سوى الجمجمة فاستخرجتها وحملتها معها فى طريقها إلى منزلها حتى تؤنس وحدتها ...

قالت الأرملة إنها شاهدت زوجها بعد وفاته فى المنام يطلب منها اصطحابه من المدفن والإبقاء عليه داخل مسكنها .."

كم منا نحتضن جماجم أحبائنا التى نبشنا أجداثهم عنها وحملناها معنا فى المنافى ..

أما ذراعاى وساقاى فما زالت - وأوصالى جميعاً - ترتعد تحت طيوف فمك وريق لسانك وكهربة يديك المتلمسّة صانعة معجزة القيامة من وراء ظلمة المغارة وركود مياه المستنقعات فى جزيرة الفيَلة أمام بومباى الساخنة الغارقة فى الدموع وأنت إلى دولابك تشكّلين الحقائق والأحلام من طين الفخار وتُنضجين الأوهام فتتجسد كالجنادل الشُمّ وتصعد - يا فَخرانية - من ينبوع المياه المُرّة المحيطة بنا من كل جانب أنتِ الكائنة فوق بحيرة الفيوم أعطيتنى الكلمات القوية والأعضاء القوية غمرت جسدي بحبك وما زال جسدى عامراً يا إلاهة ليالى القمر المتوهجة وقد اندمجت فى نهارات كرسىّ الشمس يا ملكة التاسوع أنتِ استجلبتِ لى مَحبّة البشر غير المستحقّة ربما ، وكراهيتهم غير المبرّرة وغير المفهومة ، ربما ، رغم كل الحِكم والأمثال ، أنثَى النسر مشرئبة النهدين ها أنذا ما زلت رابضاً بإزاء جسدك الناعم وأنتِ تضمين علىّ جناحيك ، مخالبك الحادة المسنّنة تغوص فى لحمى وتديرين عجلة قدرى بقدمين أظفارهما مطلية بالمانيكير القانى من دمى المسفوح .

كتب المستشار ماهر برسوم نائب رئيس محكمة استئناف القاهرة ، فى أول أغسطس ١٩٨٣ ، يقول "شاهدنا بركان فيزوف" :

"فى ليلة الأربعاء ، ٢٠ يوليو ، إستيقظنا نحن سكان شارع الشيخ على محمود بمصر الجديدة على ضوضاء فى الشارع واستغاثات وحركة تحريك السيارات النائمة فى الشارع . ثم شاهدنا عمود الإنارة الواقع أمام العمارة رقم ١٣ عبارة عن كتلة حمم ونيران يقذفها - مثل بركان فيزوف المعروف - استدعى البعض منا سيارة المطافئ ، وهناك كانت

المفاجأة المذهلة قالوا إن هذه النيران لا تنطفئ إلا إذا فُصلت "السكينة" الخاصة بالتيار الكهربائى وإنه لا توجد لدى رجال المطافئ معدات لعملية الفصل هذه .. !

اتصل البعض بقسم الكهرباء تليفونياً .. ولكن بلا جدوى .. ويظهر أنه لم يكن أحد موجوداً فى هذه الساعة من الهزيع الأخير من الليل .. ! ووقفت سيارة المطافئ عاجزة والنار تنظر إليها وتتحداها .. ! المهم أن عناية الله وحده هى التى أنقذت الشارع وربما الحىّ كله من كارثة محققة. فبعد ساعات من اندلاع النار فى العمود توقفت هذه الحمم من عند الله وحده . ويظهر أن النار أكلت نفسها واكتفت بذلك .. !

(علامات التعجب من عند الأستاذ المستشار ماهر برسوم)

"أما اتحاد الكنّاسين فى الفيوم .. فقد ابتدع أسهل وأسرع وأرخص طريقة لتنظيف المدينة وهى إشعال النيران فى الزبالة بعد تجميعها يومياً أو أسبوعياً حسب الظروف فى نهاية كل شارع من شوارع المدينة السعيدة .. حتى تندلع سحب رهيبة من الدخان الكثيف الخانق الذى يحجب الرؤية ويعمى الأبصار .."

(إسرائيل فلتاؤوس المدير الإدارى بوزارة الزراعة بالفيوم ١١ نوفمبر ١٩٧٩).

ما حاجتى إلى ابتداع الوقائع ؟ ونسج الحكايات ؟

تباريح الوقائع أشدّ شططاً من الجنون .

ما زالت ألسنة النيران وألسنة الدخان تغطّى وجه الأفق .

***

(٤)

الدب القطبي والفارسة على حصان أبيض

كان يا ما كان، يا سعد يا كِرام، في سالف العصور وغابر الأزمان - وحتى الآن - دبٌّ قطبي أبيـاااض ناصع البيـاض، يجوب السهوب والأصقاع والرياض، ويشق الثلوج ببدن ضخم واثقٍ وقادرٍ لا يقاومه مقاومٍ ولا يجرؤ على منازلته سبع ولا إنسان.

أعطيت "تيا" بنت أيمن ، حفيدتي الصغيرة لامعة العينين ، هدية عيد الميلاد ، ذلك الدبّ القطبيّ الأبيض ، كانت له فيونكة حمراء فكتّها "تيا" وحاولت إعادة ربطتها فامتنعت عليها عقدتها ، وتركتها مدلاّة على بطنه ذي الوبَرة السمينة الناعمة .

قلت لها : ماذا تسمّيه يا تيا ؟

قالت بتحدٍ وفخرٍ بالمعرفة :

- اسمه پولار بير Polar bear

قلت لها : دبّ .. دبّ قطبى بالعربى

قالت : دبُ قطبى ..

كانت "تيا" قد حصلت على الدرجات النهائية فى اللغة العربية ، ومع ذلك قالتها لى بالإنجليزية : فيفتى أوفر فيفتى fifty over fifty .

قلت لها : يعنى إيه بالعربى ؟

قالت : يعنى النمرة النهائية يا جِدّو .. !

لم تكن مورمينْسك المحطة النهائية بل كانت آخر محطة قبل أن نصل إلى هاڤانا .

كانت الطائرة التوبوليف الهائلة شاسعة الجناحين ، ترتفع طابقين من الداخل تربط بينهما سلالم دائرية حديدية .

أعضاء السكرتارية الفنية البنات والأولاد مع واحد أو اثنين من المندوبين الأفارقة ، متربعين على السجادة الكازاخستانى الثمينة ، تحت السلّم ، يلعبون الكوتشينة . كان المترجمون الروس متحلقين حولهم يتفرجون أو يرقبون ويرصدون الحركات والسكنات والعلاقات والتعليقات، لم نكن قد وصلنا بعد إلى تلك الساعات الطويلة التى ظللنا نعاصر الشمس فيها ، من نوافذ الطائرة ، ظللنا نتعشى الوجبات الثلاث، ما دمنا طول الوقت فى آخر النهار ، الطائرة والشمس لا تستطيع إحداهما أن تسبق الأخرى ، نتناول "الشوربة" - اسمها بالروسى شوربه - حمراء تعوم فى دهنها الدسم هُبَر اللحم المعصب والبطاطس المنبعجة ، ثم قطعة الستيك التخينة نحتاج إلى سكين حادة أو منشار مسنّن لكى نقطعها . قلبها نصف نىء طرىّ يقطر بالدم البنىّ ، ثم

الماروچنى الثلجى ناصع البياض هو ألذّ ما فى الوجبة المتكررة التى أوشكنا بعد قليل أن نكره كل الأكْل من تكرارها ، عندما تهلّ المضيفة وتقدم الوجبة يهتف المصريون - تعلمها منهم الأفارقة بعد ذلك : تانى!! حتى ظنتها المضيفات عبارة فرح وترحيب .

مهما حلقت التوبوليف على ارتفاع أكثر من ألف قدم وبسرعة ألف كيلو متر فإننا نظل نرى الشمس توشك على المغيب فى الأفق المحمرّ على البحر المحيط الذى يبدو بعيداً - تحت - وساجياً وصامتاً فى هدير المحركات المستمر .

لم نكن قد وصلنا بعد إلى تلك الساعات التى نظل نراوح فيها بين النوم ، وشفط سائل الشوربة وقضمة الستيك ، من غير نفْس ، وترشُّف الأيس كريم وحده الجميل ، وبين اليقظة القلقة ، ومحاولة القراءة أو لعب الورق أو التهريج أو التعسيل .

تلك كانت أيام مؤتمر القارات الثلاث دعا إليه كاسترو فى ١٩٦١ ، وكان التضامن الأفريقى الأسيوى يرعاه ، والمهدى بن بركة من المغرب وعبد الله ديالّو من غينيا يضعان الخطط والتدابير للآتى من الأيام . كانت أزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا ما زالت ماثلة فى الأفق السياسى الدولى ، ومحظور على الطائرات السوفيتية أن تحطّ فى أى مطار على القارة الأمريكية ، بل عليها أن تواصل الرحلة من آخر محطات الاتحاد السوفيتى دفعة واحدة حتى هاڤانا ، دون أن تخرج عن الأجواء الدولية المفتوحة فى موازاة المحيط الأطلنطى .

وهكذا نزلنا فى مورمينسك .

الترمومتر الضخم المعلق على جدار المحطة الخارجى ، تحت كلمة "أيروفلوت" الروسية يشير إلى ٤٠ تحت الصفر .

أربعين ، يعنى البرد كان مستحيلاً وغير إنسانى .

لبست الشابكا الفرو الثقيل من الصوف الأسود فقد كان حصنى المنيع ، وقبل أن أنزل كنت ارتديت السراويل التحتانية الصوفية الطويلة تحت البنطلون الذى أحسسته فجأة رقيقاً وخفيفاً ، مع الجوارب السميكة تحت الحذاء وقد كان فى حسى هشاً كأنه مصنوع من قماش واهن ضعيف لا من الجلد المتين .

لم أكد ألمس سياج سلّم الطائرة الخارجى الشاهق حتى ندت عنى - وسمعتها من الجميع - صرخة رعب من البرد ، المسافة بين سلم الطائرة والباص بضع خطوات على جليد صلب فوقه طبقة متراكمة من الثلج الناعم غاصت فيه أحذيتنا . لم نستطع الجلوس على مقاعد الباص ، شعرنا بها مثلوجة وصل ثلجها حتى نخاع العظم من خلال كل الحواجز والتحصينات ، وجدت أننا جميعاً آثرنا الوقوف متساندين على بعضنا بعضاً ، حتى هبطنا جرياً إلى باب المحطة الجوية ، وأنا أسمع حولى وحوحة الزملاء وطقطقة أسنانهم .

كانت السماء صافية عالية عميقة الزرقة نجومها متناثرة ومزدحمة تلمع ، ولم تكن تثلجنا ، لحسن الحظ . لم تكن المحطة إلا كوخاً خشبياً ضخماً محكم الصنع من جذوع أشجار قوية متلاصقة .

قال لى آنفر فاليبكوف - أعود به إلى أصل اسمه فأناديه أنور والى بيك - مترجمنا الأوزبكى المتوفز بالحيوية ، إن المحطة كانت فى الأصل

كوخاً لأمير من عائلة القيصر هو الأرشيدوق ميخائيل ميخائيلوفيتش رومانوف ، وأنه هو وحاشيته وكلابه وخيوله وعرباته وزحّافاته كانوا يأتون هنا لرحلاتٍ يتعقبون فيه الدبّ القطبى الأبيض ويطاردونه حتى الموت .

كان أنور يتكلم باللغة العربية بلكنة شامية .

ولكننى فكرت أن الاسم - ميخائيل - بشكل ما ، لم يكن غريباً علىّ .

عندما دخلنا كان السامو فار يطقطق بتوقّد الفحم البهيج فى أحشائه. وكان جسم المدفأة الصاعد إلى السقف له ثمانية أضلاع من القاشانى الأبيض الذى اصفرّ قليلاً بعد كل تلك السنوات ، وهو مزخرف بنمنمات زرقاء داكنة دقيقة بارعة التفريعات . المدخنة تخترق السقف الخشبىّ من ثقب دائرى يحتضنها بوثاقة وإحكام ، وينبعث من المدفأة الرأسية الخزفية تلك حرارة مشعة موزعة فى كل اتجاه ليست فيها حدة وليست مسدّدة إلى ناحية دون أخرى .

صعد بخار الشاى المغلى وندى الدفء إلى عينىّ وغبّش نظارتى ، وبدأنا جميعاً نخلع الشابكات والمعاطف والتلافيح ، وأحسست العرق يتقطر من ملابسى الداخلية .

أهم ما فى هذه الحكاية كلها - إن كان لها أدنى أهمية بعد كل تلك السنوات - أنه فى اللحظة الخاطفة الهاربة التى جريت فيها من باب الباصّ إلى باب المحطة ، وفى وهج الغروب القطبى الذى هو إلى غسق الليل أقرب ، لمحت على البعد ذلك الدبّ الأبيض الضخم، يهرول بعيداً،

جسمه المتمكن يميل من ناحية إلى ناحية ، هو وحده صاحب هذا البراح الثلجي الشاسع لا يمكن أن ينازعه فيه أحد ولا شيء ، لا التوبوليف ولا سُكّانها ولا طاقم المحطة الأرضية ولا نحن إذ تدرج فى هذا اليباب الذى لا نهاية له ، حيوانات صغيرة سوداء مذعورة تلتمس الدفء والحِمى .

فجأة تذكرت الاسم ، وصاحبه .

قبل سفرنا كانت اللجنة السوفيتية للتضامن الأفريقى الأسيوى قد نظمت لنا رحلة إلى قصر آركنجل ، على مبعدة ساعة أو نحوها بالسيارة من موسكو .

وعبر طريق رمليّ مفروش بالحصى الملوّن من البوابة الحديدية المشغولة، تزاحمنا فى الردهة الضيقة مع مترجمينا ، وخلعنا الأحذية ، لبسنا نعالاً من اللباد الطرى حتى لا نخدش أو نجرح الباركيه الثمين فى غرفات القصر المكدسة بتحف من الخزف النادر ، فازات صينية تاريخية، سرفيسات فضية ، فناجين شاى منقوشة بالأزرق الصافى فى غاية الدقة والرهافة ووضوح التفاصيل للرعاة الذين ينفخون تحت أشجار الغابات بمزامير نحيلة ، واللوحات الزيتية القديمة عليها طبقة من تراب الزمن أكسبتها عراقة وطعماً ، أو تلك التى نالتها يد الترميم فلمعت لمعة فجة قليلاً بالألوان الصارخة كأنها خرجت بالأمس من تحت يدى الرسام ، والخزانات من خشب الموجنه الداكن اللامع المنحوت ، وواجهاتها من الزجاج السميك المضلّع المقسّم بين أطر رقيقة من النحاس .

شأن كل البيوت التى تحولت إلى متاحف أحسست فجأة أننى فى داخل مقبرة نظيفة جداً وحسنة الإضاءة جداً ، العناية بها غير مضنونة

على الإطلاق ، لكنها تنفث رائحة موتٍ خفى يسرى فى كل شىء .

وفجأة سقط صمت شامل حولى ، سبقنى الفوج إلى داخل القصر ، وجدت نفسى أقف أمام بورتريه الأرشيدوق رومانوف فى الردهة الرئيسية الحاوية التى انحسرت عنها ضجة لغط الأدلاء السياحيين والمترجمين والأفارقة والأسيويين فى بابل لغاتهم المتداخلة وأصدائها ، ترددها الجدران القديمة .

الأمير من داخل لوحته المؤطرة بالذهب يحدجنى بعينين نفاذتين ما زالتا تفيضان بحيوية خارقة ، وأنا ألبس فى قدمى ، تحت الجورب الصوفى الطويل ، ذلك الخفّ القماشىّ الناعم ، أنعم بالدفء والهدوء والصمت ، لحظة ، وحدى .

سمعت دقات حذاء على الباركيه ، دهشت من الصدمة ، كان الأمير ميخائيل أمامى ، ينظر إلىّ نظرةً مستطلعة ، قلت فى نفسى : "إدارة المتحف تعدّ لنا مفاجأة ، هذا بلا شك ممثل يأخذ دور صاحب القصر الذى مات من مائتى عام" .

كان هو ، الخالق الناطق ، الباروكة المصففة المذرورة بالمسحوق الأبيض، شممت رائحة عطر قوى فيه نفحة صندل ، المعطف الرمادى بأكتافه العريضة المحشوة ، منسدل على قامته السرحة الجسيمة ، ذيله المبطن بالأحمر مزرر بالسروال الضيق المخملى لامع السواد ، جيب المعطف مثل مخلاة أنيقة صغيرة ، متدلٍ من الخارج ، وفى لمحة خاطفة رمقت الجورب الأبيض الذى يحبك ساقيه الطويلتين حتى ما تحت الركبة حيث تلتصق به حافة السروال القطيفة السوداء ، والحذاء اللامع الأسود

المصقول - كيف سمحت له إدارة المتحف بارتدائه ؟ - له كعب عريض عالق قليلاً ، تماماً مثل اللوحة ، وعلى وجه الحذاء إبزيم مربع كبير ، يومض ، ذهبياً .

تقدم الأمير نحوى خطوة ، فى السكون المحيق ، ورأيت تحت معطفه، الصديرى المحبوك ، السلسلة الذهبية السميكة ، وساعة الجيب المدوّرة . صلصل السيف الرابض فى غمده ، وتحت الصديرى هفهفت ياقة القميص الأزرق السماوى المفوّفة بالدانتيللا ، تحمى عنقه الذى أدهشنى نحوله وهشاشته .

بادرنى الرجل بفرنسية أنيقة لا تشوب لكْنتها الباريسية أية شائبة ، ولكن بصوت خشن قليلاً :

- أعجبتك اللوحة ؟

قلت بالفرنسية أيضاً :

- جداً . أنت تمثله تمثيلاً رائعاً ، صورة مطابقة للأصل .

قال بما خيل إلىّ أنه شىء من الاستهجان ، كأنه يستحمقنى قليلاً : صورة مطابقة للأصل ؟ اللوحة تعنى ؟ دعك من هذا وقل لى هل أحببت زيارتك للقصر ؟

قلت : طبعاً . جميل جداً . كل ما فيه ينم عن ذوقٍ مرهف ، لا شك أن الأمير عاش فى باريس ، وتذوق فنونها ، وعرف متعة الحياة .

قال بشىء من الحدة والاستغراب : لماذا تتكلم عنى كأننى غائب ؟

لم أحر جواباً ، بالطبع ، ولم أستطع أن أضحك ، قلت فى نفسى : "هذا ممثل يعيش دوره حقاً" رمقت اللوحة من جديد ، كأننى أريد أن

أستوثق ، ولما التفتّ لم أجده .

جاء أنور والى بيك ملهوفاً قليلاً ، كان يبحث عنى .

ثم خرجنا بعد أن استرددنا أحذيتنا ، ملفـفين بالمعاطف والشيلان والملافح والقفافيز والقبعات والشابكات ، تجولنا فى عز البرد ، بين ممرات الحدائق المحيطة بالقصر ، الأشجار الصنوبر والجوز سامقة مثقلة بالثلج أغصانها ، تماماً مثل البطاقات البريدية فى الكريسماس ورأس السنة ، الممرات زلقة قليلاً بتجمد الجليد أو المبتلة قليلاً بذوْبه .

ثم أهرعنا إلى المطعم الدافئ - بل الحار- المحاط بألواح زجاجية ساطعة النظافة ، وجلسنا متزاحمين متقاربين جداً على المقاعد الخشبية الطويلة المصقولة ، شربنا فودكا موسكوفاكايا ، وكونياك من أرمينيا ، ونبيذاً من چورچيا ، وأكلنا وجبة روسية دسمة وحافلة فيها أطايب غريبة مثل لحم الغزال من استونيا ، ولسان الدب القطبى من سيبريا ، وكان طعمه جافاً وحريفاً قليلاً ولكنه كان مقبولاً بل لذيذاً إلى حد ما مع الكرات الأخضر من أذربيجان ، والكافيار من البحر الأسود ، وخصوصاً مع الضحك والشرب ودفء البنات المُطمْئن ، ورفْع الأنخاب باللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية ووشوشة الترجمة التتبعية يهمس بها المترجمون ، والمترجمات الروسيات الجميلات - كلهن على علاقة بالمخابرات طبعاً ! - باللغات الأسبانية واليابانية والهندوستانية والأردية ، فى آذان المندوبين المستمعين إليها بنصف أذن والناعمين بحضورٍ أنثوى حميم للمترجمات .

كانت الفودكا قد وثبت إلى رأسى .

وعندما قال لى أنور والى بيك : هل رأيته أنت أيضاً ؟

ولم يكمل ،

لم أسأل .

أما الفرو الأبيض الناعم تحت يدى فهو نعمة فى الملمس ، بل نُعْمَى . فقد انجاب عن حرير جسدها الشامخ العارى ، تركته معلقاً على كتفيها ، وهى تحيطنى بذراعين أملودين مدملجتين وقويّتيْن فيهما ما يشبه إطباق قيود أنثوية عَضِلة ولدِنة معاً ، تطبق على شفتيّ بشفتين مثلوجتين سرعان ما دبّ فيهما دفء إنعاش النشوة وتلمُّس النعمة التى لا تضارَع .

عندما رأيت عينين بلون الصبّار الأخضر الداكن المترع بعصارة كثيفة فى وجهها الجميل المشرَب بلون القمح الذهبى الناضج القديم ، عندما لامس ثدياها الممتلئان فى غير تهدلٍ صدرى اشتعلت روحى بحنان امرأة اللوتس الغريقة تنهل من السراب ، شحب وجهها بفعل الحب ، شاخصة العينين إلى ما وراء كل الآفاق مهما كانت شاسعة البراح . قنّينة الأولد بار تحت الفرو الأبيض مستندة إلى صدرها الوفير ، اكتسبت منه وهجاً وروحاً مُسْكِرة أخرى ، الفرو الأبيض على اللحم مباشرة يعطيها مذاقاً حيوانياً وروحياً محلّقاً فى الوقت نفسه .

"بَعُدَ الزمان وهاجنى اشتياقُ"

فهل من جدوى للحنين الماثل بعد طول فراقِ ؟

ينصبّ السائل المشعشع الأصهب فى كوب الفندق الرخيص ، وعلى الفور استحال الكوب أبو تلاتة تعريفة المعدّ لأن توضع فيه فرشاة

الأسنان أو معجون الحلاقة ، إلى بلّور مضلّع في يدها الرخْصة ، تلعب في جداره الشفاف المتألق أشعة خاطفة ماسيّة وزرقاء لازوردية وحمراء نارية .

كان طعم الأولد پار على شفتيها المكتنزتين فيه حلاوة طفيفة لا تكاد تُحس ، من ريقها الندى .

أما رئيس الوفد الشيخ فقد نزل من عند زميلتها ، ومعه تيپلشين مترجمه الخاص الروسى ضخم البنيان ثاقب الصوت (طبعاً المترجمة الأخرى ناتاشا الحلوة مثل دمية ملونة مزوّقة ورشيقة وكفء ، لم تكن معهم فى هذه الزيارة الخاصة جداً) وبعد أن وصل بالسيارة الشايكا السوداء الفخمة إلى جناحه الواسع فى فندق أوكراينا المرمرى شاهق الأعمدة ، أدرك فجأة أنه نسي عندها ساعته الروليكس الثمينة ، لا بأس ، مقدور عليها في الآخِر ، ولكنه ترك عندها أيضاً طقم أسنانه كله، العلوى والسفلى معاً ، لم يكن يعرف كيف يأكل شيئاً فى ليلته ، اعتكف وتناول قدحاً من اليوغورت ، وأصبعاً من الموز عزيز المنال فى شتاء موسكو لكنه طبعاً مبذول لأهل الحُظوة .

جنّد السوفييت أفضل خبراءهم للعثور على البنت التى كانت فصّ ملح وداب، عادت الساعة الثمينة - البنت قالت إنه أهداها إياها لكنها سلّمتها للخبراء- كما عاد طقم الأسنان، بعد بحث استغرق فقط ساعات قلائل فى الفنادق المعروفة والعناوين المعروفة المسجّلة والمدوّنة بالتفصيل عند الخبراء .

كيف استطاع هذا المناضل القديم أن يوفّق بين عقيدته بأن الاتحاد

السوفيت هو أرض الكرامة والحرية والعدالة والكفاية للجميع ، وبين ممارسة العشق المحترف العابر ؟

كنت قد سمعته فى أول الزمان يؤكد بحزم وقطع أنه لم يعد للبغايا وجود فى أول وطنٍ للاشتراكية .

وكيف تسنى له فى آخر الزمان أن يوفق بين الماركسية والإسلام ، وأن يسكر قبل أن يكتب دراساته المستفيضة فى الفقه والإمامة ؟

هل نلتمس له ، ولنا كلنا ، الرحمة ، والفهم ، والتسليم ، والغفران ؟

قضت محكمة جنح بولاق بحبس سالى التى كانت طالب طب بجامعة الأزهر ، وتحول إلى امرأة ، هى وزوجها وليد الطالب بمعهد اللاسلكى ، شهراً مع الشغل لاعتدائهما على جارهما بالضرب .

كانت البنت ترتدى قميصاً كاكىّ اللون ، كقمصان الجيش ، يبدو ثدياها الصغيران من ورائه ثابتيْن ، مكورين ، وبنطلون چينز يلتف حول فخذيها وبطنها المدوّر وردفيها المضمومين بإحكام ، يبدو قماشه الأزرق الباهت ناعماً من طول الاستعمال ، وقد دار بعنقها الناعم الإيشارب الحريرى الهفهاف يضفى عليها أنوثة خاصة ، رمقتنى بعينين سوداوين ، نجلاوين كما يقال ، حادتين ، وحولهما ذلك الخط الأسود الرفيع الذى يفتننى دائماً ، الكحل الربانى اكتسب قوة ونفاذاً ، والشعر المقصوص ألا جارسون المنسدل على الجبهة المدوّرة يكسبها ذلك الإيحاء الغريب باقتران عنصرين متضادين، تسير فى شارع صفية زغلول بخطوات قوية على كعبها العالى العريض ، حاجباها مرفوعان ، وجهها شامخ فى تحدٍ، كامل المكياج ، الشفتان مصبوغتان بالأرجوانى الداكن ، والوجنتان

مضرجتان بحمرة رائقة، الكحل الذى يحيط بالعينين يكسبهما عمقاً وشهوانية .

مرت ، واختفت ، مثل رؤيا .

ولم يكتمل شيء .

تتعاقب الرؤى من فلوريدا إلى أوزبكستان .

عندما كنا نسافر بالسيارة إلى باكو راتان فى فلوريدا على الطريق السريع ٣٩ جنوباً مررنا من نيويورك إلى واشنطون وبالتيمور وريتشموند ثم ڤيرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية وچورچيا ، بين الغابات المتكاثفة على جانبى الطريق ، تبدو الأشجار مدجّنة ومروّضة - لعل ذلك مجرد مُخايلة ولعل عنف العراقة الأولية البدائية ما زال رابضاً ومتربصاً - وما زالت هذه الغابة تنفث شيئاً من عَبَق بكارة وحشية مكبوتة أو محاصرة ، توقفنا ودخلنا عند "العمة سارة" نشرب شوب بيرة ستاوت سوداء ضخماً مرغياً بالزَبَد .

كان المطعم مبنياً بالخشب المدوّر المتلاصق بإحكام ووثاقة ، وفى الحرّ الجنوبى الأمريكى كان داخل المطعم رطباً منعشاً للقلب . قال لنا الجرسون الزنجى النحيل لامع السواد إن الخشب يعود إلى أيام الحرب الأهلية الأمريكية وإن المائدة التى نجلس إليها شهدت جنود الكونفدرالية مرة ، وجنود اليانكى الذين حرروا أجدادنا مرة أخرى ، فرمقه صاحب المطعم الأبيض السمين من وراء المنصة ، بنظرة شزرة ولم يقل شيئاً .

كانت المائدة معمولة من قرص خشبى عريض واحد ، مجزّع بحلقات الشجرة العملاقة التى شُق من جذعها الهائل ، مصقولاً الآن ، لامع

السواد، به خروم دقيقة منقورة بخفة فى جسم الخشب العريق بفعل سوسٍ قديم قُضِي عليه من أزمان بائدة ، وعلى القرص الدائرى قطع الكرتون المطبوع عليها بحروف عتيقة الطراز مونقة وموشاة "أُنْتْ ساره" Aunt Sarah تنزلق بنعومة تحت ثقل أكواب البيرة البلّورية الضخمة المضلّعة إذ تفيض رغوة البيرة بيضاء ولها وشيش من على حواف الزجاج السميك.

لماذا طافت بي عندئذ رؤى من سمرقند ؟

عندما كنت في التاسعة أو العاشرة ربما - ياه .. يعنى سنة ١٩٣٥ أو ١٩٣٦ ، أليس هذا زمناً بائداً أيضاً ؟ - كنت أحفظ قصيدة بالإنجليزية عن السفر إلى اخر أقاصى الأرض ، إلى جنةٍ لم تطأ مثلها قدم بشر ، إلى موطن سحرى خارق الجمال ، كأنه يقع فوق السحاب ، عند أفق مضيء بنور شمس ناعمة لا تخبو ولا تغيب ، وإلى "ساماااارقند" .

أنسيتُ الشعر ولكنه لم يبارحنى .

الطريق إلى سمرقند هو المجاز إلى ما وراء هذا العالم ، ما وراء هذا الواقع . طريق طويل لا نهاية له ولا وصول فيه إلا بمعجزة . إيقاع الشعر كانت فيه نغمة مرقّصة لها وقع خبب جواد لا يناله وصَبٌ ولا كلال ، بل يمضى تيكاً توك تيك حوافره لا تذوب ولا يعتورها البلى تدق أرض الطريق تيكا توك تيك نحو قلاع ذهبية عربية المعمار تومض قبابها المنقوشة بآى الكتاب الكريم فى شمس لا غروب لها تعلو مآذنها سامقة إلى قلب سماء زرقتها الرائقة لا تشوبها أدنى عكارة ، أبواب سمرقند

من نحاس لامع وأسوارها طوبة من ذهب وطوبة من كهرمان تتماوج ألوانها وتشع بألف شعاع من كل الألوان .

الطريق إلى سمرقند .. هل خطوت عليه أصلاً أم أننى ما زلت على أوّله - بعد هذا العمر - لم أقطع فيه شوطاً ولم أمضِ فيه إلى بعيد ؟

عندما تأخر رئيس الوفد الشيخ وأوشك الوقت أن يفوت دخلت عليه فى غرفته بفندق "طشقند" المبنى على طراز "عصرى" .

كان نائماً ، أو يتناوم ، قلت له : يا عبدِ الرحيم صباح الخير . ما زلت نائماً ؟ الرحلة إلى سمرقند الآن . الوقت راح .

تقلب فى راحة، وتثاءب، وقال لى : صباح الخير.. لا.. لن أذهب..

قلت : يا خبر.. كيف يمكن ؟ أنت رئيس الوفد، وأصحاب الدعوة ؟ ماذا أقول للناس الذين أعدوا كل شىء ؟

قال بدون مبالاة فيما يبدو : قل لهم .. قل لهم كسلان ابن كلب .

ضحكنا ..

ومع ذلك تأخرنا نحو نصف ساعة أو أكثر ، حتى جاء معنا .

شوارع سمرقند السحرية بدت لى مثل شوارع دمنهور فى الأربعينيات ، أو شوارع الكويت فى الستينيات ، بيوت من دور واحد ، جناين وأشجار توت ورمّان وكافور ، فوانيس الشوارع الكهربائية من الثلاثينيات ، مضاءة بأنوار صفراء مدخْمسة فى عز الظهر ، تماماً كما هى عندنا ، والحوارى الواسعة ترابية غير مسفلتة ، وفى الميدان الفسيح الذى يبدو مهجوراً قليلاً ، وعلى مصطبة دائرية تصعد إليها درجتين ثلاثاً ، الدكاكين من حجرة واحدة صغيرة ، متلاصقة ، أصحاب الحرف

والمتاجر والصناعات بملابسهم الشرقية الفضفاضة أقرب ما تكون إلى الجلاليب البلدى ، بالأحزمة العريضة حول الوسط ، وعلى رؤوسهم العمم أو الطواقى المربّعة المشغولة بتطاريز فضية أو ملونة ، متربعين على سجاجيد قديمة ، يخيطون أو يرتقون ، بعضهم يطرقون المواعين النحاسية بمطارق حديدية صغيرة لها رنين وصليل ، وبعضهم جالسين القرفصاء أمام بضاعتهم من البطيخ والشمام الأصفر الطويل والتفاح المحمرّ الناضج - خدود العذارى التى تضرب بها الأمثال - وبعضهم أخيراً ساكنين يتمتمون ، وينتظرون الفرج .

قبيل الغروب مشيناً فى الشوارع الهادئة ، وقد هيّج المساء رائحة الياسمين فى الجناين، نغنى فى السكينة الشاملة أغانى سيد درويش القديمة .

أما الجوامع الكبرى فقد انبثقت فجأة أمامنا من عصور بائدة لكنها ما زالت بشكل ما حيّة وباقية .

من بين الصروح الشاهقة فى "مدرسة شيردور" والقباب الفخمة بنقوش عربية تتحدى تصاريف الزمن فى ضريح "جور أمير" ومن تحت أقواس العقود الباذخة فى مجموعة "شيخى زنده" استدرتُ فى وسط الفوج كله ، وقلت لأنور والى بيك ، بهمس متوتر :

- أنظر .. أنظر يا أنور.. هل ترى هذه الفارسة العارية على الحصان الأبيض، هناك فى السمـــاء؟ أنظرْ هناك..تطيــر بين المآذن يا أخى هناك..أنظر!

لم يقل أنور شيئاً ، ولم يبدُ عليه أنه - حتى - اندهش ..

كانت الفارسة تحلّق فوق ضريح "رُخ آباد" حصانها رافع الرأس جامح على خلفية سماءٍ داكنة الزرقة ، يضرب لونها إلى السواد ، اختفت لحظة وراء جامع بيبى خانم ثم بانت من جديد ، ساطعة الجمال ، ساقاها العبلتان وفخذاها العظيمتان تحيطان بجسد الحصان تمسكانه بقوة ، ذراعاها مسترخيتان إلى جانبها ، لكنها مع ذلك تحكُم الجواد المنطلق فى صفو السماء . كان شعرها قصيراً ، على خلاف "جودايڤا" التى تغطى غدائرها المسترسلة جسدها العفىّ العارى ، أما فارستى على جوادها ، من غير سرج ولا لجام ، فلم أرَ منها ، فى العلوّ ، غير الظهر المنسرح والردفين المتمكنين المضمومين .

قلت لأنور : يا أخى .. ألا تراها ؟

هزّ رأسه بالنفى .

ثم قال : هل رأيتها أنت أيضاً ؟

***

(٥)

الأمازونة وقلب الفهد

في باندونج كانت طلقات المدافع المكتومة تتردد أصداؤها ، عبر الجبال ، في الليل .

حَظْر التجول قد بدأ .انقطعت الرِجْل من الشوارع المحيطة بالفندق ، صوت سيارات الجيش وحده يعلو ثم ينخفض ثم ينقطع فجأة عند مفترق الطريق النازل إلى الهوّة المعتمة .

قالوا لنا إن الميلشيات الشيوعية تحشد صفوفها وتتخذ مواقعها الحصينة في الجبال والهضاب حولنا ، قالوا إن عصابات المأجورين من فلول عملاء الاستعمار الهولندى تلوذ بأوكارها في الوديان التى تتكاثف فيها غابات أشجار المطاط والجوز الهندى .

كان فريق بنات السكرتارية : عديلة وآرليت وچانين وماجدة وچوزيت قد خرجن لجولة حول البلد ، قبل الجلسة الافتتاحية للمجلس الثالث

للتضامن الأفريقي الأسيوى . أعطيتهن إذناً بالتغيب ساعتين بالضبط على أن يعدن قبل السادسة مساءً . أعدّتْ لهن اللجنة المضيفة سيارة ميكروباص قوية يقودها جندى مسلح ، خرج معهن شوقى التايبست الناحل القصير وقد فرغ من شرب زجاجة الويسكى التى اشتراها من المطار ، كاملة ، ونزل معهن يبحث عن تموين جديد ، كان أصلع ، جاحظ العينين قليلاً ، لكنه قوىٌ مكين لا يلعب الشُرب برأسه مهما أسرف ، وقادر على السهر يكتب على الآلة الإنجليزية والعربية سواء ، ويطبع على ماكينة الاستنسل التى أحضرناها معنا من القاهرة - لم تكن آلات التصوير الزيروكس قد ظهرتْ بعد - يعمل بلا كلل ولا نوم تقريباً دون أن يخرم حرفاً أو تفوته وثيقة .

خرج مع البنات أيضاً محمد رفيق ذَرِب اللسان دمث الوجه فارع القوام ، ومنير صبحى الذى كانت العلاقة بينه وبين البنات ملتبسة ، يرتحن إليه على نحوٍ ما ، يشعرن معه بألفةٍ وقُربَى وبنوعٍ من الغرابة فى الوقت نفسه .

لكن الميكروباص لم يرجع إلى الفندق بعد ، حلّ ميعاد حظْر التجول ، أخذ الوقت يمرّ بطيئاً مشحوناً بالقلق .

اتصلتُ بالهاتف ، الذى كان يتقطع وتعاوده الحياة ويشخشخ ويصفّر ، بأرقام مسئولى الاتصال الأندونيسيين ، لغتهم الإنجليزية محدودة ، يقولون لى بلهجة أسيوية مميزة : أوكى سيجارا لا تقلق يا سيدى أوكى فتزداد هواجسى ويتفاقم توجسى لحظة بعد لحظة .

الصمت موحش خارج الفندق ، فى الشوارع النائمة الآن ، وعبر

الوهاد والوديان والقمم المخضرة بالشجر الأثيث ، سوداء مظلمة ، تخايلني بغموض من نافذة البهو الخاوى المنير بإضاءة خافتة ، مهددة ومنذرة ، لا يقطع الصمت إلا قصف المدافع البعيدة ودقدقات الرشاشات الحادّة السريعة تتجاوب أصداؤها من قمةٍ إلى قمةٍ معتمة .

ولم تصل سيارة الميكروباص بعد .

كنا قد غادرنا چاكرتا فى الصباح الباكر ، قافلة شبه عسكرية من السيارات تسبقها موتوسيكلات الحراسة وتقفوها سيارة چيب مصفحة ومدججة بالمدافع الرشاشة ، بعد ليلة تدفقت فيها سيول المطر علينا بمجرد أن دخلنا فندق ترانساييرا ، فى ميدان ميرديكا تيمور .

رحب بنا الرجل الطيب شعبان سراج الدين عباس ، ومعاونوه من اللجنة الإندونيسية . كان لا يعرف من العربية إلا الفاتحة ورسم اسمه بالخطّ النسخ الجميل ، ويصغو بالمودة ، يقول - بالإنجليزية - إننا كنا إخواناً فى محنة الاستعمار وقد خلصنا من نيره فتوثقت بيننا أواصر الزمالة ، وإننا نظل إخوة فى الإسلام ، كان واثقاً أن كل عربى هو مسلم بالضرورة ، ولم أشأ أن أبصّره بغير ذلك .

كان وجهه أسمر داكناً عريضاً لكنه صابح طلق ، عظامه قوية ناتئة عند الوجنتين ، وجسمه راسخ متين الأسْر .

سبقنا إلى منصة الاستقبال فى الفندق ، قال للموظف كلمتين ، وإذا بمفاتيح الغرف فى أيدينا على الفور .

ومع حُسن إسلامه وسماحة روحه فقد اختفى اسمه من سجّلات التضامن ولم نعد نراه ، بعد رحيل سوكارنو ، وبعد المذابح الجماعية

التى راح ضحيتها حشود حاشدة من آلاف الشيوعيين واليساريين والوطنيين على السواء .

لم أكد أنام بعد أن دخلنا غرفنا فى الفندق ليلتها . قطرات المطر المتصلة الثقيلة تسقط بلا انقطاع على الجدران ، تدق بطرقات جوفاء مبتلة على الستائر المعمولة من الحصير ، تحيط بالشرفات ، تقعقع بين الحين والحين بفرقعات قصيرة مدوية إذ تهبّ الريح فجأة فيمتلئ الحصير بالهواء ، كشراع المراكب ، ثم يندفع خارجاً منه كطلقات الرصاص .

فى الصباح الاستوائى الباكر كان السكون قد هبط على المدينة ، ورائحة الشجر الغضّ المبلول عطرة، والسماء زرقاء رائقة ليس فيها سحابة واحدة .

استيقظت بعد نومٍ مضطرب ، كانت غرفتى تفصلها عن غرفة منير صبحى فَسَحة من الاسمنت بها الحمّام : دوشّ عالٍ ثابت تحته ما يشبه جدار بئر مستديرة تدخل إليها من فتحة طولية وتقف فيها تحت الماء المنهمر الذى ينسرب ، من ثقوب فى أسفل الجدار الدائرى المرتفع حتى الخاصرة تقريباً ، وينسال على سطح الاسمنت اللزج إلى مزاريب ينصب منها إلى الشارع .

كان منير صبحى مترجماً فورياً فى فريق السكرتارية الفنية .

كان عندئذٍ مذيعاً فى البرنامج الفرنسى من إذاعة القاهرة ، بعد أن تخرج من الليسيه من اسكندرية مع عمر الشريف الذى كان اسمه ميشيل شلهوب وحسين بن طلال . بعد ذلك بسنوات أصبح نجماً سينمائياً ومسرحياً مرموقاً ، ومغنياً .

كان يصل أحياناً إلى سكرتارية المؤتمر في المنيل ، قادماً على الفور بسيارته المرسيديس الحمراء ، من البلاتوه في التليفزيون أو في ستوديو مصر ، الماكياج الأبيض والأحمر والروج على وجهه الشاب الوسيم وشفتيه، شعره فاحم السواد لا تفرقه عن الباروكة التي تخفي صلعة مطردة الاتساع وتكسبه حتى الآن مظهر الشباب بل شبهة الأنوثة .

عندما خرجت من غرفتي في الصبح الباكر ، يومها ، نصف نائم ، إلى فسحة الحمّام ، صرخ منير صرخة قصيرة من الخجل ، قفز خارجاً من الجدار المستدير ، كان جسمه الأملس الناعم عارياً ، أدار وجهه بحركة دلال، تمهّل قليلاً ونظر إليّ من على جنب ، هل كانت عيناه مكحولتين ؟ وجهه النضر في نور الصبح القليل يشرّ بالماء ، ثم خطف الفوطة الكبيرة من على جدار البئر المبلول ، ولفّها حول ردفيه الممتلئين ، وانطلق يجري بخطوات قصيرة حافية إلى باب غرفته .

بعد ذلك بنحو تسع أو عشر سنوات عقدنا في الكويت مؤتمراً حافلاً "لنصرة شعب فلسطين" . ما أكثر المؤتمرات والندوات وحلقات البحث والمظاهرات التي قامت لنصرة هذا الشعب الذي لم ينتصر حتى الآن ، فهل له انتصار ؟ لا شك في الانتصار .

كان رئيس وفد طلبة فلسطين عندئذ شاباً وسيماً نحيلاً طويلاً إلى حدٍ ما ، غزير الشعر ، ممتلئاً بالحيوية ذلق اللسان متدفق الحماسة ، كان له اسم غريب على السمع حينذاك : جميل شمير ، أصبح فيما بعد وزيراً مرموقاً فيما سُميّ بالسُلطة الفلسطينية ، أصلع كرِشاً ما زال ذلق اللسان.

المهم - أو غير المهم على الإطلاق - أن منير صبحي اشتغل معنا في هذا المؤتمر، في الكابينة الفرنسية طبعاً، مترجماً فورياً، أدّى ما كان مطلوباً منه بكفاءة ونجاح ، ثم اختفى آخر أيام المؤتمر، فاضطررت إلى استبدال مترجم آخر به، بعد لأي ولحظة توتر، لم يعد معنا إلى القاهرة، سمعنا أن أحد الشيوخ استضافه في بيته -يعني في قصره العالي المسوّر الحصين- عدة أيام.

كانت مدينة الكويت أيامها أشبه بحيٍّ من أحياء بيروت قبل الحرب الأهلية ، توحي أيضاً بشارع سوق غزة قبل حرب ١٩٦٧ : بيوت منخفضة ومتواضعة إلى حدٍ ما ، دكاكين صغيرة فيها كل بضاعة الغرب والشرق . كنا في مصر "محرومين" من ترف هذه النفايات : الشامبو سان سيلك للشعر ، التوينز ، قمصان النايلون ، السوتيانات وكيلوتات البنات ، الراديوهات والمسجّلات وزبالات السلع الأخرى التي أُغرقت فيها أسطورة بورسعيد القديمة ، أيام السادات ، ثم أُغرقت فيها البلد كُلها أيام الانفتاح والخصخصة .

لم يكن في الكويت إلا فندق واحد فخم ، أما نحن فقد نزلنا في فندق صغير من طابقين ، لعله كان مجرد بيت صغير ، يشتغل فيه لبنانيون وفلسطينيون ، نفطر باللبْنة ونتغدّى كبيبة وتبّولة .

عندما جاءني منير صبحي ، بالماكيياج ، من الاستوديو منفعلاً مستثاراً أخرج من جيبه رزمة من أوراق العشرة جنيهات القديمة الكبيرة ، لوّح بها قليلاً ، من وراء الماكيّاج الثقيل ، تبرق عيناه المكحولتان ، لا أعرف ممّ تضرُّج خدوده ، أمن صنعة الماكيير أم من دم الفرح والزهو ،

كانت تلك من أولى أيام صعوده ، وقال لى وهو يشم رزمة النقود : The sweet smell of success فلم أقل له أهذه رائحة النجاح الحلوة حقاً أم أنْ ليس للنقود أبداً رائحة ، وهل هذا النجاح له عبقٌ عذبٌ حقاً ؟ أم أن هذا السؤال نفسه من جانبى هو من قبيل أن العنب الناضج المسكر العالى حصرم حامض ؟

طبعاً لم أفهم الحكاية كلها إلا بعد ذلك بسنوات ، سمعت أنه فى مصعد التليفزيون ، مَرَّة ، أمام حشد المزدحمين فى المصعد الكبير ، قال بأعلى صوته مستفزاً "أيوه .. أنا كده .. أنا كده ، حدّ له عندى حاجة ؟ حدّ معترض ؟" وأن أحداً من الفنانين والموظفين والزوّار لم يقل كلمة . كان - وما زال - معتزاً بغلاميته ، مدافعاً عن هويّته الجنسية بلا خجل ولا زيف لا يرى فيها سوأة ولا شذوذاً .

بعد اجتماعنا فى باندونج باثنين وعشرين عاماً كتب حلمى چورچى ، ماچستير فى الصحافة ، إلى بريد الأهرام الشهير ، تحت عنوان "يا عسل .. يا سكر" وقفنا فى ميدان الألف مسكن . كلٌّ ينادى فى لهفةٍ وتوسل على التاكسى . صاح الأول : "العباسية يا هندسة !" وصرخ الثانى : "عباسية يا چنتلة !" ونادى الثالث : "عباسية يا عسل !" .. ولكن توسلاتنا ضاعت هباء فلم تحرك ساكناً فى "الهندسة" أو "الچنتلة" وفجأة نسمع صوتاً ناعماً رقيقاً يصيح : "العباسية يا سكّر !" وإذا بالسكر يذوب ، وإذا بصوت فرملة التاكسى تعوى لتصم آذاننا فانطلقنا مهرولين نحوه ، وبعد أن تأكد السيّد السائق أن كلاً منا ليس فى صحبة الآخر ، تعطف مشكوراً وسمح لنا بالركوب والجلوس فى المقعد الخلفى ،

وجلست الآنسة - وهى صاحبة الفضل - بجواره فى تأفّف ظاهر ؛ فقد كان يرتدى جلباباً متسخاً ، وعلى رأسه طاقية تغطى بعضاً من شعره الأشعث . عند وصولنا ناوله الراكب الأول ورقة من فئة الخمسين قرشاً (كان ذلك فى عام ١٩٨٣) وهنا تجهم وجه السائق وكشّر عن أنيابه منذراً بالشرّ قائلاً : "كمان رُبْع" ودفع الجميع صاغرين المطلوب ، أى أن التوصيلة تكلفت ٣ جنيهات ، وهى بحساب المرحوم "عداد التاكسى" لا تزيد عن خمسين قرشاً .. (تُرى كم تتكلف الآن فى العام ١٩٩٨ ؟) وعندما انطلق التاكسى بعد أن شُحن بأربعة آخرين وقعت عيناى على الشعار المألوف الذى تعارف عليه سائقو التاكسى : "يا ناس يا شرّ ، كفاية أرّ" .

الأمازونة الفتيّة عارية الصدر علقت جعبة السهام على جانبها الأيسر، جلْد الجعبة العريض قد حفر على كتفها اليسرى التى لوّحتها الشمس ندبة سوداء فى جلدها الناعم وهبط مشدوداً إلى النَهد الأيمن ضَغَطه منذ يفاعتها فلم يزدهر ولم يتدوّر بل ذبل تحت وطأة الجعبة المثقلة بالسهام الحديدية اللامعة طويلة مسنّنة الشباة ، أما نهدها الأيسر فقد كعب ونهض وافراً عفياً واسع اللوَع منتصب الحلمة ، وهى تقعى على الفهد المقتول مفتوح الصدر ، فجّت ساقيها ووركت عليه ، نصفها السفلىّ ملفوف بجلدٍ مدبوغٍ من حيوان حوشىّ مذبوح ومسلوخ من قديم ، هل هو ظبى أم قطُّ الجبل ؟ لفّة الجِلد الطرىّ محكمة حول الردفين الصغيرين المفتولين ، قدماها على العشب الأخضر الكثيف المُفوّف ، وفى يدها سكينها الحادّ تلمع شفرته فى الشمس عليها دم غضير طرى

يسيل بلزوجةٍ وتسقط قطراته القانية على فخذها المكشوفة انشق عنها إزار الجلد الحيوانيّ الذى يطوّق خصرها .

"عقب نشر خبر القبض عليها ، كشفت الإدارة العامة لمباحث تنفيذ الأحكام بوزارة الداخلية عن أحكام جديدة صادرة ضد سيدة الأعمال المعروفة حيث ارتفعت الأحكام إلى مائة وثلاثين حكماً بلغت العقوبة فيها حوالى خمسمائة سنة حبس .. كان عدد من التجار بمنطقة الأزهر وعدد من المحامين قد تقدموا إلى مدير إدارة المعلومات بأحكام صدرت لصالحهم ضد سيدة الأعمال .. بشأن شيكات أصدرتها عن أقمشة اشترتها قيمتها ٩ ملايين جنيه . وما زال عددٌ هائل من القضايا المرفوعة ضدها متداولاً أمام المحاكم" .

هل هذا منير صبحى يأتى إلى الأمازونة سيدة الأعمال سيدة الضحايا ، وهو على صهوة حصان أحمر اللون ، عارياً ، بلا سراج ، يمسك فقط بالعنان الطويل الذى يشكم جواده ، يده الأخرى على ظهر الحصان كأنما تهدهد من جماحه ، الحصان صافن رافع حافره عن أرضية العشب التى صوّحتها شمس شهوات اشتعلت سماؤها ، شامخ الرأس بإزاء غيومٍ مدلهمّة فى أفقٍ غير مرئىّ . كفلُه مكين الأيْد ، عريض ، شديد الأزْر ، عليه الجسم نصف الصبيانىّ نصف النسوىّ ، صدره المنبسط الأمسح تندّ عنه نبقتا الحلمتين الصغيرتين ، صلعته الخفيفة يغطيها شعره الهفهاف المفروق ، قضيبه الصغير نائم على ظهر مطيته بارتخاء ، ساقاه تضمان جسم الجواد الضخم بلا كبير جدوى ، فالحيوان النبيل هو الذى يحكم من يمتطى متنه ، يشقّ به عنان سحابة حمراء

مستطيلة متوهجة لا يخمد لها أوار .

الأمازونة ترفع يدها بقلب الفهد الساقط تحت ساقيها ، انتزعته من عمق صدره ، تقضم منه مزعةً بأسنانها القوية ، تمضغ اللحم الدامى بعنادٍ يبدو عادياً مألوفاً ، فمها المشدوق تنحدر منه الدماء النزرة ، شفتاها مضرجتان مصبوغتان بالروج الوحشىّ ، وقد تلطخت ثنوتها فوق الشفتين وحنكها ومعظم ذقنها البارزة باللون القانى الذى يسيل قليلاً ينحسر عن إهاب الوجه الناعم مكحول العينين ، صدر الفهد تحت فخذها تندّ عنه أضلاع مكسورة وعضلات ممزقة متدلية وجذاذات مشعثة ، الحيوان الطعين يبدو الآن صغيراً هامداً لا خطر منه ، عيناه مفتوحتان على خواء الموت الوحىّ المخوف لم تكد تمر عليه لحظة وجيزة ما الفرق بينها وبين خمسمائة عام أو دهور الأبد التى لا نهاية لها .

فى الطريق إلى باندونج وعلى قمة ربوة مرتفعة منعشة بين الغابات المبهمة الحارة التى تكسو حنايا الجبل ومكاسره ، تغدّينا فى مشربٍ صغير ، كوخ من الخشب ليس فيه إلا مائدتان أو ثلاث وبضع مقاعد من خوص نخيل جوز الهند المجدول ، أخذنا شطائر جبن وچامبون كان الفندق قد أعدها لنا فى صناديق من الرق المقوّى وشربنا كوكاكولا ، نحن وعساكر الحرس ، وكان الهواء نقياً يملأ الصدر بآمال غامضة خفيفة الوقع وإدانةٍ غامضة لمظالم تبدو الآن بعيدة وإن ظلت مهمّة ، والأفق من على الربوة الصغيرة فسيح منير يمتد بما لا يبدو له نهاية .

هل أطبقت الغيوم السوداء على الأفق أم تظل الشمس وراءه ساطعة ومتربصة ؟

بعد أن وصلنا على آخر المساء إلى فندق باندونج الصغير ، نزلنا إلى شوارع المدينة المضاءة بمصابيح الغاز التى تفح على عواميدها العالية ، وعلى الجانبين دكاكين صغيرة تعلق على واجهاتها قمصان الباتيك الملونة إذ تكتسب ألوانها لمعة غير مألوفة في نور الغاز الأبيض الساطع ، وتتكدس أمامها وفى أحشائها المعتمة قليلاً بقية نفايات العالم الصناعى المألوفة من اليابان والصين وهولنده - لم تكن تايوان ولا سنغافورة ولا تايلاند قد أصبحت نموراً بعد - الساعات الزهيدة وأجهزة الراديو الصغيرة والكاميرات المعدنية هشّة الشكل والقمصان والبلوزات والبنطلونات لامعة النسيج ، والمسدسات والطيارات البلاستيك والدبابات للصغار - في باندونج يلعبون بالحرب ! - وسائر زبالة صناعات عواصم المتروبول الأسيوية والغربية المغوية الجاثمة على الصدور . أمام الدكاكين جلستْ بائعات الموز المقلى فى زيت النخيل ، رائحته الزهمة الثقيلة تفغم أرواحنا بما يشبه كآبة مكتومة . البائعات مقعيات على الأرض ، تبدو عليهن شيخوخة مجعدة الجلد ، أفواههن فاغرة متقبّضة الشفاه إذ يمضغن ذلك النبات - أو بذوره - فإذا صبغة حمراء قانية على الشفاه واللثة وإذا الأسنان متآكلة نقرها وخوّخها التلمّظ باللذة والخَدَر .

فى جواهاتى بالهند القريبة أعلنت الشرطة يوم ٢٢ يونيو ١٩٩٧ "إلقاء القبض على مواطنيْن هنديّيْن فى إحدى القرى بأقصى شرق الهند لإقدامهما على قتل أحد جيرانهما والتهام قلبه فى العلن . قال الرجلان سيفا كورمى وبادمسوار كورمى أنهما قتلا جارهما لأنه هو حاول قتلهما

فى عملية سحر وشعوذة . فتحا صدره وانتزعا منه القلب ، قطعاه إلى شطرين وأكلاه أمام بعض القرويين . قالا إنه كان طيب المذاق شهياً" .

في شارع براجا دخلت الدكان الصغير المضيء بكلوب فاحش النور يفح على الحقائب الجلدية الصغيرة والصنادل والإيشاربات والقمصان الباتيك وسائر المنتجات السياحية المعتادة ، خرجت لم أشتر شيئاً . كان بدل السفر المقرر لى عندئذ سبعةجنيهات استرلينية عن أيام العمل الفعلية ونصفها عن أيام السفر، تقاضيتها من بنك القاهرة فى شارع قصر النيل بعد إجراءات ووثائق لا نهاية لها. وماله.. كان فيها البركة..

وعلى ناصية معتمة قليلاً فَرَش الفنان "الشعبى" المعتاد الذى لا اسم له ، بضاعته على الأرض مباشرة ، التماثيل الخشبية والأقنعة السوداء من الأبنوس والعصى بمقابضها العاجية والتمائم والقلائد والخواتم من الديوريت الأخضر . تصوّرت – وكنت محقاً – أن صنعته هى التماثيل الخشبية وحدها ، أفرد لها جانباً من فرشته ، ولما سألته بالإنجليزية وبالإشارة أنغض رأسه مؤكداً . كان قد استوقفنى وجهه الناحل الطويل ، على غير المألوف فى آسيا ، بصفرته داكنة السمرة ، وشبابه الجاف ، وشىء يشبه الكرامة والعزة الأولية إذ يقعى على رجليه صامتاً ، وساهماً كأنه لا يبالى ، لا ينادى ولايشير ولا يكاد يلتفت إلى أحد . واستوقفنى ذلك التمثال الخشبى لامرأة طويلة بل فارعة ، مشدودة الجسم ، ممشوقة ورشيقة الجوارح المرهفة المرققة ، كأنه من عمل چياكو ميتّى إندونيسىّ متميز ، ساقاها منضمّتان مدوّرتان ولكن مسحويتان فى كتلة مسطحة صاعدة فى فراغ هى تُوجده لنفسها ، وثدياها الصغيران عاريان فيهما

وداعة وتحدٍ فى آن ، الخشب فاتح اللون خام لم يكد يصقله الفنان بنعومة رهيفةٍ حيِّية خجول ، توحى بجسدانيةٍ مصفّاة ولكن كامنة ومتوترة ، نازعةٍ إلى فوق .

ما زلت أحتفظ وأعتز كثيراً بهذا التمثال - الروح من باندونج . دفعت لصاحبه ما طلب على الفور دون مساومة ، على غير المعتاد فى أسواق وشوارع آسيا وأفريقيا ، وبلاد العرب .

أخيراً وصل الميكروباص الذى كان يُقله فريق السكرتارية . كانت البنات قد انحسر عنهن الخوف من استثارة المغامرة ، أو وطأة المحنة .

عرفت من حكاياتهن المضطربة المتداخلة ، يسردنها بلهفة وعيونٍ تبرق بالانفعال ، أن السيارة أوشكت أن تقع فى كمينٍ مناوئٍ للحكومة ، لم يعرف أحد هُوية المقاتلين فيه على أىّ حال . انطلق سيلٌ من الرصاص فجأة من الأحراش على جانب الطريق . زاغ السائق بسرعة ومهارة ، واضح أنه كان جندياً مدرباً حاضر البديهة ومرق بين الأشجار فى فسحة معشوشبة واستدار راجعاً ، شقّ لنفسه طريقاً ملتوياً على مدقات غير ممهدة ، وعاد بسلام ، وفى طريق عودته غير المأمونة التقى بدورية حكومية خرجت بعد ميعاد حَظْر التجول لتبحث عنه وعاد فى حراستها . كانت كلمة السرّ أمام النقاط العسكرية الحكومية فى الطريق : أفريقيا آسيا . سَعدت البنات جداً بكلمة السر بينما كان شوقى ينظر إليهن باستغراب قليل وهن مهتاجات بالحكى واستعادة لحظات الخَطَر ، كأنهن كائنات من كوكب آخر ، وواضح أن خمسينية الكونياك التى لمحتها فى جيب بنطلونه الخلفى قد أتت فِعلها ، اشتراها من السوق بلا شك قبل

ميعاد الإغلاق ، أما منير صبحى فقد كان يتخطّر بينهن على سجادة بهو الفندق ، بخطىً قصيرة رشيقة متوثبة ، وهو مضرّج الوجه قليلاً من الانفعال ، لم تكن حكايته وفيها كلمات فرنسية مختارة بعناية ، تختلف عن حكاياتهن ، وإن كانت لهجته أقوى وأخشن ، ذكّرتنى بصوت تسوى له غوايته الخاصة ، مثل صوت چوان كراوفورد أو مارلين ديتريتش .

عندما دخلنا الديسكوتيك كانت الفتيات يرتدين المايوه البيكينى من القماش السميك اللامع مخططاً على غرار جلد الفهد ، السوتيان تتدلى منه - تحت قبّتىْ النهدين العاليين - مشابك فضية تتساوق مع حزام فضى مخرّم يدور على الخاصرة الهضيمة ، تحته الكولان الأسود الشفاف يشقه خطّ النصف البارز الرفيع ، الأضواء المتناوبة مع لحظات إظلام ترتطم فيها صدمات الموسيقى بعضها ببعض تسقط على بطون مسحوبة مستوية ليست فيها استدارة أنثوية ، صفرة الجلد الخفيفة ، تحت سطوع الضوء ، تعطى الجسم ملمساً يكاد يكون غير إنسانىّ كأنه جلد جذع زهرة قائمة تهتز بخفة على إيقاع متراوح ، وتحت الردفين ذيل الفهد الملتوى إلى أعلى مصنوعاً من المطاط المقوّى ، بلا شك ، مغلّفاً بجلد الفهد المخطط ، ومعلّقاً من الخلف بالقطعة السفلية من المايوه ، بمشابك فضية صغيرة من نفس نوع مشابك السوتيان ، تومض كلها بخفاء ودعوة مضمَرة .

وبينما جلست عديلة وآرليت إلى الموائد المعدنية المشغولة وطلبتا كوكاكولا ، لم تلبث چانين وچوزيت أن قامتا للرقص ، وتقدم منير

صبحي إلى البيست ، ورقص وحده مع فتيات العرض الفهديّات اللاتي أسدلن على نصف الوجه العلوي قناعاً شبِيكة أسود تتخايل تحته عيون مكحولة تطل على ساحات خاوية من الملل ، الوجوه الأسيوية الصغيرة المنمنمة تحت البيشة المشبكة تبدو إذ يسقط عليها النور القاسي قانية الشفاه مضرّجة الوجنات مخططة الحواجب ثم تغيب الوجوه والقامات المتمايلة ، وفي وسطها منير صبحي ، في ستر ظلام الصخب الموسيقي المقرقع . تكرار مشهد الصنعة مبتذل قليلاً .

قلت لنفسي ، ساخراً قليلاً من نفسي :

- أكل العيش مُر ، ما حدّش بياكلها بالساهل .

بعد ذلك بستة وثلاثين عاماً قرأت في "الأهالي" يوم ٢٧ يناير ١٩٩٧ أن جنرالاً صهيونياً هو آريبه بيرو اعترف على الإنترنيت بأنه قتل خمسين عاملاً مصرياً عام ١٩٥٦ في ممرّ "متلا" وسط سيناء ، ذبح ثمانية عشر منهم كالخرفان ، وأنه غير نادم ولا يخشى اللجنة التي تم تشكيلها من الحكومة الإسرائيلية لبحث اعترافاته إذ أن قرار الإدانة من اللجنة ضده سيجعله يفتح النار على نصف الجيش الإسرائيلي . هذه اللجنة انتهت إلى أن تسعمائة مصري قُتلوا بالفعل بعد أسرهم سنة ١٩٦٧ في منطقة الحريش ، على أيدي "كوماندو شاكد" فضلاً عن ست مذابح أخرى في ممر متلا وخان يونس .

كتب عبد الفتاح عبد المنعم أن محاكم مصر تشهد ٢٦ دعوى قضائية ضد الحكومة الإسرائيلية رفعها أهالي الأسرى القتلى يطالبون فيها بتعويض قدّرته لجنة الدفاع بأكثر من خمسين مليون جنيه .

فماذا حدث للدعاوى القضائية الستة والعشرين وللتعويضات التى لا يمكن أن تُعوِّض شيئاً ولا يمكن أن تبرر أو تغفر شيئاً ؟

ماذا حدث ؟

***

(٦)

فرس البحر وكأس كامپارى

نادى الرجل بلهجة تدليل ومناغاة وإغواء ،

– سيدة .. تعالى يا سيدة .. اطلعى لى يا حبيبتى

ندّت عنه أصوات بين الطقطقة والصفير وبطبطة الشفتين ، نداء حميم ومألوف ومبتذل ، يعرفانه ، هما وحدهما ، لغتهما الخاصة لا شريك لهما فيها .

انشق سطح بركة الماء الراكد ، انفرجت أمواجها البُنّية ثقيلة الشكل عن رأس هائل . خرج الحيوان الضخم وانفتح الفم الواسع عن شدقيْن فسيحيْن، جداران لكهفٍ لحميٍّ أحمر بذىء ، أنياب متراصة هى ترسانة من النهم المفتوح .

لوّح الرجل بحزمة كبيرة من البرسيم الأخضر المبلول ، وتراجع قليلاً عن حافة البِركة . صعدت "سيدة" بجسمٍ مكوّرالانبعاجات ، أملس ،

أسود ضارب إلى البنىّ . انزلقت خيوط الماء على لزوجة الجلد الغنى المشدود وانحسرت عن مساحات الجسد الشاسعة التى استندت ، بصوتٍ مائىّ جسدانىّ له هدّة ، إلى ساحة الاسمنت والرمل المتماسك على شط البركة الآسنة ، وغابت حزمة البرسيم الطرىّ فى كهف الفم المخوف ، بيدٍ بدت على خشونتها وشطفها صغيرة هشّة ولكن غير مترددة ولا متوجسة، دفعها عم محروس وتلقفها الجوف .

هل هذه ابنة ستْ الذى اتخذ قوامها وسمتها ، حاربها حور بالحراب والنبال وشباك الحِبال المفتولة ، صارعها صراع الآلهة فوق الإنسانى ، بين أمواج النهر العارم العتيد وبين جنادل صخوره الشماء تحت شواظ شمس الجنوب القاسية ؟

أهذه فرس النهر التى بضربة خفية من جسدها العملاق الغارق فى مياه النهر الأفريقية تقلب القوارب كأنها لُعب تافهة الوزن بحمولتها من الصيادين البيض إذ يفقدون حمولتهم من الصلف والمؤونة ، وأعضاء قافلتهم من السود أبناء البلد ، يتخبطون سابحين ناجين بجلدهم فى خضمّ الأمواج البنيّة المدلهمة الهاضبة بهدير الفتوة وشباب التدفق الجديد.

رازحة الثقل فى رموز الكتابة المقدسة ، تطأ أجسام الرجال وتدوس خيرات الأرض وتهرس ثمارها الغضة وتهدر عصارتها ولبن منيّها ، بأقدامها العريضة المكينة، تلتهم العيدان وعمدان الغضارة القائمة التى تنوس بكبرياء نضجها وانتصابها فى حقول الشهوات إذ تحين ساعة الحصاد .

وعلى ضخامة الحيوان الأنثوى رأيت فيه وداعة وطيبة ونوعاً من الاستكانة بل شيئاً من ملل إشباع الجوع المتكرر القديم ، السأم من جشع شهوة طال ابتعاثها واستبعادها وضمنت استنامتها على صوت صاحبها الذى يتردد بانتظام بين الزقزقة والبطبطة والصفير وكلام البشر .

سرعان ما خرج من عطن البركة سيّد قشطة ، ذكرها الذى لم يكن بحاجة إلى إغواء بل كا يعرف أن منابه من وليمة العشب الأخضر معدٌ سلفاً ومحجوز اتقاءً لثورة غضبٍ هل يمتزج فيها سخط التجاهل مع الغيرة على أنثاه من الوافد الإنسانىّ الصغير الهشّ الذى يملك مع ذلك سطوة الإيجاع والإشباع ؟

وقفتُ على الحاجز الحديدى الرقيق أرقب هذه الدراما اليومية التى تدور الآن إرضاءٍ لنا ، أنا وأختىّ هناء وعايدة فى أيامهما البائدة البعيدة ، مقابل قرش تعريفة واحد مخروم عليه اسم السلطان حسين كامل ، أعطيته عمّ محروس من بين قوائم السور الحديدىّ المتأرجح وقد التمّ حولنا، على الفور، خلقٌ عميم من الصغار والكبار، يتفرجون ويضحكون فى شىء من الخوف المكبوح ، ينادون فى تردد خفيض النبرة أولاً ثم فى جسارة ثاقبة الصوت أحد نبرة مما يلزم : سيِّد .. سيّدة، ويقلدون من غير كبير نجاح سقسقة عمّ محروس وبربرته فى نداءاته للحيوانيْن المخُوفيْن المستكينيْن معاً.

سيدة .. هل هذه سيدة النهر التى يحتشد لها حور، ابن أوزير وإيزه، بين أحراش البردى، يتربص ويترصد وتدور بينهما معركة الحياة والموت على مهادٍ وثيرة من الطين الخصيب يغوص فى عمقها رمحه

الطويل القوىّ.

هذه التى تتقطع أوصالها بين نقوش كتابةٍ حوشيّة إلهيّة ازدانت بنمنمات النباتات الغضرة النابعة عن موسيقى اللغة ما أبعدها عن زمزمة نداءات عم محروس فى حديقة حيوانات النزهة وما أقربها مع ذلك من هزيم إغراءاته إذ يجتذبها ويحتويها ثم تلفظه وتنحّيه بضربات قليلة من ساقيها المعمولتيْن من جرانيت الجسد الأسود .

سيدتى القدسية يرتفع ردفاك بكل جسامتهما سداً منيعاً تحت عباءة الماء القاتمة المتموجة فى خطوط منقوشة محفورة على المسلات المنفيّة الآن فى برد الغربة وبين رموز العيون المصرية النجلاء مفتوحة على أسرار غير مفضوضة تقفين على ساقيك العبلتين تسندين الكون وتتحوطين على حنانه المهدور تهيلين عليه من عجينة خصوبتك ما لن ينضب ولن يجفّ معينُه إلى أبد الآبدين .

يا سيدتى أنت عاصفة من جموح تطلُّبات الجسد وعنف شهواته ونسمة هيّنة من حنُوٍ كامنٍ ومستكين ، تتجسدين فى ازدواج حور ونقيضه الأنثوى ازدواجاً لا ينحلّ ، محلّقة سماويةٌ أنتِ على عباب حياتك الهادرة بين صخور المشقات والآلام أم شيطانة التنّين الرجيم كاهنته المتنكرة فى إهاب جلدك اللامع اللون ، فى وداعة القم الرحم الهائل المفتوح ؟

ها أنتِ تُلاطمين مياه الأموال والخيرات السائلة فى بحر الهدْر الطامى الذى ينخر أرض كيمى المستباحة الآن .

لا غرابة إذن ..

آخر نكتة أن مرّة ، واحد مدير تفتيش في بنك ..

نكتة سئمنا من البكاء لها أراد أن يحكيها لنا ، بالمناسبة ، السيد/ سعيد محمد توفيق في بريد الأهرام يوم أول يناير ١٩٩٧ ، يا فتاح يا عليم ، استفتحنا السنة واستفتح المُلك لله ، قال تحت عنوان "حمل الأثقال" : كان المانشيت الرئيسي لجريدة الأهرام في يوم الثلاثاء ١٢/٢٤ هو : لا أعباء جديدة على المواطنين خلال العام الجديد ، وبمجرد أن قرأت ذلك ، طويت الجريدة بسرعة ، وارتديت ملابسي بأسرع ما يمكن ، وتوجهت إلى النادي الذي أنتمي إليه ، بأقصى سرعة تستطيعها سيارتي المتواضعة ، وتقدمت بطلب للإنضمام إلى فريق حمل الأثقال بالنادي ، واللبيب بالإشارة يفهم ! وحينما عدت إلى منزلي قرأت في صفحة الحوادث نكتة أودّ أن أقولها لكم، فقد نشر بها الخبر التالي تحت عنوان "حبس مدير التفتيش بأحد البنوك ومنعه من السفر والتحفظ على أمواله وأموال زوجته وأولاده التي بلغت عشرة ملايين جنيه" يعني حصل مدير عام التفتيش بأحد البنوك على كسبٍ غير مشروع يقدر بمبلغ عشرة ملايين جنيه ، نتيجة استغلاله وظيفته بالبنك ، والجدير بالذكر أن المذكور قد أحيل للتقاعد لبلوغه السنّ القانونية في أول يناير ١٩٩٥ ولكن تم التجديد له لمدة عام آخر نظراً لنزاهته في العمل والخبرة التي يتمتع بها . انتهت النكتة التي كان ينبغي عليْ أن أبدأها قائلاً "مرة واحد مدير تفتيش في بنك .... إلى آخره" .

إلى آخره ... إلى آخره ... إلى متى ؟

كتبت حنان بكري في صلب حوادث "الأهرام" قبل ذلك بنحو شهرين

يعنى على وجه الدقة فى ٧ نوفمبر ١٩٩٦ (ألا يذكّرنا هذا التاريخ بشيء قد غاب ، سقط وانحسر ، بصرح قد تهاوى وأمجاد قديمة ؟)

"تهرب رجل أعمال صاحب شركة تصدير واستيراد وتجارة رخام بالقاهرة من سداد الضرائب المستحقة عن نشاطه التجارى والتى بلغت عدة ملايين ، عن أرباح قدرها تسعة وعشرون مليون جنيه خلال عام واحد فقط.."

أما فى آخر يوم من العام ١٩٩١ فقد كتبت إيمان خضير فى وقائع "الأهرام" أيضاً :

"أمرت نيابة الجمالية بإحالة أب إلى محكمة الجنايات ، قام بإحراق نجله الأكبر وتوفى متأثراً بجروحه لسرقته مبلغ عشرين جنيهاً .. وكان يسرى حافظ وكيل أول النيابة قد تلقى إشارة من مستشفى الحسين بوصول سيد متولى (١٤ سنة) طالب ، وبه حروق جسيمة حيث توفى متأثراً بإصابته . وفى تحقيقات النيابة بإشراف رأفت عباس مدير النيابة تبين أن والد الطالب أحمد حسين متولى (٥٢ سنة) صاحب ورشة ، اكتشف سرقة ٢٠ جنيهاً كان يخفيها داخل الورشة ، وعرف من أحد العمال أن نجله سيد قد حضر إلى الورشة فى غيابه ، وسرق المبلغ وعندما واجهه الأب بما قاله العمال انهار الابن واعترف بأنه سرق المبلغ لشراء الأفيون ، فثار الأب وألقى بموقد كيروسين فى وجه الابن الذى استغاث بالمارة لإطفاء النيران المشتعلة بجسده لكنهم فشلوا فى إنقاذه بينما وقف الأب يشاهد النيران مشتعلة بجسد ابنه . أمرت النيابة بحبس الأب وإحالته إلى محكمة الجنايات بتهمة القتل العمد .."

يا سلام يا إيمان .. أنتِ حكّاءة موهوبة .. لماذا يبقى علينا أن نصوغ حكايات بحجة السرد الروائى ، بينما الحكايات بالكوم ، على قفا من يشيل، طيب عندك فى "الأخبار" هذه المرة ، كتب منير المسيرى من الاسكندرية التى ترابها زعفران ، يوم ٢٩ يونيو ١٩٨٧ ، من عشر سنين "أن محكمة جنح الاسكندرية قضت بالحبس ٦ شهور وغرامة ألف جنيه لعاملٍ (كذا !) حطم أنف والده بعد أن رفض إقراضه نقوداً . رفضت المحكمة تنازل الأب .. وقالت إنها أصرت على توقيع العقوبة ليكون (كذا !) جزاء رادعاً لأمثال المتهم ومراعاة لحقوق الوالدين ، صدر الحكم برئاسة القاضى يسرى ياقوت" .

منير .. أسلوبك ، يعنى ، يحتاج لتصليح ..

ما علينا ..

فى الطريق من كولومبو إلى كاندى ، فى سرنديب - سيلان - سريلانكا ، الأرض الجميلة ، وقفت بنا سيارة لجنة التضامن الأفريقى الأسيوى على هضبة ضيقة بين شعاب مرتفعات تغطيها أشجار كثيفة ، من ناحية ، ووهدة عميقة غائرة ، من الناحية الأخرى . ورأينا ، تحت هناك بعيداً ، قطيعاً من أفراس النهر تتمرغ فى كسل ونعومة على طين نهر ، أو بركة واسعة ، لست أدرى . ولست أدرى ، صحيح ، إن كان ذلك فى سريلانكا أو فى أوغندا .. المهم .

كان القطيع يتقلب فى دسامة شهوات مسترخية راضية ، تحت الأشجار العملاقة وبين الأحراش الملتفة ، الموج يهتز وأشعة الشمس الحارة تلعب على المياه وعلى الأجسام اللدنة الهائلة ، ومع ارتفاعنا ،

فوق ، لم نسمع صوت الأكداس الحيّة بل المتفجرة بحياةٍ مكتومة تحت أطنان اللحم ، ترتطم بالمياه المزبدة برغوة بيضاء قليلة لاحت لنا مثل فقاعات صابون صغيرة .

لا أذكر إلا أننى فى كاندى دخلت ، مع فريق السكرتارية ، مطعماً شعبيّاً له واجهة مبهرجة بالألوان الزاعقة التى يحبها الأسيويون والأفارقة: الأخضر اليانع والأزرق اللامع والأحمر الفاقع والذهبى حول رسومات آلهة وأبطال أسطوريّين وفيلة مدندشة وعجلات يتعلق بها قرود ولها جلاجل وسلاسل .

أكلتُ دجاجاً محمرّ الصبغة بالكارى والبهارات أحرق فمى ولم يطفئ اندلاع النار شىء ، لا الكوكاكولا ولا شراب الأناناس المحفوظ المصبوب لنا من علب صفيح صغيرة نال حوافها بعض الصدأ .

هل زرنا بيت أحمد عرابى أم لم يتسع الوقت ؟ كانت الشمس قد مالت، وطريق العودة طويل .

هل يخايلنى بيت قديم مهمل له أعمدة رفيعة متقاربة من الخشب تقشر طلاؤها الكابى ؟ أم تلك المدرسة التى أسسها الثائر المهزوم والمظلوم لتعليم أطفال كاندى القراءة والكتابة بالعربية وتلاوة القران .

فى الطريق إلى كولومبو كانت أفراس النهر قد اختفت ، وعادت الفيلة الشغالة المروّضة إلى حيث تبيت ، وقفنا عند أحد تلك الدكاكين التى يعرفها سائقو الباصات ، ولهم فيها عمولات على مشتروات السياح .

البائعة داكنة البشرة ناتئة السن الأمامية قليلاً عن ابتسامةٍ تخفف بل

تحذف ما يخايل بأنه قبح ولكن ليس به أثارة من القبح ، فى عظام وجهها المخسوفة ، قالت لى تشرح ما أعرفه وما تعرفونه بالطبع عن صنعة الباتيك إذ يُذاب الشمع على القماش من خلال حواجز مرسومة بنقوش خاصة ، ويضعونه في الأصباغ ، فكان مما اشتريته منها القميص الأزرق باهر الزرقة ، والقميص الآخر الأحمر الناصع ، والأصفر الساطع ، كلها منقوشة وخفيفة النسيج بل مهفهفة كالنسمة لبستها بعد ذلك حتى شبعت منها ، على البحر فى شرم الشيخ والغردقة والمعمورة فى أيام عزها البائد القديم ، حتى ضاقت وتمزقت وبليتْ .

بعد شقاء الكدّ فى المؤتمر كنت استرق لحظة أسترخى فيها أمام كأس كامپارى . شرايين الحمرة خيوط معلقة على بلورات الثلج من وراء الزجاج السميك ، هواء المحيط الهندى يضرب وجهى على شرفة الفندق الخشبى الحجرى العريق ، أم هى الريح الدافئة تهب علىّ من ثلوج كاليمانچارو فى شرفة فندق ڤيكتوريا ونحن نطل عى المهاوى والرُبى والوعور المكسوة بالأحراش والمعمورة بالوحوش ؟ أم هى نفحات التكييف المركزى فى "ألبيرجو باشى وإيلفيزيا" ، فى روما ١٩٧٠ ، والعمود الأثرى ينبثق شامخاً من بهو الفندق ، وأنا أحكى قصة إيزه وأوزير لخواجا فنلندى من أنصار السلام ، وهى قد خلعت حذاءها وتربعت على الفوتىْ قدمها الصغيرة الحافية مغوية ، تحسو كأس الكامپارى فيما يشبه الاستمتاع المكنون بمصارعة كلامية بين رجُليْن على استرضاء امرأة ؟

أمواج البحر الغاضبة تضرب الصخور التى بُنى عليها الفندق ،

تلطمها ليل نهار ، وأرضيته الباركيه الخشبية اللامعة لها صرير وزقزقة عندما أخطو عليها ، في طريقي إلى مطحنة الشغل ، أو عائداً منها ، مطحوناً ولكن متوثباً بالحماسة والحس بالأداء ، ومع الجسم المرهق يظل الذهن متيقظاً يعمل حتى أثناء نَوْمتي الوجيزة في الغرفة ٢٠٣ من فندق ديرو ، كولومبو .

الفندق يكاد أن يكون نسخة مصغرة من فندق تاج محل في بومباي، نزلت فيه ليلة سكبت فيها من الدموع على حبي الملتاع ما أوشك أن يغرق وسادتي على السرير الذي ظللت أتقلب عليه طيلة الليل في الغرفة ٣٤١ .

ياه .. كم من فنادق .. وطائرات .. وحطٍّ وترحال .

في چانپاث ، نيودلهي ، أصعد سلالم متعرجة تحت السماء الملبدة المنيرة مع ذلك بنور استوائي حار ، وأنزل إلى فناءٍ مفتوح ، ثم أطلع مرة أخرى تلك السلالم الحجرية ، حتى أصل إلى غرفتي ، جدرانها مطلية بالأبيض الكابي على الحجر مباشرة ، وأقرأ "رحلة إلى الشرق" التي أعارتني إياها قبل أن أسافر ، ومنها أحببت هيرمان هيس ، ولم يفارقني حبه ، ولا حبها .

ينحني الفرّاش نصفين ، الشويتي الأبيض غير نظيف تماماً ، معقود بين ساقيه ، فمئ القامة ، مسحوق الروح ومضروب الجسم بفاقة دهرية موروثة عبر الأحقاب ، وبصوتٍ متضّع جداً بلغة انجليزية مكسّرة .

- صاحيب .. من فضلك .. تمسح جزمة .. خارج الغرفة .. بالليل .

كي أترك له حذائي على باب الغرفة ، كالمعتاد ، فأجده في الصباح

الباكر يلمع ويبرق ويسطع سواده ألقاً .

في ليلة ١٤نوفمبر بعد منتصف الليل كانت رجفتها تحتي تموّجاً لجسدٍ ما زال يهيجني الحنين إليه حتى الآن ، قالت لي ، فيما بعد "ما الذي جعلك تُنهي على الفور ؟ ماذا كنت تخشى يا حبيبي ؟" ما زلت أذكر نظرتها إليّ وأنا أبارحها ، بعد مرة واحدة ساذجاً وبكْراً بمعنى من المعاني عندئذ . لم أكن أعرف ، حتى ، أنه يمكن أن تكون هناك عدة مرات ، نظرة استغراب وتساؤل دون كلمة .

وفي اليوم التالي ألقيت باسم التضامن الأفريقي الأسيوي ، كلمة تكريم لذكرى البانديت چواهر لال نهرو ، أمام جمع حاشد في "معهد التربية الاشتراكية" ، في فيچيان باهاوان ، وكان كريشنا مينون في مقدمة الحاضرين .

وعدتني باللحاق بي في "تاج محل" لكنها نكثت بوعدها ، كم من عهود نكثتْ بها وكم من نُعمَى العطايا أغدقتْ عليّ .

بكت كما لم أر امرأة تبكي من قبل ذلك ولا بعده ، طوفان من الدموع انسالت على وجهها الناعم لا الألم ولا الوجيعة ولا نهنهة البكاء تُغضِّن فيه طيّة واحدة مهما كانت دقيقة ، ظلّتْ وجنتاها أسيلتيْن نضرتيْن .

قالت إنها يستحيل أن تتأخر ، لا بد أن تعود إلى بيتها من الغد .

دموع الفاجرة حاضرة .

صحيح . لكن هذه القادرة الفاجرة هي أنقى النساء وأكرمهن روحاً ، أضفت عليّ من غير ضنٍّ نعماء هِباتها من غير مقابل ولا ثمن ، إلا

ثمن حبى النهائى ، ربما .

سأعرف فى اليوم التالى لعريدة الدموع تلك ، أنها قضت الليل مع الشاعر الفلسطينى فحل الجسم الذى وُجد راقداً بهدوء بعد يومين من موته الفجائى فى أحد فنادق لندن .

كانت تستند إلى جاكتته الجلدية الغالية فى رحلتنا إلى تاج محل الحقيقى فى أحمد أباد ، ثم نامت عى كتفه في الباص الراجع بنا - وبأوجاع مكتومة غائرة - إلى نيودلهى . كنت فى آخر الباص ، صامتاً، عاكفاً على حزنٍ شائق وشجى ما أشد وحشتى إلى مثله الآن ، على كل مضضه وإيجاعه .

سألتْ عنى ، فجأة ، بلهفة وما يشبه الفزع أو التوجس ، قالت بنت من فريق السكرتارية ، بصوتٍ فيه نبرة التشفى أو التلمظ ، إننى هنا ، نائم فى الخلف . ولم أكن نائماً عندئذ ، ولا طول ليلة بومباى ، عشية ٢٤ نوفمبر ، فنزلت قبيل الفجر أمشى على كورنيش البحر ، أمام "بوابة الهند" الشاهقة التى بنيت ليمرّ من تحتها موكب ڤيكتوريا ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند ، أو لعله موكب إدوارد السابع ابنها الذى شاخ قبل أن يرتقى سدة الامبراطورية . ورأيت العائلات المكوّمة نائمة على الرخام تحت البوابة الملكية ، الآباء والأمهات فى هلاهيل لا لون لها وحولهم العيال ، بالكاد آدميين ، ملتفين حول آبائهم ، وفوق بعضهم بعضاً ، تحت أنوار الميدان العالية التى لا تكاد تصل إليهم فى ظل الأحجار السامقة العريقة .

لم تكن فرس البحر العظيم ، سيدة النيل ، بعيدة عنى عندئذ .

جاءنى على الكورنيش هندى شاب حيّانى بلطف ودماثة ، وسألنى من أين أتيت . لا أدرى لماذا قلت له ، من غير سبب ، إننى من تركيا . فقال ، بعربيةٍ مكسرة ، وهو يسلم علىّ باليد ، بحرارة مفاجئة : السلام أليكم ورحمة الله ، مُسْلمانى ، الله أكبر : أشهدُ لا إله إلا الله مهمّد رسول الله ، ولم يكن عندى همة ولا رغبة أن أصحح له ما تصوره هو، بديهياً ، ثم عرض علىّ بانجليزية هندية اللكْنة ولكن صقلها التكرار، أن أذهب معه إلى بيت قريب جداً من هنا . وسوف أجد فيه بكراً بختم ربّها إذا أردت ، أو امرأة متمرسة بصنوف الحب الأربعين وواحداً ، إذا أردت، أو راقصات هندوسيات عاريات إذا أردت ، بثمن رخيص ، فلما اعتذرت بأدب قال إنه يعرف أيضاً بيتاً قريباً جداً من هنا، فيه غلمان "طازجون" كما قال ، تحت الأمر والطوْع ، فلما رددت عليه بغضب إننى لا أريد شيئاً قال إنه يمكن أن يغير العملة التى معى ، دولار أو استرلينى أو مارك أو فرنك أو غيرها ، بالروبية الهندى بسعر أحسن من البنك بكثير ، فقلت له وأنا فى غمار مضض الغضب والحبّ المفتقد إننى سوف أضطر بعد الآن إلى أن أنادى البوليس قال لى دون غضب وبحنكة المحترفين : السلام أليكم ورحمة الله ، ومضى بهدوء !

رجعت إلى "تاج محل" الذى خفتت أضواؤه وأصواته الآن .

كان ألم مرض الحب يمزقنى ، حرفياً ، ولم أكن أملك أن أردّ الدموع ، للأسف .

عند أول ضوء طلبت الفطور فى الغرفة ، وأكلت بشهية المضروبين والمحزونين . عينا البيض المقلى المدورتان الصفراوان عائمتان ، وسط

البياض ، فى الزيت الدسم ، رقائق الكورن فليكس المحمّصة الرقيقة غارقة فى اللبن السخن وقد انتثرت فيها حبّات الزبيب البنىّ لدنة الجلد ، نثرتُ عليها مسحوق السكرّ الأبيض الذى ذاب فيها على الفور ، والعسل الذهبى لزج القوام ورقراقاً ، ولهطة مربّى الفراولة فى طبق صغير ملوّن وقد خامرتها حبوبها الدقيقة السوداء ، فضلاً عن التوست الساخن ، وإبريق الشاى الفضى الضخم الثقيل أصُبّ منه السائل الأصهب "دار چيلنج" العِطر ارتويتُ بعبقه قبل أن أستطعم عذوبته .

وجع الحب المحبط كأنما استفزّ شهيتى للإنتقام بالإفطار الباذخ .

عندما نزلت ، مبكراً ، لمحت "مطعم أپولو" فى الفندق ، المصابيح الصغيرة على مفارش الموائد نقية البياض ، ضوؤها مصفرّ باعثٌ على الحنين ، والنوافذ العالية العريضة تتخايل من وراء زجاجها البواخر الراسية فى الميناء ، من بعيد ، مررت أمام "رواق البحر" وتناهت إلىّ أصداء الموسيقى الغربية الخفيفة تتراوح مع ترجيعات الموسيقى الهندية تصل إلى بهو الفندق الرخامى الذى ما زالت ترين عليه وخامة الصبح .

بارحت الغرفة ٣٤١ التى كان على بابها لوحة نحاسية بالإنجليزية والهندوستانى "هنا نام جاجارين أول رائد للفضاء" .

وقضيت معظم ساعات الصباح ، هَدَراً ، فى مكتب مصر للطيران ، أنتظر فى مللٍ لا يطاق تأكيد رحلتى للقاهرة ، وأتأمل الكاتدرائية الرخامية البيضاء السامقة التى بناها البرتغاليون ، فخمة باروكيّة الطراز، عند نزولهم شواطئ الهند .

بعد كتابة هذه السطور رأيتها فى حلمى تبكى بحرقة دون صوت ،

هذه الدموع المنسالة نفسها التى انسربت إلىّ عبر السنوات الطوال ، وأوجعنى بكاؤها فى الحلم كما لم يكن قد أوجعنى فى چانپاث حينما كنت أنظر إليها بجمود ، وفى عقلى المتشكك دوماً سؤال عن الصدق الحق وعن مقدرة ابتعاث الدمع عند الحاجة إليه دون مجهود . كانت قد حكت لى ، من قبل ، كيف استطاعت بالدموع الحَرَّى أن تقنع ضابط الجوازات الشاب فى مطار القاهرة أن يسمح لها بالخروج من قاعة الترانزيت ، لمدة أربع وعشرين ساعة ، بالمخالفة لكل الإجراءات والقواعد ، لكى ترى بيتها وبنتها ، وتعود لتلحق بالطائرة التالية . ولم أكن قد رأيت طيفها فى المنام - كما تقول الأشعار - منذ فترةٍ لا أدرى كم طالت . وكانت فى الحلم حقيقية وصادقة ومجسمة كما لعلها لا تكون بهذا القدر من الحضور فى الصحو أو فى الحقيقة .

أين ذهبت فرس النهر النهمة إلى الحبّ وعرامة الحياة ؟

أمامى ، فى شرفة فندق ديرو ، وتحتنا ضربات موج المحيط الهندى على صخور سريلانكا ، على المقعد الخوص ووسادته المريحة ، صدرها الوافر الوثير ، أسمر خمرياً ومكوّر النهدين ، يُثقل على الفتحة الواسعة فى فستانها الأبيض ، ويهتز لدناً يشبع العينين ، تحت النسيج الناعم المنسدل ، يربط بين شقّيه شريط صغير أحمر يرتفع من وراء عنقها وينزل على جانبى صدرها ، وقد تحررت الذراعان المدملجتان ، عاريتين تماماً ، وهى تبتسم بغموض ، تشرب باستمتاع بطىء من كأس كامپارى .

هل حكيتُ عن صراع الحب والبغض بين حور الباشق المنقض وسِتْ المتنكر على هيئة فرس البحر الأنثى الضخمة المغوية مفتوحة الفم

مفتوحة الرحم ، ترعى فى حقول الأجسام المراع خطمُها مدسوسٌ فى محاصيل الخير لا يرتفع عنها إلا ليعود من جديد .

أفراس البحر القاتلة قد تركت الماء وهى الآن تذرع شوارع ومكاتب ومصارف مصر المحروسة تمتطى سيارات المرسيدس - بنز الفارهة وتنهب خيرات البلد بلا تورّع ، هم وأبناؤهم ، باستخدام الإنترنت .

ما أبعد الفرق بين أفراس البحر الشريرة وفرس النهر الخيِّرة ..

هكذا بالأسود والأبيض ؟ أم الألوان مختلطة متداغمة ؟

من تباريح وقائعنا أن ما يزيد عن أربعة ملايين عاطل ينتظرون دورهم للانضمام إلى عصابات المجرمين والدخول فى عالم الانحراف (وما يُسمى بالإرهاب) بعد أن فشلت كل أجهزة الدولة فى أن توفّر لهم الستر فقط ، أى لقمة العيش الشريفة والمأوى .. وما يزيد على خمسة ملايين يعيشون داخل عشش ، فى إسكانٍ شائع مشترك ، وعلى الأرصفة ، وما يزيد على ٨٠ ٪ من موظفى القطاع الذى كان عاماً ، والحكومة ، لا يحصلون إلا على مرتب لا يتجاوز ثلاثمائة جنيه (ثلاثة جنيهات يعنى بمقياس الثلاثينيات) وأن الإحصاءات الصادرة فى ١٩٩٥ عن هيئة النيابة الإدارية ومباحث الأموال العامة تؤكد ضبط أكثر من خمسة آلاف قضية سرقة للمال العام حصيلتها تتجاوز ثلاثة عشر ملياراً من الجنيهات .

١٣ مليار جنيه ، فقط .. !

فى تحقيق من عمل شيرين إحسان ، فى جريدة الأحرار يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٩٦ أنه "على الرصيف جلست سيدة مسنّة فى انتظار الأوتوبيس ، اقتربتُ منها فقالت لى اسمى سنيّة كامل ربة منزل .

سألتها عن الناس اللى بتختلس ، تسرق ملايين من أموال الدولة ، قالت فى غضب شديد لازم يتعاقبوا ، هذه سرقة من ٦٠ مليون مصرى ، أنا أعاني من القلب وفى حاجة إلى عملية ولكن أين النقود ؟ أنا فى حاجة إلى ٣ آلاف جنيه وزوجى على المعاش ، ١٥٠ جنيهاً رزقنا الوحيد .." .

قال محمد عياد فى أهرام ١٥ يناير ١٩٩٧ إن المبالغ التى تناولتها قضية بنكىْ الدقهلية والنيل وصلت إلى مليار و١٣مليون و٩٧٥ ألف جنيه (بالتمام والكمال) وإن "قرار الاتهام أحال ٣٢ متهماً إلى محكمة أمن الدولة العليا منهم رئيسا مجلسى إدارة البنكين ، وسدد المتهمون ، أثناء التحقيقات ، ٤٠٢ مليون جنيه ما بين تسهيلات ائتمانية والتزامات عارضة ، "إلا أن السداد ليس له أى اتصال بانعقاد الجريمة من عدمه" .

أما محمد محمود سليمان ، الموظف ، فيقول إنه حقاً شيء مُحبط ومهين أن تطالعنا الصحف يوماً بعد يوم بحادثة سرقة أو اختلاس ملايين من شركات قطاع عام أو بنوك ، هؤلاء يجب معاقبتهم فى ميدان عام ، إنهم يسرقون مال الشعب .

يا عم محمد محمود : قُل يا باسط، معاقبتهم فى ميدان عام ؟ مَنْ يعاقبهم ؟ شركاؤهم فى السر أو فى العلن؟ بالصمت أو بالجهر؟ بطريق مباشر أو غير مباشر؟ الميادين العامة مباحة للنهب يا عم ، تستشرى فيها أفراس النهر السمان الغليظة.. يا عمّ محمود خليها على الله وسلّم لى ع ..

من تباريح الوقائع الهندية القديمة عندى ، أننى قرأت "جيتنجالى" .

جيتنچالى

ما زالت الكلمة تسحرنى وتهز قلبى ، بعد كل هذه السنين ، بإيقاع موسيقاها ، وبشحنة الحنين والوجد التى طالما حملتها إلىّ .

كنت أقرأ أشعار رابندراناث طاغور ، مترجمة للعربية ، فى مجلات ذلك العصر الرسالة والهلال والمقتطف ، وقرأتها بعد ذلك مكتوبة بخط منمنم دقيق فى كراسة صديقى الشاعر منير رمزى ، ما زلت أحتفظ بهذه الكراسة بعد أن تركها لى قبل أن يضرب نفسه ويرحل عنا ، يأساً من حبّ عميق ، فى ٢٥ مايو ١٩٤٥ ، وظللت أحتفظ بأشعار منير رمزى أكثر من نصف قرن حتى نشرتها كاملة فى ١٩٩٧ .

جيتنچالى

شعر طاغور الذى قضيت معه ، وبه ، وفيه ، ساعات طوالاً فى تلك الأيام الخوالى .

كنت قد رأيت الكتاب النحيل من طبعة ماكيملان عام ١٩٤٢ ، فى مكتبة صغيرة بشارع سعد زغلول ، كان صاحبها اليونانى ممتلئ البدن ، بشوش الوجه ، صديقى ، أم هل كان ذلك فى مكتبة ڤيكتوريا العريقة ؟

لعل جيتنچالى من أول الكتب التى اقتنيتها بقروشى القليلة عزيزة المنال، قرأت مكتبات كاملة بالاستعارة أو فى مقر المكتبة البلدية ، لكنى لم أشترِ - لم أكن أستطيع أن أشترى - إلا كتباً قلائل جداً . لعلنى دفعت فى تلك النسخة الفاخرة ، بغلافها المقوّى بُنىّ اللون ، وعنوانها المُذَهَّب ، وورقها الخشن السميك الذى اصفرّ الآن قليلاً ، اثنى عشر قرشاً بالتمام والكمال .

صاحبتنى هذه النسخة حتى فى معتقل أبى قير من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٠ ، وقد ضاعت صفحتها الأولى الآن ، كان عليها ختم المعتقل الدائرىّ وكلمة "يصرح به" وإمضاء قومندان المعتقل .

قال ويليام بطلرييتس فى مقدمته لهذه الطبعة إن هذه الأشعار سوف يتغنى بها العُشاق فيجد العشق حياة جديدة فى هوّتها العميقة ويستعيد فى مياهها المترقرقة شباباً غضاً نضيراً .

ومنذ كنت فى السادسة عشرة إذ قرأت هذه الأشعار فى ترجمتها الإنجليزية الجميلة ، حتى الآن وأنا أخطو - بخطواتٍ نزقة ما تزال - إلى أوائل العقد الثامن ، فإن عشقى ما زال غِضراً ومتوهجاً بحياة عنيدة .

وبعد سنتين أو ثلاث قرأت رواية فى طبعة بنجوين (كان ثمنها أربعة قروش ونصف على وجه التحديد) بعنوانٍ غريب "كولى" Coolie لروائىٍ هندىٍّ من طينة أخرى ، قُدِّر لى أن أعرفه معرفة شخصية وثيقة فى السبعينيات ، هو مولك راج أناند .

ومرة أخرى وقعت فى سحر من نوع آخر .

تلك كانت سنوات الحركة الوطنية الثورية المحتدمة ، حينما كان الأفق يلوح لنا - نحن شباب تلك الأيام - مشرقاً وضيئاً لا حدود لما يعد به من آمال فِساح ، ولعل رواية مولك راج أناند أسهمت - من بين أشياء كثيرة - فى دعم جنوحى نحو الثورة على القهر والظلم والفقر وظلمة الانحياز الأعمى للتقاليد والموروثات الجامدة . حياة الفقراء والمنبوذين والمسحوقين فى كلكتا البعيدة قريبة جداً من حياة الفلاحين المعدمين الذين عشت معهم فى قرية أمّى "الطرانة" وهى موقع "حجارة

بوبيللو" ، ومن حياة عمّال الفابريكة فى كرموز والمحمودية ، ما زال يسحرنى من مولك راج أناند هذا العمل الدقيق البصير فى تصوير النماذج الإنسانية المطحونة فى قبضة العوز والكدح ، من غير أىّ تنميط أو قولبة ، هم ناس عنده وليسوا تخطيطات ، يشقّوْن ويناضلون بدأبٍ لا يهن من أجل البقاء والكرامة .

عرفت مولك راج أناند بعد ذلك بعقود ، فى غضون عملى باتحاد الكتاب الأفريقيين الأسيويين ، عندما ألممتُ بالهند مراراً ، رأيته وعرفته رجلاً أنيق المظهر وجياش الحيوية معاً ، وسيماً فى كهولته وفتىّ الحركة قوىّ النظرة ، سمرة وجهه هادئة وسلسة ، وفى أثناء العمل معه لمست عنده الدماثة والرقة وسعة الأفق مع مقدرة على الحسم والنهوض بالمسئولية ، كان عندئذ يصدر مجلة شهرية فنية فى بومباى التى كان يقيم بها ، ويرأس الأكاديمية الهندية للفنون الجميلة ، ويكتب فى النقد التشكيلى وكان هو الذى يقف إلى جانب أنديرا غاندى عندما قدمتْ "جائزة لوتس" فى مؤتمر الكتاب الأفريقيين الآسيويين ، فى نوفمبر ١٩٧٠ ، إلى محمود درويش وكنت قد ترجمت له قصة قصيرة بعنوان "ثلاث زنبقات ووردة" . فى فبراير ١٩٧٠ تغديت معه ، ومع الشاعر الأفريقى كونينى ، وعندما نزلت من الفندق الكولونيالى الفخم ، على الدَرَج الرخامىّ والأبهاء الشاسعة وأضوائها الناصعة ، لم يصدمنى مرأى المسحوقين الضائعين فى الشوارع المزدحمة ، والمركبات تجرها الثيران ، وما ظننته وداعة خانعة فى العيون العميقة .

خرجت من چانباث ، كان ليل نيودلهى مشتعلاً بحرّ جوانحى وحُميًا

الحب والأنوار المنصبّة من مصابيح الغاز التى تفح فوق الدكاكين الصغيرة والحوانيت الجُوانيّة وفرشات البيّاعين وروائح البخور ونفْت الجلد فى الصنادل المشغولة المتكومة أمام أصحابها وهم قابعون متربّعون على الأرض تدخل معهم فى لعبة المساومة التى لا بهجة فى الشراء بدونها ، ولا معنى ، والكلام بالإشارة أو الإنجليزية المبَسّطة ولمحات العيون الذكية وشطارة التجارة العتيدة - ما أبعدها عن صرخة النائم فى قبضة كابوسه على رصيف بومباى .

فرغت من شراء السارى الحرير والحبّهان والمستكة والصندل الحريمى والقمصان الحرير وزيت جوز الهند لزوم تمسيد الشَعْر وتطريته ، والباروكة من الشعر الأسود الناعم الطبيعى - تُرى بكم باعتها الهندية الطيّبة فى قريتها البعيدة إذ تخلّت عن كنز أنوثتها المنسدل الذى سوف ينوس على الكتفين العاريتين ويسقط على الظهر المنسرح الناعم يدغدغ فيه شهوةً للاحتضان كأنه يثير نفثة من حرارة الآجام الاستوائية الغارقة فى طوفانات اللذة .

وقفتُ أمام البائع الفنّان الذى لم يعرض علىّ بضاعته - هى تُحفٌ من الخشب المنحوت والمنجور - نظر إلىّ بكرامة الذى يعرف قيمة عمله، ووقعت على الفور فى هوى تمثال لامرأةٍ هى ليست من هذه الأرض ، هى إلهيّة وأرضية - مثل كل نسائى ، مثل امرأتى الواحدة المتعددة - كانت روحها تضطرم بالحيوية داخل الخشب الرمادى الأكهب الضارب إلى غُبْرة ترابية ، والعقد حول جيدها العارى ونهداها الوافران متفجران بخصوصيةٍ لا تغيض أبداً ، وجهها المشغول بفنٍ بدائىٍ ناطقٍ بأسرار قديمة وساذج

الصنعة معاً ، وسراويلها المخططة تحيط بفخذيها وتنتهي بالخلخال الخشبي على القدمين الحافيتين ، في وجه التمثال مسحة أفريقية زنجية توحي لي بقناع إلاهةٍ شريرة وحنون ، مغوية ولا تُنال ، مبذولة ولا تُنتهك قطّ ، في وقت معاً . لم أساومه ودفعت له ما طلب دون كلمة وقَبِله دون كلمة ، باعتزاز ودون دهشة ودون امتنان . في دلهي وياندونج كنت حسن الحظّ .

ومن چانباث إلى شاندني شوك ومُعطي بازار ، بعد أن عبرت كونوت سيركل تصورت أنني في الغورية أو دمنهور ، أو طنطا أو سمرقند أيضاً، أو فاس ، الدكاكين الضيقة الصغيرة المرتفعة على مصطبة صغيرة، محتشدة بالأنسجة أو السجاجيد أو أنواع العطارة والعلاقة والبقالة ، صاحب الحانوت يقتعد سجادته الصغيرة يقظاً متحفزاً وصبيانه منه غير بعيد ، على حافة الدكان ، يعزمون على الزبون بالشاى المعطّر أو النرجيلة أو النعناع ، وسحابات البخور الخفيفة برائحة الورْد أو الياسمين يعبق بها جوّ اللغط والبيع والشراء والحكايات ، أو كأنني عدت إلى ألف ليلة وليلة ، وهل فارقتُها قط ؟

بينما "لاكشمي شانكار" تشدو بذلك الصوت الإلهي الخصيب نفسه الذي أحسست أنه يصدر عن امرأتي عارية النهدين من وراد الخشب المنجور الترابي ، ناعماً وحنوناً وأنثوياً سيّالاً بشبقٍ قدسي ، ذبذبة الصوت تتساوق مع ذبذبة السيتار ورقرقة موسيقى الناي وصلصلة أجراس مرهفة كريستاليّة الإيقاع ودقات الطبلة الهندية وإذا بي أخلص من كل دنيوية السوق وأعود إلى أشعار طاغور .

الغناء العلوى النسوى يترامى فى روحى مع موسيقاه التى لا تُضاهى وإذا بالراقصة التى تخطو على ساحة قلبى ، خلخالها الفضى يتجاوب فى حوارٍ حميم مع قرطها المتدلى بسلاسله الصغيرة ومع حركة الأيدى المتطايرة والأصابع الطويلة الرقيقة التى تحكى حكاية حب وموت ونشوة وفناء فى لغةٍ لا أعرف أن أفكّ شفرتها ولكنى أحس مغزاها فى صميم دخيلتى ، أساورِ معصميها والحزام المتألق بماساته الكثيرة حول خصرها مع العينين المكحولتين ونقطة الجبين الحمراء والشفاه المخضوبة كلها تعزف موسيقاها على سلّم يتجاوز الحِسى ويستثير أشواقاً إلى أفقٍ بَرَاحٍ مجهول ومزدحم بشوك المعانى الذى يخز الروح ويحفزها إلى نداء المستحيل كما تحفزها موسيقى "أستاذ على أكبر خان" و "أستاذ أمجد على خان" وغناء "كيشورى أمونكار" والفلاوْت الساحر للبانديت "هارى براساد شاوراسيا" .

رخام العشق الذى يريد أن يكون خالداً فى صروح "تاج محل" صروح موسيقى القلب المصوّح الحائر تحت ضربة المحنة وعدوان المحبة وشرود الأشجان وانسيال سحابات الدموع .

لا تبارح مخيلتى صور تلك العائلات المكوّمة فوق أرصفة بومباى ، العيال والنسوان والرجال فى هدوم خَلِقة لا لون لها ، ناحلين كأنهم مجوّفون من الداخل ، عظام كالعصى السوداء ، أمامهم صحون صغيرة وأوراق شجر فيها عجائن زهيدة بخُسه مخضرّة أو ضاربة إلى دُكْنة عِكرة لزِجة ، هذا طعامهم وذلك مقامهم .

أما رخام "تاج محل" و "منار قطب" الشامخ وجدران القلعة الحمراء

السامقة ومبنى البرلمان الدائرى الباذخ والمعابد رائعة المعمار يرين عليها هدوء علوىّ فهى أيضاً وقائع الهند المبرّحة .

قرأت الكاما سوترا وأدب التانترا ، ورأيت اللوحات والتماثيل عارية الشبقية ، السيقان المتوفزّة والأذرع المكتنزة والأثداء المترعة وأنواع العناق والنشوة الجسدية المشفية على روحانية خصيبة ، أين منها ما يكاد أن يكون نفايات بشرية - ما أشد إيجاع هذه الكلمة ! - على أرصفة بومباى .

لكأنني أقارن صروح الكرنك بحوارى العشوائيات فى بلدنا ..

فى ذلك النوفمبر الذى لا يُنسى شهدت حفل "المشاعرة" - تلك هى الكلمة بالهندوستانى والأوردية معاً - حيث سمعت الأشعار باللغات الهندية وترجمة للأشعار العربية بالإنجليزية ، بالنغم العذب متهدّج الأنثوية الذى تتقن أداءه وهى وراء المنصة ، أرخت جدائل شعْرٍ طويل منسدل ليلىّ وخفْ ، ووقفت حافية ، جسدها كأنما هو من تجسدات معبد "كاهاچوراهو"، فى وجهها المدّور خفيف السمرة أسيل الوجنتين ما يوحى بأن فيها بُعداً أسطورياً .

وكان معى فى تلك الليلة شاعر شاب هو أظْهر عباس زايْدى ، أهدانى مجموعة من شعر أعضاء "رابطة الكُتّاب الشبان" وبشكلٍ ما كان وجهه أنيق السمرة يذكرنى بوجه منير رمزى ، ترجمتُ لأظهر عباس زايدى قصيدته "الأيام مظلمة" تحيط بكل شىء ، مظلمة تحيق بها الكارثة ، ترتطم الأجساد ، والعيون تخترق الأركان الغريبة ، الأجساد الحية تسبح خلال دخان الشجيرات ، تطفو ، تبحث عن عالم جديد

جرىء" إلى آخر هذه القصيدة .

يكاد أظهر يمتزج فى ذاكرتى الآن بشاعر شاب آخر هو سوريش كوولى الذى ترجمت له قصيدته "أبيقورىّ الموت". ونشرت القصيدتين فى "جاليرى ٦٨" ثم أعدت نشرهما فى كتابى "عصيان الحلم" مع قصائد هندية أخرى .

كأن الشعر والهند واقعتان ممتزجتان فى روحى .

أهدتنى أمريتا بريتام الشاعرة الرقيقة حزينة المحيا جميلة الإيقاع ديوانها "الوجود" مترجماً من البنجابية إلى الإنجليزية ، ولعلنى لا أنسى إحدى قصائده بعنوان "مؤامرة الصمت" أترجمها الآن لأول مرة "الليل نعسان ، وهناك مَنْ كَسَر الصدر الإنسانىّ ، ليسرق أحلامه ، سرقة الأحلام أكبر الكوارث ، آثار اللصوص ، مطبوعة فى كل شارع ، فى كل مدينة ، فى كل البلاد ، لكن أحداً لا يراها ، ولا أحد تضربه الصدمة . فى بعض الأحيان قصيدة وحيدة تعوى ، مثل كلب مصفّد بالأغلال" .

عندما عبرتُ من شط بومباى إلى جزيرة إيلفانتا ، كان القارب البخارى الصغير يخوض بحراً من أشجانٍ أخفيها بالكاد ،

"الآن إيزيس أفروديت رامة
ترفع رداءها الهيماتون
عن كنز أنثويتها المتفتح للشَبَق
بين فخذين هما عمودان كورنثيّان
فى قلب الأمواج
تحملها فيلة بومباى المغمورة فى الشَجَن" .

لكن الأعمدة الكورنثيّة - بل العربدة الديونيزيّة - تبدو وديعة وخافتة قليلاً وعلى المقاس البشرى ، أما تجسداتها الهندية عارمة الشهويّة فهى فوق الإنسانى ، أو تكاد ، بالمقارنة إلى الشبقية الإغريقية المنضبطة فى النهاية ، المحكومة بدقة تكاد تكون هندسية .

الغريب أن من عرفتهم فى غمار العمل فى التضامن الأفريقى الآسيوى: أنديرا غاندى بجمالها المهيب الهادئ وحكمتها واتضاعها وهى التى تحكم قارة إمبراطورية ، والسيدة الجليلة راميشوارى نهرو ، زميلة المهاتما غاندى فى ملحمة التحرر الوطنى الهندى ، فى كهولتها التى تبدو هشة سريعة إلى الذبول وهى تُكِن صلابة بطولية ، وبارين راى الشيوعى المتململ الذى لا ينصاع لقيود حزبية ، مثقف شاب طموح زرته فى بيته فى نيودلهى كأننى أزور صديقاً حميماً فى الاسكندرية ، ثم امبراكاش باليوال الشيخ الرقيق خفيض الصوت ضاوى البنيان لكنه محتدم بنيران قديمة ليست خابية ، كلّهم يلوحون لى كأنهم أقرب إلى عائلات بومباى الملقاة على الأرصفة ، تقاوم الفناء وتتحدى عواصف داخلية هوجاء العنف ، فى سكينة القوة الكامنة ، هم من ذوى رَحِمهم وكأنهم بعيدون عن المقاتلين الأشداء الذين نجدهم فى الملاحم والأساطير ، ولكننى الآن أتساءل : هل كانوا حقاً بعيدين عن المعارك النبيلة التى هى وحدها جديرة بالقتال : المعارك فى سبيل الكرامة، والحرية ، وبهجة الحياة ، وجمال الشعر ، وحلم العدالة الذى لا يغيض ؟

***

(٧)

أمام الهمبرا

ماذا يفعل هذا الفتى النائم فى عز الظهر تحت باب سينما الهمبرا المحترق ، بجلابيته التى لا لون لها ، كابية ، قذرة ، انحسرت عن رجليه العاريتين القشفتين السوداوين بالتراب القديم الجاف ، أصابع قدميه ضخمة أظافرها كبيرة محشوة بالقَذَر المتحجر ، ناتئة على رصيف الشارع فى نومه العميق ، بلا حراك ، على بعد خطوة من محل العصير الذى يفوح برائحة القصب المتخمر وعصير المنجة المتخثّر فى برطمانات دائرية سميكة الزجاج.

ماذا كان يفعل طول الليل حتى أرداه النوم ، طرحه كالمقتول ، على رصيف السينما التى احترقت وبان حوشها الخرِب المكوّم بالأنقاض ، سوف تتحول إلى سرادق ضخم يغص بالكتب الدينية والتفاسير المكدّسة المجلدة تجليداً فاخراً ، وبجانبها أكوام من زبالة المطابع عن استحضار وتسخير الجنّ والثعبان الأقرع وعذاب القبر والسحر والتنجيم وكيف

تقضى شهر العسل بدون خجل والأبراج والحظ وروايات عبير وإحسان ومصطفى محمود وكتب دغدغة المراهقين بأغلفتها صارخة الألوان .

ماذا كان يفعل طول الليل ؟

هل كان يعتل شوالات الفحم - الأحجار الهشة أو التراب الناعم - فى الميناء على رصيف الفحم ، يقضى الساعات الطوال صاعداً بالغَلَق أو المقطف ، أو من غيرها ، على السقالات العالية المضلّعة ، هابطاً يرزح تحت ثقل الشوال المنبعج بحمله الأسود ، ليلقى به على كوم الفحم الذى يرتفع ببطء تحت الأنوار الساطعة المتوهجة ، الموج تحت الرصيف عليه طبقة من الزَبَد المخضرّ المسودّ وبُقع الزيت وبقايا الخُضر المرميّة ؟

أم ظل طول الليل يرفع الأقفاص الخشبية التى تفيض جوانبها بالخُضر، أو القفف الخوص المبللة المثقلة بالسمك الطازه الحىّ المتلوى فى آخر لحظات تشبّثه بالنَفَس فى الماء وقد انتُزع منه الآن وتُرِك لجفاف الهواء القاتل ؟

هل قضى الليل فى حوارى السيّالة أو الورديان أو بحرى يلقط رزقه حيثما اتفق من بقايا أكل السكارى أو من نفايات المطاعم ؟

أم كان يقود الزبائن طول الليل إلى متعتهم المخطوفة بالأجر البخس عند النسوان الغلابة اللاتى ضربهن الزمن والعوز يبعن بضاعة الأجسام المزوّقة بالكاد فى البيوت السرية النزرة الرثة فى حوارى القبارى وجنب كوم الناضورة وأزقّة السبع بنات ؟

ألعلّه قضى الليل يقظاً يتسكع فى كفر عشرى يجوس بين مخازن القطن العالية المغلقة ، بجدرانها الحمراء الكابية المصمتة ، ينتظر الفرج

الذى قد يجىء أو لا يجىء ؟

شارع صفية زغلول (أم المصريين . هل نسيناها ؟) يفيض بالحركة والنشاط اليومىّ واللامبالاة بمصير ولدٍ فى الثالثة عشرة ربما (لماذا هذا الرقم بالذات ؟) فى عزّ النوم . فلعل العالم القاسى (أو الغريب أو العادى) قد انتفى عنده الآن ، ولعل الولد قد أكل وشبع ونام ؟ أية أحلام (إن كان ثمّة) تراوده على رصيف الشارع المزدحم بالعابرين ذاهبين وراجعين أمام سينما الهمبرا التى كنت قد رأيت فيها أفلام چانيت ماكدونالد وإيدى كانتور (هل كان هذا اسمه أم تلعب بى الذاكرة ؟) وحلقت بى ، فى تلك الأربعينيات البائدة ، نشوة أصواتهما الأوبرالية وقصصهما الرومانسية المصقولة المبرأة من كل شائبة ، فى أوائل أيام الأفلام الملونة .

أمام الهمبرا كانت غرفة الفندق الضيّقة فى غرناطة تقع قُبالة حدائق تناناريف الممتدة بربواتها هيّنة التحدّر وأشجارها المعتنى بها أعبر الشارع ثم أسير نحو عشر دقائق لكى أعبر عشرة قرون من الزمان ، أدخل مع جموع السياح المتدفقة إلى الهمبرا الحمراء الحقة ، ومباذخ عمارتها المنمنمة وترفها المرقش الجميل ورهافة مبانيها .

كيف تتحول العمارة إلى شِعر صراح أقرب إلى جوهر الشعر من كل الأشعار الديوانية المبتذلة المنقوشة بالخط الثُلُث الأنيق على أطواق القصور الخاوية الآن التى يتفرج عليها سكان الأرض وقد فقدت الآن دفئها وأنسها وحميميّتها واستحالت إلى متاحف ومزارات بالأجر المعلوم بعد أن كانت البيوت المعمورة تجرى فيها تصاريف الحُكم والسلطة

مجراها ، تدور فيها الدسائس والمكائد والمؤامرات دوراتها بلا نهاية ، يتعانق فيها العشاق ويتضاجعون بحبٍ أو بشهوةٍ أو بملل سواء ، يضرب الحرس أرض الرخام بكعوب الرماح ، تتألق أفواف الجوارى الناعمات ووجناتهن المونقة وتنسرح أو تنسدل أو تنعقص شعورهن الفوّاحة بشذى عطور المشرق والمغرب من الصندل إلى الياسمين وتصلصل عقودهن الكهرمان واللؤلؤ والماس على الجِيد المرمرى والسلاسل المذهّبة تسقط حتى تكّة السراويل الحرير على البطون المقببّة كأن ملء طياتها عكنات اللبان اللدن ، والخلاخيل الفضية تطوّق الكواحل الرقيقة رقة سيقان الغزلان .

يومها قضيت النهار بطوله بين القصور الشماء والحدائق الغنّاء ، الأندلسيون المحدثون يعنون بها عناية الأندلسيين القدماء ، وأكثر ..

أصغيت ملء قلبى حنين غير مفهوم إلى زقزقة العصافير وتغريد العنادل يصعد فجأة ثم يتهاوى ، وخرير الماء المنساب من أفواه السباع المكفتة بالأحجار الكريمة ، ورأيت انعكاس وجهى مترقرقاً فى الجداول الساكنة والمساقى النائمة منذ ألف عام ، واستعذتُ من غواية نرسيس .

انتظرت بصبر مرور أفواج السيّاح الواغلين ، فوجاً بعد فوج ، من أهل اليابان أو الاسكنداف أو الألمان ، تتدافع الجموع المزقزقة بألف لسان المبهورة فاغرة الأفواه والعيون والجنان ، فإذا مضى الفوج ساد الهدوء فجأة ، وسمعت نجوى المياه وغزل العصافير أو شقشقة جوعها ، وجلست على الأرض وحدى ، وإذا بالشعر الديوانى المنحوت على الجدران بالعربية يتحدث إلىّ ، وحدى ، أنا وحدى أفهم ما يقول وكأنه قد نُقش لكى يحاورنى أنا وحدى ، من بين آلاف السيّاح الغرباء أصحاب العُجمة

المعاصرة كنت الوحيد الذى بينى وبين هذه الجدران هذه الأشعار هذه الأمجاد قرابةٌ ورحمٌ لم يوهنها مرور مئات السنين .

ثم يعود فوج جديد ليقتحم علىّ الحوار الحميم إلى حين ، وينحسر الوافدون وأعود أسمع أشعار الأحقاف القديمة وقد عادت إلى الحياة ، لى وحدى .

تجولت دون دليل بين الأبهاء والمقاصير ، ولجتُ الدهاليز والمسارب والممرات وجرؤت على دخول مبانٍ منعزلة صغيرة وجميلة نالها الإهمال ، خُيل إلىّ أنها محظورة على الزائرين فلم أهتم ، كأننى أزور بعض بيوت قرية جدتى فى الطرّانة أو أقاربى فى أخميم ، وعدت أصغى إلى سقسقة الأطيار ووسوسة الماء فى النوافير وهو يطس الرخام وينتشر رذاذاً ينال وجهى منه قطراتٌ لا تروى عطشاً ولا تبلّ غُلّة .

نزلت سلالم ضيقة ، صعدت دَرَجاً براحاً ، جستُ بين غرفٍ صغيرة معتمة لا تطؤها أقدام العابرين كأنما ما زال فيها نفحٌ لا يكاد يُحَس من تأوهات المحبين المتقلبين فى نُعمى المعاشق ، أو تأوهات المحبوسين المغللّين فى طوايا القهر النهائى الذى لا رحمة منه ولا تعويض عنه .

هبطت إلى قبو الحبس تحت الأرض ، سلالم ضيقة من الحجر ثم ساحة فسيحة تحت الأرض ، مضاءة بأنوار كهربية خافتة ، متحف عارٍ بلا تحف ولا تماثيل ، فقط أطياف المحابيس ، الأرض مفروشة الآن بالرمل النظيف ، أعمدة حجرية عارية فيها بقايا حلقات حديدية صدئة غليظة لم يقوَ عليها الزمن ، هذا كل شىء .

فى هذه الأعمدة كانوا يُقيّدون بالسلاسل حتى يموتوا قهراً ، يأكلون

ويشربون ما يجود به جلاّدوهم على ضنٍ منهم - أو رحمة بهم - فضلاتهم تحتهم تتراكم وتتبلل وتجف وتفوح لكنهم فقدوا الحس بالشمّ وإن كان بصرهم قد احتدّ وانشحذ فى العتمة وضوء نيران المشاعل المهتزة، منهم الفقهاء والثوار والمخابيل والقتلة والقوّادون والسُرّاق والذكور العُهْر وأهل البلد المتمردون على حكم العرب، معاً، مئات منهم، قطيع مصفّد بالسلاسل الحديدية ، ليس إنسانياً بعد . رائحة القهر الذى لا يمكن تعويضه ولا دفع ثمنه بعد، رائحة لا تزيلها مئات السنين .

هل كان ذلك فى الأندلس ، فى قلعة المحروسة ، أم فى فاس ؟

ثم انطلقت إلى الجنّات الفِساح وجُلتُ فى الممرات التى تكسوها الحصباء ، أو الرمال ، بين ساحات من الخضرة اليانعة ، حيث لا يطرقها السيّاح ، والتقيت فيها بوجوه حسناوات كدت أقسم أننى رأيتهن فى الجمالية ، أو فى الأنفوشى ، من فرط القربى والألفة وتفاهم العيون فى لُغَيّة لا تحتاج إلى ترجمان .

قال لى عمدة رُونْده ، عندما حكيت هذه الواقعة .

- نحن تكلمنا العربية هنا خمسمائة عام .

على المغارب كان علىّ أن أقضى سويعاتٍ قبل النوم ، ثم السفر فى الصبح المبكر إلى قرطبة .

خرجت من الفندق الصغير ونزلت مشياً على الأقدام ، وذرعت شارعاً طويلاً أشبه بشارع ١٢ فى راغب باشا ، بيوته أليفة ومفتوحة الأبواب ، دكاكين البقالين تذكرنى بالبقال التركى فى أول شارع راغب (كان يوغوسلافيا يعنى من البوسنة ، كما عرفت فيما بعد) ثم وقعت فجأة

على الميدان الصغير .

جلست على القهوة المزدحمة التى كأنها قهوة فرنسا فى اسكندرية الأربعينيات ، وجدت بصعوبة مائدة حولها كرسيّان فى الطرف البعيد ، وطلبت بالإنجليزية قهوة وكونياك ، دقت ساعة البلدية - لا بد أنه كان مبنى البلدية - دقات لها رنين مأنوس فوق لغط الأحاديث التى إنْ غفلتُ لحظة هُيّئ لى أنها بالعربى وأننى فى دمشق السبعينيات أو فى جزائر الستينيات .

مرت أمامى ، خيل إلىّ أننى أعرفها من زمان .

توقفت أمامى ، وقالت شيئاً بالإسبانية ، فلما هززت رأسى بالنفى ، مبتسماً على الرغم منى ، وقلت بالإنجليزية : لا أعرف الإسبانية ،

قالت بانجليزية عذبة لها رنّة موسيقية متطاولة : المقعد مشغول ؟

قلت : لا .. تفضلى .

جلستْ بجانبى إلى المائدة وقالت: رأيتك هذا الصباح . فى الهمبرا ..

هل قلت لها : وأنا ظللت أراكِ ، يا سيّدة القصر، يا سليلة أجدادٍ لى بالنسب والتراث، من وراء جدران منحوتة بالشعر، من وراء ألف عام .

لكنى ابتسمت وقلت : الهمبرا هى أيضاً ملِكى ، تخصّنى ..

قالت بما خيل إلىّ أنه لهفة سعادة : أنت عربى .. !

هززت رأسى إيجاباً هذه المرة : مصرى عربى .. نعم ..

قامت فجأة ، وقبلتنى فى خدّى ، مرتين ، هكذا ، فى الميدان ، على القهوة .

وثب قلبى فى داخلى من الدهشة ، طبعاً .

تكلمنا بالإنجليزية وبالإشارة وبلغة أعمق وأصْفَى .

ومثل كل رجل فى مثل كل موقفٍ كهذا فكرت كيف أدعوها إلى الفندق ، كيف أصل معها إلى شيء أكثر من الأحاديث الطليّة ، لأنها كانت مشتهاة .

قامت ، مرة واحدة ، دون تمهيد ، قبل أن أحسم أمرى ، ومرة أخرى قبلتنى فى خدّى، من هنا ومن هنا ، كالأصدقاء ، القدامى ، ومضت بسرعة .

لم أعرف اسمها ، لا شيء .

ولم يكتمل شيء ، كالعادة .

فى جامع قرطبة الكبير غابة الأعمدة الرشيقة المتتابعة ، مترامية إلى ما لا نهاية . خيّل إلىّ أننى سوف أسمع ترجيعات الأذان بالعربية عندما تأتى ساعة الصلاة كتاباً موقوتاً ، أحسست أننى لم أغادر - على نحوٍ ما - جامع الظاهر بيبرس ، أو جامع المؤيد ، أو الجامع الأموى .

عندما رأيت على جوانب الصحن هياكل الكنائس الكاثوليكية ، بكل بذخ النقوش والتماثيل الباروكيّة المعقدة ، خيّل إلىّ أنها صغيرة ، خافتة ، غريبة لا محل لها ، أن تماثيل الرخام للمسيح المصلوب والعذراء الطاهرة ليس لها هنا مكان ، أن هذا كله فيه شيء من النتوء والاقتحام، لا على المستوى الجمالى فقط ، ذلك واضح يخدش الحس ويشوب البصر، بل بما يقرب من المساس بالمحارم أو انتهاك الحرمات .

عرفت مصداق قولة مكرم عبيد أنا القبطى عنصراً مسلمٌ وطناً .

الجسر المعلّق المتأرجح بين ربوتين مكسوّتين بأشجار الساقانا الاستوائية ترتفع سامقة أثيثة الورق تتحدى المواضعات الجغرافية عالم من الخضرة الحارة الرائقة تهبّ بى أنفاسها النضيرة . والجسر رقيق الجسد يهتز تحت أقدامنا فوق الهوّة العميقة الغائرة المحتشدة بالأحراش التى لا عمر لها ، فى القاع الضيق العميق نلمح وثبة فهد الشيتا الخاطفة هل رأينا أفراس النهر تتمرغ فى طين جدولٍ من الماء يتحدر من على صخور الربوة المحاصرة بالخضرة ، لا نكاد نسمع له خريراً ، تومض أشعة الشمس المتطايرة عليه ومضات إليكترونية مارقة السرعة ، نحن نعبر فوق غور الحلم المستحيل لا وصول إلى حضيضه لا يربطنا بالحياة التى نعرفها إلا جسر مسوّر منتفض مسنود على أوهام خشبية تمور فى جذوعها الدفينة حياةٌ أخرى خفية .

وعلى البعد ، البحر .

أزرق مترامى الموج زَبَده دانتيلا بيضاء معابثة ومرحة تلقى بنفسها على الشاطئ الجسدانى المتماسك برماله البيضاء، تذوب على حفافيه شبقاً وموتاً.

تحبسنى السماء ، تضم العضوية المتفززة لا تفلتها من قبضتها ، ضغطتها مع ذلك هيّنة ومثيرة ولونها ضاربٌ إلى شُقرة بيضاء من الشفافية سحابها ممزّق مخرّم النقوش مفتوح الثغرات .

وإذ أنا معلّق بين ربوتى عالمين ، على شفا انهيار الجرف المهدّد ، فى كنّ السر المخبوء كُنه الكيان المكنون المضنون به على غير أهله غَوْرُه الحميم مبتلٌ تحت رذاذ الشبق الاستوائى الذى ما يلبث أن ينهمر مدراراً

على جنّتي المسوّرة داكنة الزرقة يجرى فيها هذا الجدول الرقيق من الخمر الصهباء يتطاير منها شرر الشهوات المشتعلة على تنغيمات من فَيْء الشجر الوحف الفينان .

ليس عليّ الآن إلا عباءة خفيفة يطير بها من وراء ظهرى العارى هواء القنص ، أما هى فليس عليها إلا غلالة متثنّية الأطراف انحسرت عن كتفيها المدملجتين بعضلاتهما القوية الناعمة ، لقد أمسكنا بالأيّل متشابك القرون ، شهرتُ السكين الطويلة حادة الشفرة ، أما رفيقتى فى الطراد فقد رفعت سهامها النُجْل توشك أن ترشقها سهماً بعد سهم فى قلب الحيوان الذى يشبّ على سيقانه ، بين أضلاع الصخر الصلبة ، دون رعب من الموت الوشيك ، عيناه صافيتان بل هما حالمتان بحلمٍ غير قابل للتأويل ، تتردد أصداء الشدْو باليونانية القديمة أم هى القبطية أم الكتابة القدسية ، تتجاوب بترانيمها الغابة العذراء إيزاغاپو إيزاغيو "أحبك" لها شجىً يمزّق العضلة النابضة المثقلة بنوستالچيا عريقة فى الأزمان ، حنين إلى موزاييك هوميروسيّة ، فيها ما يبدو أنه لا مبالاة ريتسوس ، أو ترجيعات ديموس روسوس ، أو صلصة صنوج قداس باسيليوس ، أو تضرعات الكهنة المُرْد إلى أوزيريس ، فى وقتٍ معاً .

قد تكون كل تلك أحلاماً أو شطحات أما الوقائع فى "الحاضر المخيف" فقد كتب الدكتور سراج الدين الحلفاوى تأملات عنها - وكما تتوقعون الآن فهى فى باب "بريد الأهرام" ذائع الصيت يوم ٩ يونيو ١٩٩٧ (٩ يونيو؟ هل يذكّرنا هذا التاريخ بشىء ؟ هل نسينا "الهزيمة" و"التنحى" وعودة "البطل" المكسور ؟) .

"دخل الشاب صالة البنك ممسكاً بيده "أوزة" وقال للمديرة أعطينى كل ما بالبنك من نقود وإلا قتلت هذه الأوزة . فتضرعت إليه مستعطفة: "لا تقتل الأوزة البريئة ولك ماشئت" وبالفعل أعطته مائة ألف دولار هى كل ما كان بالبنك ، فكافأها الشاب على إنسانيتها بأن أعطاها الأوزة وخرج غانماً.

حدث هذا بالفعل بمدينة تورنتو الكندية ومن يقرأ صفحات الحوادث بصحفنا ستطالعه هذه العيّنة البسيطة مما حدث فى نفس التوقيت تقريباً بمصر من خلال عناوين الأخبار : شاب لا يجد ما يتسلى به فيخطف طفلاً وأرنباً ويشويهما فى الفرن حتى التفحم ، يقتل صديقه ويشعل النار فى جثته بسبب ٣٠ جنيهاً ، ٣ مدمنين يقتلون مريضة ويحرقون جثتها ، مجند شرطة يقتل استاذة جامعية ويحرق جثتها ، سيدة تقتل زوجها حرقاً بسبب خطيب ابنتها ..

ويمضى الدكتور حلفاوى فى سرد هذه الوقائع حتى يقول مَثَلاً ، من بين ما يقول :

شاب يذبح صديقه ذبح الخراف وسط أصدقائهما لأنه قال له أنت خروف ..

يقتل متسولاً ويسرق الإيراد .

قهوجى يقتل زبوناً بسبب المشاريب .

يقتل طفلة بعد أن فشل فى الاعتداء عليها .

نجار بالجيزة يقتل شقيقته لتفضيل أمه أشقّاءه عليه .

تذبح ابنتها بالسكين ثم تبلغ الشرطة باختفائها ..

يلقى بطالب من الطابق الرابع جثة هامدة لأنه عاكس صديقته .

وينهى الدكتور الحلفاوى قائمته المروعة يسأل فى حزن : إلى مَنْ نتوجّه بكل الحيرة والذهول والألم ، وإلى أين نحن ذاهبون ؟

وما يحدث يا سيدى الدكتور من مذابح ، كل يوم ، فى الجزائر ؟

وما حدث فى البوسنة والصومال ورواندا وبوروندى وألمانيا الهتلرية وأرخبيل الجولاج الستالينى ومجازر التتار والأشوريين وكل أجناس البشر؟

عندما وصلت إلى الصخرة الناتئة الضيقة بين أمواج غاضبة محبطة ، ارتميت منهكاً أنهج من عنف مجالدةٍ طويلة يبدو أنها لا تنتهى حتى أصل إلى مرسى أو أطمئن إلى قرار ، لكننى وجدت الصليب الضخم المرفوع على هذه الجزيرة الصغيرة ، مفرغاً ، وقد تعلّقت به غلالة حمراء باهتة ضربتها شمس البحر ورطوبته ، امتد طرف الغلالة النسوية من أحد جانبى الصليب الخشبى الذى تندى خشبُه وتشقق ، ولكنه ظل قائماً ، والتف حول الطرف الآخر ، كأن الغلالة الممزقة متطايرة الشَعَث تحل محلّ المصلوب وتومئ إلى غيابه وهى تضطرب فى الريح الغائمة ، تخفق أطرافها وتصطفق بصوتٍ يغلب عليه ارتطام الماء الحانق بالصَخَر المسنّن العنيد .

هل ارتميت على الأرض الخشنة ونمت مع كل المقهورين والمسحوقين تحت الغلالة الحمراء تحت باب الهمبرا المحترق ؟

هل قفلتُ راجعاً بعد أن التقطت أنفاسى ، أم انقطعت بى السبُل على الشِعاب الوعْرة العصيّة ؟

***

(٨)

رجل بلا ظل

منذ أيام قلائل كنت أقلب فى أوراقى القديمة ، شأنى كلما لجّ بى الملل والضيق ، فعثرت على خطابٍ باللغة الإسبانية :

"سفارة كوبا

الجزائر

القومندان أرنستو چيفارا وزير الصناعة في كوبا يتشرف بأن يدعوكم لحضور الكوكتيل الذى يُعقد في سفارة كوبا ٢١ شارع كلود برنار ، الجولف ، فى الساعة الثامنة مساءً يوم السبت ٢٧ فبراير ١٩٦٥" .

ثم يأتى بعد ذلك ختم السفارة الدائرى : سفارة كوبا جمهورية الجزائر الشعبية الديمقراطية وفى قلبه شعارٌ طمسه مرور الزمن .

لا أذكر شيئاً عن هذا الكوكتيل .

كم تتشابه هذه الحفلات التى تكررت معى عبر هلسنكى وكوناكرى ،

برلين ونيويورك ، كوتونو وموسكو ، نيودلهى وهانوى ، وما لست أذكر من عواصم الدنيا ، كلها سواء ، وكلها - أو ، أغلبها الغالب - ثقيلة يؤود القلب تصنُّعها وكذبها المصقول بعناية : استقبال الموظف الديبلوماسى الأنيق على الباب ، بينما السيارات الفارهة تصطف دون صوت فى الشارع "الراقى" الهادئ ، ثم أنت تعبر من ممر أو ردهة تلمع نظافة وصقالاً ، وتزدان بصور فخمة لرئيس الدولة ومعالم البلد ، لتجد نفسك فى القاعة المضاءة بأنوار الكريستال المتلألئة ، وأمامك الموائد التقليدية المفروشة بمفارش بيضاء ناصعة أو مطرزة باليد - كم عرقت عليها أيادٍ نسوية كادحة فى البيوت المعتمة الخلفية - وعليها أطباق الطعام أو المزة المنتقاة النادرة ، وفى جانبٍ من القاعة الكبيرة مائدة خاصة يقف وراءها السُقاة بملابسهم الخاصة ، وعليها من أصناف المشروب ما تشتهى - أو تغثى له - النفوس . يحييك السفير أو القنصل أو السكرتير الأول أو الثانى ، حسب رتبتك ومقامك فى البروتوكول ، بعبارات محفوظة ناعمة الحواف ، بالفرنسية أو الإنجليزية أو لغة بلدك إن كان من أهل بلدك ، ووجهه المرهق من الآن يشع أدباً ودماثة متكلفة مصنوعة تكاد من فرط إتقانها أن تكون فطرة ثانية ، فهذا قَدَر الديبلوماسيين المحترفين .

القامات المتناثرة من كل أجناس الأرض وألوانها ، فى الملابس البهية المكوية ، غربيةً كانت أم شرقية ، الأرْدية الأفريقية المطرزة الملونة والطواقى أو العمامات الهندية ، والسارى أو التوب السودانى أو الكيمونو أو فستان السهرة عارى الظهر والعقد الماسىّ ينوس على الجِيد اللجينىّ ، وهكذا وهكذا ، بينما يدور الساقى بين هذه الصفوة من

الناس - أي كدر يكتنّ خلف الصفاء ؟ - ومعه الكؤوس أو أطباق طُرَف الأكْل من مُنَقْنقات ومشهيات ولذائذ أو نوادر المأكولات ، يدعوك بإيماءة غير محسوسة أن تتناول منه شيئاً ، الابتسامات وإنغاض الرؤوس بالتحيات والكؤوس في الأيدى ، الأحاديث الهامسة توحي بالجدية والخطورة ، قد لا تعنى شيئاً وقد تهز - بالفعل - مصائر الناس الغَلابة الذين ليس لهم فى الثور ولا فى الطحين . الوقوف نصف ساعة أو ساعة وأنت تدور بينهم تقول هاللو لهذا وكيف أنت لذاك ، ولعلك لا تعرفه ولكن ما همّ ، فإذا كنت حسن الحظ وبارع التصرف استطعت أن تنهى شيئاً هاماً مع أحد المدعوين الذى كنت تنتظر له فرصة تبدو عفوية وعارضة وأنت مع ذلك تدبّر لها من زمان .

ثم الخلاص - أخيراً - وبعد أن تكون قد أديت ما عليك ، رأسك لعله يدور قليلاً من الشرب والكلام والملل ، نسمة الهواء المثلوج أو صدمة الشُوب الحار بين باب السفارة وباب السيارة ، كم هى جميلة لحظة الخلاص عندما تأتى ، سرعان ما تُروح .

أذكر أن چيفارا كان معنا على الطائرة التى أقلّتنا من الجزائر إلى القاهرة.

هل كان ذلك فى مطار الإقلاع من الجزائر العاصمة، أم فى مطار تونس؟

السماء فوق المطار الهادئ الفسيح ما زالت منيرة بآخر الغروب ، زرقاء عميقة فيها نجمة الزُهرة الواحدة المشعة مثل ماسة نادرة على مخمل السماء (لا بأس ، تشبيه قديم جداً ومبتذل ربما ، أهُو .. يفى بالغرض) .

لماذا كان چيفارا في الساحة المفتوحة تحت السماء ؟

بقامته الفارعة ، وحذائه الجلدى الطويل ، وردائه العسكرى الكاكى الغامق دون نجوم دون رتبة ، لحيته الخفيفة كأنها ضرورية البيريه على رأسه، السيجار فى فمه ، مُطفأ ولكن معلقاً بين شفتيه ، تماماً مثل الصورة التى أصبحت فيما بعد شهيرة جداً ، وقتها كانت فقط متميزة ولافتة للنظر كما يقال ، يتمشى ببطء ، وحده ، في بَرَاح ساحة المطار ، سماء آخر الشتاء المنعشة الباردة قليلاً تهبّ علينا من باب القاعة شبْه الخاوية ، كنا وحدنا تقريباً أعضاء الوفد الأفريقى الآسيوى ، على الطائرة ، نحن معاً ، فى مجموعات من ثلاثة أو أربعة ، نتلمس دفء الصحبة والكلام والتقارب ، ونزجى ملل الانتظار ، بينما الثورى الأبدى، وزير الصناعة الكوبى القادم من الأحراش الغامضة ، يذرع أرض الوحشة الخاصة به وحده .

لم يكن للرجل ظلّ . قامة شامخة كأنها منحوتة ، كأنه ليس من هذه الأرض .

فى القاهرة عُقدت له الاجتماعات واللقاءات والندوات ، تلك كانت أيام التأميم ، والمدّ الثورى الصاعد ، والإنجازات "الاشتراكية" الأبوية الهابطة من علٍ ، كان ، فيما أظن ، فى ضيافة مجلة الطليعة أو التنظيم الطليعى أو ما لست أدرى من أسماء هى فى النهاية واحدة ، فى ضيافة عبد الناصر . أو إن شئت : مصر الناصرية .

حدث أنه فى ٧ يوليو (تموز) ١٩٩٧ قرأت فى "الحياة" اللندنية العربية :

"فاليغراندى (بوليفيا) - أ ف ب - وضع طبيب كوبى حداً للغزٍ استمر ثلاثين عاماً بعد ما أكد أن هيكلاً عظمياً عثر عليه قبل ١٦ يوماً في فاليغراندى (جنوب شرق بوليفيا) هو لتشى غيفارا وكان هيكل غيفارا بين هياكل عظمية لسبعة ثوار نبشت قبل ساعات من حفرة مشتركة بالقرب من مدرج الهبوط فى مطار فاليغراندى القديم حيث دفنه العسكريون البوليفيون بإشراف الاستخبارات المركزية الأمريكية (سى آى إيه) .

تعرف الطبيب الكوبى خورخي غونزاليس ، ومعه ستة خبراء آخرين ، على الهيكل العظمى لتشى غيفارا ، إذ لم تكن للهيكل يدان ، تماماً كجثة غيفارا ، فى حين أن قوسى الحاجبين كانا بارزين ، ولم يظهر أثر لأى جوارب أو أحذية فى قدمى الهيكل بعكس الهياكل الأخرى ، ومعلوم أن تشى ظهر حافى القدمين فى الصور التى شاهدها العالم بأسره لجثمانه المُسجّى ..." .. إلى آخر الحكاية - الخبر .

ماذا يتبقى لنا ، نحن الروائيين وأهل الحكْى والقصّ ، أن نقول باسم ما يسمى السرد ، بعد هذه التفصيلات التى عنيت بها وكالة أ . ف . ب ؟

قالت لى صديقتى التى أعزها كثيراً ، چوزيت الرقيقة السمراء الوسيمة على طريقتها الخاصة ، نحيفة وعظمية قليلاً فيما يبدو ولكن أنثوية ومثيرة :

- كنا فى كلية الآداب عندما جاءنا هذا الشيخ الأعمى الذى كان يغنى ، ما اسمه ؟

قلت : الشيخ إمام ..

قالت بسرعة : الشيخ إمام .. نعم .. غنّى لنا فى الكلية :

آخر خبر فى الراديوهات

چيفارا مات .. چيفارا مات

يطلع أنينُه فى الفضا

يا عينى مين يسمعه ؟

قالت : ما زلت أذكر الكلمات - هى كلمات فؤاد نجم ، أليس كذلك؟ - والغناء بالصوت الأجش المكتوم ، ونحن نبكى .. نااااابكى ، بالدموع ..

قلت : يا عينى .. ماذا يبقى يا چوزيت بعد الدموع ؟

أما مسرحية ميخائيل رومان فقد أعيد تمثيلها فى القاهرة ١٩٩٧ بعد أن "طُهرت" من الحماسات والإيحاءات واليقينيات الاشتراكية التى تُعد الآن - فى أوساط كثيرة وسائدة - من الأشياء البذيئة أو على الأقل مما مضى وانقضى عهده وأوانه ..

ولكن أنين چيفارا ما زال يصعد فى الفضاء ، مسموعاً ، بل لعله أصبح مدويّاً ، مزلزلاً ، مثل أسطورته .

هل يسمح لى محمود الريماوى أن أقتبس من نصه الجميل فى "الحياة" يوم ١٥ يوليو (تموز) ١٩٩٧ :

"من ذا الذى لا يمحض غيفارا محبةً رهيفة خاصة ؟ إنهم العتاة والجلادون والجواسيس ..

واقع الحال أن الرجل كان حالماً عظيماً ، بل ورشة أحلام ، وأنه كان يمشى فى أحلامه ، أو أن أحلامه تمشى به ، ولذلك ظل هامشياً ..

ولذلك أيضاً فإن دوره وحضوره لا يقترن بغير اسمه ولا شخصه" .

وأرجو أن يسمح لى محمود الريماوى أن أختلف معه ، تماماً ، فيما أورده من كلام حازم صاغية أنه "بقيت من غيفارا وسامته وقيافته وأزراره وسيجاره ولحيته وعيناه المفتوحتان وغموضه المقيم" .

لا .

أظن أنه قد بقى من تشى ما بقى من لومومبا ومن أميلكار كاپرال ، وأوجستينو نيتو ، ومن آلاف بل وحشود "القديسين" مجهولى الأسماء عبر الأزمان .

بقى منهم - فيما أتصور - سرّ التمرد على القهر ، والأشواق إلى العدالة والإخاء .. هل هذه مجرد كلمات قديمة ؟

وهل هذه الاقتباسات والتأملات تتنافى مع ما يُفترض فى فنّ "الرواية" أو إبداع "القص" ؟

فليكن ..

ولكن أزعم أنْ لا ..

رأيت پوستر تشى فى غرفة منال الصبية عندما دعتنى رامة إلى بيتها فى الريف ، وكانت هذه الملصقات فى الستينيات معلقة فى كل غرف البنات والصبيان فى أوروبا وأمريكا ، فى الشرق وفى الغرب على السواء .

أما زالت صور النبىّ الثورى الحالم على جدران أبناء السبعينيات "أبطال" حركة الطلبة عندنا ، وقد حال الآن بريقها وخبا ، وانتحرت أروى صالح آخر رموزها ، وأصبحوا الآن لهم كروش صغيرة أو كبيرة ، ورؤوس

فشا فيها الشيب أو الصلع ، وشغلوا مناصب إعلامية "كبيرة" أو انخرطوا في "البزنيس" ؟

لعلك الآن تجد هذه الملصقات في صناديق البوكينيست باعة الكتب واللوحات القديمة والخرائط العتيقة ونفايات الزمن .

أم لعل آلة الدعاية والإعلام الجبّارة بكل سطوتها ، تسعى إلى أن "تُحيي" أسطورة تشي ، بعد أن تجردها من معناها ؟

في الستينيات كان أمام بيتنا (بيت حماى وحماتي على الحقيقة) في شارع ستابيلي بالأزاريطة (اسمه الآن شارع الشهيد السيد مصطفى إسماعيل) دكان صغير ، جنب السمكري والبقال ومحل الفول والفلافل ، وعلى واجهته لافتة بخط كبير ، حرّ ، على خلفية صفراء "خياط چيفارا" وتحتها بخط رقعة أسود صغير "حريمي ورجالي" .

الآن ، عندما أعاد طلاء اللافتة ، بعد أن قدمت وشحب رواؤها ، غَيَّر الاسم عن عمدٍ أم عن غير ذلك فأصبح "خياط چافارا" وتحتها بالحرف الإفرنجي الصغير على خلفية سوداء M + M .

حتى الآن ، في ١٩٩٧ بيعت ألف نسخة من الكتاب الأحمر الصغير الذي كتبه تشي چيفارا ، بعد أن أعيدت رفاته إلى أرض الثورة الموعودة المَوْءودة في كوبا . وتُرجمتْ أشعاره الرومانسية التي تحدث فيها عن آلام قلبه وعن تخاييل مَثَله الأعلى دون كيخوته ذي الدرع الصفيح والرمح الخشب ، هما عندي درعٌ حقيقية صلدة ورمحٌ نفاذ ..

وظهر في إيطاليا نبيذ چيفارا .

ونظمت حكومة بوليفيا جولات سياحية غالية إلى الغابات والخنادق

التى حارب فيها چيفارا ، وقرية فيلى جراندى التى دفنوه فيها بعد مقتله قبل ثلاثين عاماً .

وتدفقت من المصانع آلاف الشارات النحاسية المطليّة بالمينا ، عليها صورة تشى ..

يا سلام .. !

ماذا يحدث ؟

كانت السندرة ، الدور الثانى المسروق من دكان "خياط چيفارا" تصعد إليها بسلّم دائرى ضيق ، وتتكوم فيها الأقمشة ، وملابس الزبائن نصف الجاهزة ، مشبوحة على المانيكانات الخشبية ، وعلى بنك طويل ماكنات الخياطة ، أراها كلها من شرفة بيتنا ، فى ضوء الكهرباء المِدَخْمس قليلاً ، وراء الواجهة الزجاجية العريضة .

يا عدلات .. عدلات .. يابِت خلّصى السيرفيليه اللى فى إيدك .. شَهّلى أُمّال ..

البنت الممصوصة قليلة اللحم عاكفة على ما فى يديها ، أمام الماكنة السنجر، عظميّة الوجه، محنيّة الظهر، مدوّرتها الزرقاء الباهتة تلف كَدَشة شعرها المنكوش الجَعْد، فى وجهها الأسمر المسحوب كلّ جديّة الطفولة ونسيانها للعالم. هى وإن لم تكد تبرح طور الطفولة بعد، فيها إثارة وجاذبيّة .

أطلّ عليها من شرفة بيتنا .

لولا نصف ساعة أو نحوها ، ظُهراً ، تخطف فيها السندويتش الذى جاءت به من البيت ، يا ترى فيه جبنة أم حلاوة أم لحْسة من طبيخ

الأمس ؟ وتشرب عليه الماء من الزير الموضوع أمام الدكان على الرصيف، بُغية الثواب ، لدى العابرين ، لما تركت مقعدها المدوّر من غير ظهْر الذى تقعد عليه من صباحية ربنا حتى المغارب ، عندما تضاء المصابيح القُوية ١٠٠ شمعة النازلة من السقف القريب ، وتنطفئ المصابيح المدخمسة أمّ ٢٥ شمعة ، بانتظامٍ يوميّ ، عندئذ تتجلى صورة تشى چيفارا الكبيرة الناطقة على الجدار .

فى آخر الليل تدخل البنت وراء ستارة البروفات ، تكون قد غيرت ، وتخرج بالفستان الذى على الحَبْل ، حرير مشجر مِخَنْصر ، له كولة بيضاء زيّ الفل ، الجزمة بكعب عال ، بدلاً من القدمين الحافيتين أو شكربينة الشغل طول النهار .

بينها وبين الواد صبى المكوجى جارهم وُدٌّ لا يخفى ، على المساء يتحفها بزجاجة كوكاكولا ، ويعزم أيضاً حسب الأصول على الأسطوات والبنات جَنْبها ، بحركة مجدعة ليس فيها أهون ادعاء أو فشخرة ، لاجْل الورد - عن طيب خاطر - ينسقى العُليق .

ذلك كله كان تحت ظل چيفارا الذى رُفعت الآن صورته من الدكّان .

الرجل الذى عاش طيلة حياته بلا ظل ، خفيفاً ، لا يترك فى الأرض الصلبة أثراً ، كأنه يسير على الماء ، باليقين وبالعطش ، أو على السحاب .. ها هو ذا فى اخر الزمان يكتسب ثقلاً ويترك وراءه على الرمل ظلاً طويلاً طويلاً ، كما يحدث دائماً عند الغروب ، وهو يسير نحو البحر الفضّى الرصاصىّ الساكن ، أمواجه الساجية تنتظر ، بصبر تنتظر ، من قَبْل الزمان .

ها هو ذا الظل المقيم ، متربعاً على الأرض أم مُقعياً بلا حِول ولا حُيُود ، متجهاً بأبصاره إلى القضبان المتشابكة على النافذة الكبيرة المضيئة بالشمس ، لا أرى ، فى عكس النور ، إلا ظهره الراسخ فى الجلابية السابغة المعتمة ، كله معتم مصمت من غير أية تنويعات ضوئية تبدى لى تفصيلات ثوبه أو قوامه ، كله ظل مقيم ، مؤخرة رأسه لا تبين هل هى عارية أم مغطاة، الشباك الهائل أمامه يرتفع من الأرض مباشرة، عليه شبكة من القضبان الرقيقة المتقاطعة ، يتدفق وراءها النور .

كأنه لا يريد أن يقوم إلى النافذة العريضة ، يستحيل عليه أن ينفذ منها على أى حال ، قد تصلّب فى قعدته الثابتة ، هل هو يصلّى ، يتأمل ، أم ينتظر ، ينتظر بصبر لا ينفد ، ينتظر شيئاً غير محدد ولا توقيت له ، شيئاً من عمل يديه ، من ثمرة جهده ، أم شيئاً ينقضّ عليه من غير أن يحتسب ؟

قال چيفارا "اضربْ .. لن تقتل إلا رجلاً واحداً .. مجرد رجل واحد"

ثم دوّت زخة الرصاص الأولى ، جنب المطار ، عضّ الرجل على ساعده يكتم صرخة الألم ، سارعت إليه زخة الرصاص الثانية .

سقط تشى ..

هل جاءت رصاصة الرحمة الأخيرة ، بعد أن سقط المسيح ؟

خرج الواد سيّد ، وسار وراءها ، بخطوات سريعة ، حفزنى شىء ما فنزلت بعده ، مررت بدكان السمكرى ، ودكان حَنّا بطرس البقال ، ومطعم الفول والفلافل الذى فاحت رائحته وفغمت أنفى ، ومحل الفرارجى الذى تتصايح فيه الفراخ فى أقفاصها الخوص القديمة الدافئة ،

ثم الجامع الصغير بميكروفوناته العالية تدوى بأذان العشاء الصارخ الحادّ، ومحل عصير القصب الذى تراكمت أمامه أكوام الهشيم المعصور وصعدت منه رائحة التخمر وطعم حلاوة آسنة ، ثم درت حول القمة إلى شارع شامبليون ، ضربنى هواء البحر العاصف الذى طوح بى قليلاً .

بعد محطة البنزين على الكورنيش ، لمحت سيّد وعدلات ، يمشيان بسرعة ، ناحية السلسلة .

ما الذى دعانى إلى أن أسارع خطواتى، أكاد أجرى تقريباً، حتى حاذيتهما ؟

سلّمت علىّ هى أولاً : سعيدة يا بيه .. يسعد مِساك .

ثم هو ، على مضض ، من تحت أسنانه : سلام يا بيه

ورغم الإجهاد المتبدّى فى أساريرها الوسيمة ، ورغم ما لا شكّ فى إنه جوع جسمانى وروحى معاً ، فى القامة الضاوية الرشيقة البناتى ، وفى شفتين ممتلئتين باللحم ولكنهما باهتتان ، ورغم العينين الواسعتين اللتين يلوح عليهما الكلال ، كانت نظرتها إلى الولد متلدّدة ، متألقة ، ومتوهجة بِضرامٍ جُوّانى .

سافرتُ ، طوّفتُ فى بلاد أفريقيا وآسيا ، غرقت فى العمل ، وبعد سنوات رجعت إلى بيت الأزاريطة ، وقد خلا الآن من سكّانه ولم نعد نرجع إليه إلا لماماً .

بعد سنوات رأيتها تأتى إلى الدكّان التى أصبحت الآن : "خياط چاڤارا" وعلى ذراعها طفلة رضيع ، الخالق الناطق تقاطيع أمها ، تمص بالنهم المعتاد ثدياً متدلياً من فتحة فستان كستور ، تخفيه بطرف الملاية

السوداء ، الآن تلفها حول جسمها الذى امتلأ ، وتجر بيدها الأخرى ولداً أكرت الشعر بجلابية نظيفة وعينين لامعتين .

سلّمت عدلات على الأسطى صاحب الدكان ، وعلى زملاء الشقا القديم ، مَنْ بقى منهم ، وسمعتها تسأل عن الأسطى سيّد المكوجى ، لعله هو - لا غيره - الشَقا الجديد بلا شك . هو الآن صاحب محل "مكوجى الأمراء" فقد عادت إلينا لُغة الباشوات .

الجثمان الأبيض الناحل الطويل جذعه ممدّد على غيامة صلبة ، إحدى ساقيه مبتورة من عند الفخذ لكنها قريبة بل ملاصقة للساق الأخرى المستندة - مع الساق المجزوزة - إلى أرضٍ رمادية بها خطوط متقاطعة بيضاء ، ذراعاه إحداهما منتزعة تماماً ، وحدها ، بعيدة عنه ، تتكئ إلى صندوق مغلق ، اليد ترتفع وتغوص فى وسط فقاعة سميكة ومتماسكة ذات شقين مكوّرين ، رحم مفتوح لؤلؤى ، أما الذراع الأخرى فهى رفيعة، على العظم ، قصيرة وشفافة تقريباً كأنها ذراع طفل ، مرفوعة بالتضرع ، عظمة العضد تميل إلى الحمرة لعلها من آثار الفورمالدهايد بعد أن تكون قد أحرقت، يداه المقطوعتان - هل هما الآن فى أرشيف المخابرات المركزية الأمريكية؟ - تطوّقان العالم بأحلام ثورية هل عفا عليها الزمن؟ إلى الأبد؟

أين رأسه ؟

هل الرأس مختفٍ وراء الجذع المشدود ، ساقط إلى الوراء فى قلب لفحات نيران باردة فى أجيج بركان هامد لم تبق منه إلا ركام من سحابات خامدة ورجراجة الموج تلوح من بينها خيالات أشباح نصف

بشرية نصف فانتازية ؟ لِم الرأس لا يُرى ؟

تتردد في أجواء مكتومة أصداء أشعاره يقطر منها دم الندم والوجع لأنه كان قد قَتَل ، قَضَى على حياةٍ بشرية ، يرثى قتيله الذى كان - بدوره - يهمّ بأن يُرديه قتيلاً .

دون كيخوته العصرى ، لم يكن يحارب طواحين الهواء بل مردة حقيقيين - مثل سلفه - ما أقسى حقيقتهم ، مدير البنك المركزى فى كوبا الثورية ، هل سقط رمحه ، عبثاً ، إلى غير قيام ؟

اصطدمت الرماح المثلومة بدروع هشة ، اختفى سانشو بانزا ، لعله لم يكن هنا قط ، بل لعلهم كانوا سبعة .

كِسَفٌ من سُحُبٍ وطفاء يسحّ منها الغَدَق الكثيف بين غِيلة الغابات والآجام ، الآن ذؤابات الجهَام تتطاير نَشَف ماؤها وتدلّى منها هُدب ثابت لا تعصف به ، بل لا تهزه ريح هوجاء، ثابت كأنه ملتصق بجلد السماء. هزيم الرعد وراءها يقعقع . وجه عدلات المتهضم الجميل يتضرع بصلاة لا استجابة لها . شُواظ النار ألسنة تتعلق بغدائر شعرها الجَعْد الملتفة وتتلوى حول وجهها وتندلع من عظام وجنتيها الناعمتين السمراوين .

عندما استيقظتُ بعد منتصف الليل فى حرّ أغسطس الرطب ، وخرجتُ بجلابية النوم أنشق نسمة هواء فى الشرفة ، كان "خياط چافارا" مقفلاً ولكن السندرة مضاءة ساطعة وراء زجاج الواجهة العلوية .

رأيت الكوبرا الضخمة لامعة العينين مشرئبّة العنق ، تيّاهةً فخوراً ، تهز رأسها يميناً ويساراً ، يندلع لسانها المشقوق ثم يعود بسرعة البرق إلى الفم الدقيق. هل كانت الحيّة تقول لى شيئاً؟ هل كانت تنعى لى

عدلات؟ أم چيفارا ؟

هل الموت والشرّ هو البدء وهو المصير ؟

هل رأيت هذه الحيّة وفى فمها تفاحة حمراء ؟ وقد التفّ نصفها حولى، الرجل الأول الذى على وجهه حيرة القديسين وبراءتهم ، وانطوى نصفها الآخر فى مواجهتى حول المرأة الأبدية فى عينيها نظرة استشراف المعرفة والإثم والعشق ؟

ثمن المعرفة فادح .

انتظرت قليلاً فلعل الحية تستحيل إلى عصا ملقاة على أرض ورشة چافارا..

قلت هل كانت هذه الحيّة هى التى تسكن جدار أبى الحسن البصرى ؟

انتظرت صوتاً كالرعد يملأ السماء والأرض يطردنى من أرض تراب الزعفران ، لكن الصوت لم يأتِ .

ينصبّ من غيامةٍ حمراء سلسالٌ من دخان صلب كالعمود ، وعلى أرض البركان ، داخل فوهته الواسعة العميقة المبلّطة ببلاطات مصقولة حسنة الصنعة ، أوانٍ ومواعين نظيفة لم تستخدم قط ولعلها لن تستخدم أبداً فى طبيخ أو غسيل ، كأنها فى فترينة قصر من قصور النبلاء الروس البائدين ، هل هو قصر أركنجل بالقرب من عاصمة الموسكوف ؟

فى قلب البركان اللجِب بشعاليل النار سحابةٌ بلورية ناصعة البياض متصاعدة نحو سماء مسدودة لن تصل إليها أبداً ..

***

(٩)

أثداء ماى وست الهائلة

هل يهم كثيراً أن يكون ذلك قد حدث فى كولومبو سريلانكا ، أو كوتونو بنين ، أو كوالا لمبور ماليزيا ؟

كنا قد فرغنا تقريباً من كل شىء ، وبعد سهرٍ طول الليل ، ونقاش ومساومات وصفقات سياسية (وغير سياسية أيضاً) انفضت لجنة الصياغة ، وهى كما لا يخفَى لجنة تمثل كل الوفود وكل الاتجاهات ، بعد أن أقرت البيان العام والقرارات السياسية والتنظيمية للمؤتمر، ولم يبق إلا اعتمادها - شكلياً - من المؤتمر كله منعقداً على هيئة جمعية عمومية.

انتهت السكرتارية الفنية من إعداد مجموعة القرارات والبيان العام على ورق الاستنسل ، لم يكن التصوير الآلى قد عُرف أو انتشر ، ولكننا لم نطبعها ، تحوطاً من إدخال ما قد يعنّ للجمعية العمومية من تعديل طفيف ، تغيير كلمة هنا ، إضافة أو حذف كلمة هناك ، لا أكثر

فى الغالب ، وإن كان ذلك يكتسب خطورة أو أهمية كبرى عند أصحاب هذه التعديلات .

أبقيت الوثائق على ورق الاستنسل الحرير ، من غير طباعة ، بعد أن تأكدت من مطابقة اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية بعضها بعضاً ، وخرجت من قاعة السكرتارية الواسعة المكدسة بالملفّات والمسودّات والبيانات وأصول كلمات المندوبين ورسائل رؤساء الدول والحكومات والمنظمات ، كانت ماجدة وسوزان وحازم قد أتموا الترجمة والمراجعة ، وكانت آرليت وأحمد وشفيق قد كتبوها على الآلة الكاتبة ، أما عديلة وهناء فقد أرشفوها ووثقوها وأودعوها ملفات مرقمة فى ترتيب محكم وضعتُ برنامجه من زمن طويل ولعله ما زال متبعاً حتى الآن فى دولٍ عربية وأفريقية كثيرة ، وجهزها محمد رفيق لكى تُحزم وترزم فى طرود متينة سوف تحملها - معنا - الطائرة المغادرة إلى القاهرة .

لم أكن نمت إلا ساعتين أو أقل على وشّ الفجر ، بعد أن راجعت واستوثقت من كل شىء ، وأبقيت معى "نواةً" من أعضاء السكرتارية من كل التخصصات ، احتياطياً ، بينما سمحت للباقين بالإخلاد إلى راحة وجيزة ، تلك كانت أيام الحماسة والإيمان والتفانى من أجل ما كنا نتصوره حرية أفريقيا وآسيا وكرامة شعوبها ورخاءها ..

هل هى أحلام راحت وضاعت حقاً ؟

سلّمت رئيس المؤتمر ، وسكرتير عام التضامن ، ورؤساء الوفود نسخاً موثوقة من وثائق الجمعية العمومية ، وركنت إلى مقعد فى قاعة المؤتمر التى ران عليها الآن هدوء الجديّة وتوتر اللحظات الأخيرة المكتوم ،

وبينما يتردد صوت المتكلمين على المنصة ، وأصداء غمغمة المترجمين الفوريين فى مقاصيرهم الصغيرة تتذبذب بها أجهزة الاستماع الإليكترونية الرشيقة - أمدتنا بها ألمانيا الديمقراطية كما كانت تُسمّى حينذاك - جلست أغالب هجمات الإغفاد ، فليس فى كل ما سوف يقال أو يجرى جديد علىّ ، كنت قد وضعت مع الرئيس والسكرتير العام سيناريو هذه الجلسة الختامية ، وترتيب أحداثها ، وكان فى يدى مشروعات الوثائق ، وأنا أتابع ما يجرى ، أُدخِل بالقلم الرصاص ما تقره الجمعية العمومية من تعديلات ، فإذا انفض الجمْع كانت مشروعات القرارات - والبيان العام - قد تحولت إلى صياغةٍ نهائية معتمدة ، وبعد حفلة الكوكتيل المعتادة فى غضون ساعتين أو نحوهما ستوزّع نسخ القرارات باللغات الثلاث على المؤتمرين والصحفيين ومندوبى السلطات والجهات المسئولة على أنواعها .

آلية كواليس المؤتمرات المألوفة .

لم أعرف إلا بعد ذلك أن طاقم السكرتارية الفنية خرج للتسوق من السوبر ماركت القريب أو من الأسواق والدكاكين البلدى البعيدة شيئاً ما ، تلك كانت آخر فرصة متاحة للخروج ، بعد أن ألزمتهم مواقعهم يعملون بلا هوادة ترجمة ورقْماً على الآلة الكاتبة ومراجعة وأرشفة طوال أيام المؤتمر ولياليه .

أقفلتْ دينيس قاعة السكرتارية بالمفتاح على اعتبار أن كل شىء قد انتهى تقريباً وأن هناك فسحة ساعة على الأقل أو ساعتين قبل أن ينفض المؤتمر: إقرار الوثائق وإلقاء الكلمات الختامية وقراءة رسائل

التأييد التى وصلت من رؤساء الدول والحكومات والنقابات والهيئات الدولية والإقليمية والمحلية .

لا .. هناك وقت كاف .

وكنت قد وعدتهم بأن أتيح لهم فرصة للخروج والتسوّق ، فها هى ذى الفرصة إذن .

المترجمون والمترجمات فى مقاصيرهم يترجمون ما يقال فورياً ، ماجدة فى مقصورة الترجمة للفرنسية ، النور الصغير المسدّد إلى المنصة الصغيرة أمامها وعليها الميكروفون ، ينعكس إلى أعلى ، فيضىء صدرها الكبير ، نصف العارى فى الحرّ ، وهى تصبّ فى الميكروفون فرنسيةً رتيبة الإيقاع كأنها طنين نحل تتصل فيها الكلمات والجمل والعبارات فى أزيز ذبذبة الأجهزة .

هل كانت ماجدة ، أم مترجمة أخرى عارمة الحيوية فياضة بالأنوثة ، هى التى حكت لى مرة أنها كانت وحدها فى مقصورة الترجمة الفورية ، المقصورة سُخْنة نار ، لم تنفع المروحة الصغيرة فى تخفيف الوقدة الثقيلة، وهى مندمجة فى العمل أخذتها حميّا الترجمة ، أطفأتْ النور الأمامى الصغير واعتمدت على السماع ، خلعت البلوزة وانهمكت فى الترجمة وهى بالجوهريات العارية ، ثم فكّت السوتيان أيضاً ، والمقصورة الآن معتمة تماماً وهى تترجم عارية الصدر ، متخففة وحُرّة ، قالت لى إنها لم تترجم قط بأحسن ما ترجمت يومها ، وجاء سيكوتورى نفسه بعد الجلسة يهنئها على جودة الأداء .

وصلتْ فى آخر لحظة ثلاث رسائل من كوبا ، إحداها من فيديل

كاسترو والثانية من إرنستو چيفارا ، والثالثة من منظمة تضامن القارات الثلاث ، وكان لا بد من ترجمتها ومراجعتها وطبعها وتوزيعها على المندوبين قبل رحيلهم إلى بلادهم ، وإلا قامت أزمة غير مأمونة العقابيل ، فذهبت لأعنى بالأمر وأنسق سير العمل وأتأكد من سلامته ، تركتُ قاعة الاجتماع الفسيحة الغاصة بالوفود والصحفيين وكاميرات التليفزيون القديمة تئز بخفوت وفلاش كاميرات التصوير يبرق ويخبو ويدقدق ، وصدى الميكروفونات يتذبذب ، وعبرت الردهة ، وطلعت السلالم .

وجدت قاعة السكرتارية الفنية مغلقة بالضبّة والمفتاح ، ولا أحد هناك . لا أحد على الإطلاق .

كان الموقف عصيباً .

هكذا أحسست لحظتها ، كم يبدو هذا ، الآن ، مضحكاً قليلاً . ساعتها كان الأمر جديّاً ، وخطيراً ، بل شبه تراچيدى .

فجأة لمحت محمد رفيق بقامته الفارعة وأناقته المتميزة حتى بعد الكدح الطويل الشاق ، بوجهه الطلق السمح أقبل علىّ يتهادى متمهلاً ، على راحته ، محملاً بأكياس المشتروات وثمار التسوّق الناجح ، فاحت منه رائحة الحبهان والتوابل والأناناس والپاپاى ، فناديته بلهفة ، وبنبرةٍ عرف فيها على الفور ودون أن أتكلم ، مدى الغضب والتأزم عندى .

- تحت أمرك .. هل هناك شىء ؟ ألم يكن كل شىء قد انتهى ؟

عندما عرف الموقف قال لى بهدوء "ولا يهمك" فى ثوانٍ سوف أحلّ المشكلة .

خلع چاكتته الصيفى الخفيفة وشمّر كمّىْ القميص الحرير المشجرّ وفك الكرافتة بسرعة خاطفة ، ثم انحنى ، وخلع حذاءه ، وبقى بالشراب ، وأنا أرقبه بدهشة ، ثم لمع فى ذهنى ما كان بسبيله أن يفعل .

استدار محمد رفيق وخرج من شرفة البهو إلى الجدار الذى تطل منه النافذة الزجاجية العريضة المقفلة ، على قاعة السكرتارية .

بعد نظرة سريعة تشبثت يداه بالجدار ، قدماه بالشراب القطن ترتقيان الإفريز الضيق الذى يدور بالجدار ، تزحفان بحرص - كأن لهما حياة مستقلة - على عشر سنتيمترات أو أقل من إفريز الجدار ، جانب وجهه ملتصق بالحجر ، لا ينظر - طبعاً - إلى أسفل ، من علوّ ثلاثة طوابق .

كان أشبه بممثل فى فيلم سينمائى يحتال لكى ينفذ إلى نافذة حبيبته، أو لكى يفتح الخزانة التى فيها المجوهرات وآلاف الدولارات ، أو أخطر المستندات .

وكما يحدث فى الأفلام تماماً ، للإثارة وحبس أنفاس المتفرجين ، بشكلٍ لا يصدّق وإن كنا قد رأيناه فى السينما عشرات المرات ، اهتز قليلاً وأفلتت يده الجدار ، وتمايل على وشك السقوط .

خفق قلبى وهممت بخطوة إلى الأمام كأننى أريد أن أسنده ، لكنه سرعان ما استرد توازنه ، على الفور .

فى أسفل ، فى فناء مبنى المؤتمرات ، التمّ جنود الحرس ، رفعوا بنادقهم ، اقتربت رؤوسهم يتكلمون بسرعة ويشوّرون ، متحفزين .

استدرت إلى المرافق الذى وجدته بجانبى ، كأنما انشقت عنه الأرض ، وقلت له بلهفة : أخبرهم أن كل شىء على ما يرام .

قال : ما هذا ؟ ماذا يحدث هنا ؟

قلت : أخبرهم فقط أن كل شيء على ما يرام الآن . بعد ذلك أحكى لك.

بادر المرافق ، فقال للحرس بلغتهم الأصلية المشتركة ، كلاماً سريعاً مندغماً ملهوفاً وناعم الحواف .

كان الجنود قد ترددوا لحظة قبل إطلاق صيحة التحذير أو زخّة المدفع الرشاش . لو فعلوا لحدثت بالتأكيد كارثة . هل شفع لمحمد رفيق ، عندهم، لون بشرته الفاتح نسبياً وإن كان محموشاً قليلاً ، أم كان بالعكس داعياً للضرب ؟

قلت للمرافق : يا أخى قاعة السكرتارية الفنية مقفلة ، والمفتاح ضاع، لم نعرف كيف نحصل على نسخة احتياطية منه ، السكرتير زميلنا سيدخل من الشباك لمسألة مهمة جداً .

طبعاً تُرجِمت رسائل كاسترو وجيفارا والقارات الثلاث وطبعت ووزعت فى الوقت المناسب تماماً ، بالكاد .

هل كانت المسألة تستحق ؟ هل كل المسألة تستحق ؟

طبعاً تستحق . كانت تلك هى الأيام الحلوة العظيمة .

كنت يومها قد استيقظت من نومٍ قلق حارّ، فى شاليه مبنى الضيافة المحيط بحمام السباحة، بعد ساعتين نوم، وذهنى فيه ألف مشكلة ومشكلة لا بد أن تحلّ أو تحسم فى دوران عجلة سير الشئون الفنية كلها للمؤتمر. وفى أذنى رنين الصنوج فى يدى العازف الأعمى المقعى تحت بوابة أبيدوس، وقرقعة الصاجات فى أصابع راقصات أوزيريس ، وفى

يَدَىْ راقصة بغداد القادمة أصلاً من باب الشعرية ، وهى فى بدلة الرقص الشفافة السوداء المشغولة بالترتر ، والعازفات على العود والهارپ عاريات إلا من شريط حريرى رفيع يلف الحقوين ويبرز اكتناز الردفين المضمومين ورشاقة الخصر الهضيم يردّ عليهن لاعب العود ، بالجلابية ، مع التخت العربى من شارع محمد على ، فى فرح بلدى على سطح بيت وراء جامع السيدة نفيسة .

عندما خرجت على أول الصُبح ، نصف نائم ، من باب الشاليه إلى الباحة الوسطانية التى يملؤها حوض السباحة المستطيل ، ضربتنى شمس أفريقيا وهواؤها السخن الثقيل . فتحت عينى بدهشة إذ أرى الأمين العام بنفسه ، يذرع الحوض سباحةً ، ذهاباً ومجيئاً ، بجسمه القوى العسكرى مليئاً ولكن رشيقاً حتى فى عز كهولته ، يضرب بذراعيه وساقيه بحركة هادئة منتظمة ، وبدلاً من مايوه السباحة ، لم يكن عليه إلا الشورت الداخلى الخفيف من الفانيلاً القطن الناصعة . وقد وقف بعض المندوبين والمترجمين - والمترجمات - لحظة ، يرقبون المشهد بابتسامات صامتة وبشىء من الإعجاب وربما الحسد لأنه - هو - جرؤ على ما لم يستطعه أحد ، ولم يفكر فيه أحد . وكان الحرس الأفريقيون، شاكى السلاح ، متحلقين حولنا ، فى جذل .

وفى دقائق رأيت أحمد فتيح ، مندوب فلسطين الفتىّ الوسيم يشب إلى الماء ، بالشورت الداخلى أيضاً ويصاحب الأمين العام فى سباحته الهادئة ، وإذا بالجميع ، بحركة مفاجئة وعفوية، يصفقون بحماسة وفرح.

خرج الأمين العام والماء يقطر من جسمه الرياضى المفتول الذى سوف أراه بعد سنوات مضروباً بالرصاص ، مجندلاً فى دمه ، ممدداً على بلاط

ردهة فندق هيراتون، مغطىً بملاءة بيضاء، ساكن الأسارير ، كأنه يرتاح.

قال لى ، وهو ينهج قليلاً : أنزل الماء أنت الآن . لا تتصور الفَرق ..

قلت : إسحاق بيه ، أنا أولاً لا أجيد السباحة ، اسكندرانى صحيح ولكن بالكاد أطفو على الماء .. ثانياً ..

قال : كافية "أولاً" تكفى وزيادة يا أخى .

ما زلت أطفو ، بالكاد ، على مياه مَحَبّاتٍ لا تنضب ومعاشق لا يجف لها مَعين .

رسم فيلينى صورةً بالقلم لامرأة مدورة الوجه ، شفتاها داكنتان باللمَى، لحِيمتان ، وتحت عينيها خط أسود ثقيل ، شعرها يسقط على عينيها مهوّشاً وينسدل على جانبىْ ظهرها ، فى صدارة الصورة ثديان هائلان يتفجران من أعلى كتفيها مباشرة ويتدفقان بعرامة وضخامة يتجاوزان بلاطة صدرها التى اختفت تحت ثقلهما ، الحَلمَتان نبقتان كبيرتان مدوّرتان ، خلفية الرسم وراء الرأس وتحت الثديين ضربات عشوائية بالقلم الأسود ، وكتب بجانب الرسم بالخط الكبير MAE وباقى الاسم بخطٍ صغير West . ماى وست الأسطورية فى الثلاثينيات والأربعينيات .

"كان الثديان العظيمان يملآن العالم لكن جمالهما وصباهما يخطفان النَفَس ، مشدودين ، الحلمة منتصبة وطويلة" فى حجارة بوبيللو ، على مذبح ديونيزيوس ، أما من بنات اسكندرية فقد كانت ستيفو اليونانية رخيمة الصوت هادئة الطبع دمثة ، لجمالها طراوة وابتلال ، تسير شامخة الصدر بين المكاتب المتقاربة فى القاعة المزدحمة بالموظفين والآلات

الكاتبة ورنين التليفونات وأضواء النيون ، فى شركة التأمين الأهلية ، فى أوائل الخمسينيات ، كانت ستيفو رابية ، زاكية العود ومشوقة على امتلاءٍ جذّاب، بلوزتها الحريرية المفتوحة تحتشد بثدييها الكبيرين فى غير ترهّل ولا سقوط ، سمّاها صديقى فريد اسكاروس "البقرة" The Cow إيحاءً منه بخصوبتها ووداعتها معاً ، أو قدسيّتها ربما ، وسرعان ما شاع اللقب بيننا ، عرفته ستيفو وكأنها قبلته عن طواعية فكانت تبتسم قليلاً عندما تسمعه يتردد بيننا . فى ١٩٥١ كان ذلك ممكناً ، كان مثل هذه الدعابة بكل حسن نية مقبولاً بل طيباً ، نادتها به إيڤيت ساسون ، اليهودية الاسكندرانية بنت البلد المتفجرة بالمرح والحيوية والمعابَثة ، وضحكتا معاً ، وسط الشُغل ، ضحكة صافية .

فى ساتيريكون جاءت إحدى هلاوس فيلينى المجسّمة ، بأثدائها الهائلة - هل هى تجسيد لحُلمه بماى وست ؟ - ساعداها مكوّران لحمهما مدوّر كأنهما ثديان آخران ، اليد بأصابعها الدسمة تسند أحد الثديين ، فيها أسورة عريضة منقوشة . أما إزارها الهفهاف فيخفى ساقاً وينفرج عن الساق الأخرى ربلةً مدملجة تدور بها سيور الجلد التى تنتهى بنعْل لا يربطه بالساق إلا أحزمة وثيقة ، أثداؤها الهائلة على الصدر وعلى الذراعين وفى الساق العبلة بل فى الأصابع المكوّرة ، كلها أثداء ، تحدجنا بنظرة غائبة كأنها تأتينا من حشو حلم جسدانيْ كثيف فيه أثارة من شجوٍ ولمحة من زهوٍ معاً .

فى قُصاصة تاريخها ، ١٦ سبتمبر ١٩٣٨ ، أن "ماى وست تعود إلى تمثيل أدوار الفاجرات . وهى الأدوار التى سبق أن نجحت فى تمثيلها على مسارح برودوايْ بنيويورك .. اقتنعت هوليود بصواب هذا الرأى

ولولا ذلك لغادرت مايْ وست عاصمة السينما ولَحُرِم العالم من نجمته المحبوبة ذات الجاذبية الجنسية المتوقدة .. ومايْ وست مؤلفة من أكثر مؤلفات العالم شهرة ونجاحاً (كذا !!) وهى التى تؤلف القصص التى تبنى عليها أفلامها كما أن لها عدة مسرحيات ناجحة مثلت بعضها بنفسها فى برودواى قبل أن تذهب إلى هوليود (من أشهر المؤلفات فى العالم .. مرة واحدة.. يا سلام!) ولما ضاقت الرقابة ذرعاً بمايْ وست كلّفت البوليس بالقبض عليها وزجّها فى السجن ثم قدمتها للمحاكمة بتهمة إفساد أخلاق الشبان (نفس التهمة التى تجرع سقراط السمّ ، بسببها ، فى أثينا ، قبل عشرين قرناً .. فتأمّل) ولكن المحكمة برّأتها (كما لم تبرئ محكمة أثينا الشعبية سقراط) بعد أن قالت فى حيثيات حكمها إن هزّ الأرداف وأنواع الدلال والقدرة على جذب الرجال فنٌ جميل ولذيذ .. كمان . ولكن الرقابة لا يفقهون" أيْ والله .. بالنصّ ، فى العدد ١٣ من مجلة "الشعلة" .

ما الذى حفز الولد الذى كنته ، وعندى اثنا عشر عاماً ، بالكاد ، أن أحتفظ بهذه القصاصة ، وأظل احتفظ بها حتى الآن وقد اصفرّ ورقها ، بعد ستين عاماً ؟ وفيها صورة مايْ وست بالأبيض والأسود ، رشيقة ناعسة العينين ، فى روب أسود دانتيللا يفصح عن جانبٍ صغير من صدرٍ دسمٍ مضىء ، وشورت ساخن يبدو أنه من مخمل أسود أيضاً ، تندلع منه فخذ مدورة يقطعها ، بقسوة ، إطار الصورة ، فوق تليفون المجلة ٤٥٣٤٣ وإعلان عن الاشتراك السنوى وهو ٥٠ قرشاً .

هل ذلك لأننى - مثلاً - كنت أحتفظ بالقصاصات المنشورة عن أشهر الكُتّاب فى العالم ؟ هل صدّقتُ ؟

أم لحافزٍ آخر استطاعت هذه القصاصة أن تتحدّى مدّ السنوات وجَزْرها وأن تحيا فى الروح ، والجسد ، حتى هذه اللحظة ؟

فى ١٥ يناير ١٩٠٢ ، ثانية سنوات القرن العشرين ، نشرت الأهرام العتيدة أنه "يوجد فى العربية كتابٌ يُسمّى "رجوع الشيخ إلى صباه" وهذا الكتاب تتداوله الأيدى كثيراً ، ترجمة أحد الإنكليز المقيمين فى باريز إلى الفرنسية وأذاع عنه إعلاناً فى شوارع المدينة فقبض البوليس على الإعلان واستاق المترجم إلى المحكمة لإحراق الكتاب . وحكمت المحكمة على المترجم المستر كارنجتون بغرامة ٣ آلاف فرنك لاختراق حرمة الآداب العمومية" .

هل كنت فى العاشرة ، فى السنة السادسة والثلاثين من القرن العشرين ، عندما كنت أدق باب الشقة التى تحتنا فى شارع الكروم لآخذ رواية من روايات روكامبول أو رواية "سافو" لألفونس دوديه ، من خزين فتحى أفندى ، كانت امرأة أخيه ، الست وهيبة ، تخرج لى ، على السلالم ، فى جلابية البيت ، فضفاضة ، بها لمعة وملاسة من القدَم والاستعمال ، واسعة الفتحة يبدو منها صدرها العريض الأسمر حراً لا يمسكه سوتيان ، فى تلك الأيام لم يكن لبس السوتيان العصرى شائعاً . كانت تنحنى عليّ وتبوسنى فى وجهى ، فيغمرنى الثديان الكبيران برائحة خصيبة خمرانة تفغمنى وتسكرنى لحظة ، لم يكن عندها أولاد وسمعتها مرّة تقول لأمى "ياختى يا حبيبتى دانا اتزوّق للباب قبل ما انفّضه وللشبّاك قبل ما اقفله" لم تكن لعوباً بل كانت سيّدة ناضجة الأنوثة تُعزّ جسمها وتدلّله . كانت دائماً متعطرة برائحة فيها أثارة من صندل ، أو عنبر ، وشفتاها بهما لَمَى داكن ، ريّانى أو مضرّج بأحمر

قاتم ، لا أعرف ...

ولا بد أنه فى ذلك الوقت أخذنى خالى ناثان إلى قهوة فى شارع الخديوى ، كان معه زملاؤه وأصحابه من سوّاقى الشاحنات والأجرة ، يتناقشون هل يبدأون إضراباً للاحتجاج على تعسف الإدارة وملاحقة البوليس أم يستمعون إلى نصيحة البرنس عباس حليم ، صديق العُمّال ، وقد وعد بأن ينظر فى الأمر ويطلب من وزير الداخلية أن يلبى طلباتهم .

طلب لى خالى ناثان كازوزة ماركة "يحيى سعد" وكنت صامتاً يتفصد منى العرق فى بعد الظهر الحار ، والترام يخترق الشارع مصلصلاً وبهيجاً ومرحاً فى طريقه إلى باب الكرسته ومينا البصل .

قبلها فى الطرانة ، جلسنا على الطبلية المدوّرة العريضة مع جدّى أرسانيوس وجدتى هيلانة وأختىّ عايدة وهناء ، الغدا كان أنْجَرْ عدس أصفر شهى متماسك القوام تسطع منه رائحة تملأ الخياشيم نشوةً ولذّة مع أننا كنا فى عزه الصيف .

قدّم لى خالى ناثان فحل بصل كبير وقال لى : "دِشُّه عَ الطَبْلية" . ضربت فحل البصل بقبضتى مرة ومرتين ، لكنه لم ينفلق بل لم يبدُ أنه انشرخ حتى ، كان يتدحرج منى كلّ مرة . خطف خالى ناثان البصلة الكبيرة بغضب ، وضربها بجمع قبضته بحركة مدربة قوية ، فانفشخت وفاحت منها رائحة حريفة حرّاقة ، ودمعت عيناى ، هل من البصل أم من الحس بالخيبة والإحباط ؟

عندما قمنا من قهوة الخديوى ، حوّدنا يميناً فى شوارع ضيقة ولكن خالية تقريباً ، خالى كان عنده مشوار فى شارع أنسطاسى ، وفى

الطريق سرنا في شارع السيّالة .

رأيت ثلاث عربات حنطور تقرقع عجلاتها على البازلت ، العربجية يفرقعون بالكرابيج ، دون أن تمس الخيل التي ترمح ، رافعة الرؤوس ، تجلجل أجراسها ، وفي العربات الثلاث رأيت النسوان تحت ملاياتهن السوداء المنحسرة عن أكتاف عارية ، في فساتين قصيرة بحمّالات عريضة ، الفساتين الحريرية الحمراء والمشجرة والمشغولة بالترتر والشفافة تنكشف عن سيقان إحداها فوق الأخرى تتأرجح منها الشكربينات الساتان اللامعة ، الشفاه مصبوغة والوجنات مضرجة والكحل حول العيون ثقيل ، والأثداء مشرعة نصف مكشوفة لحمها الطريّ أو المتهدل أو اللدن المتماسك يترجرج في اهتزاز الحنطور . كنّ راجعات ، من الكشف الطبي الأسبوعي في قسم اللبّان ، إلى حواري حيّهن المأثور في كوم بكير ، يغنين بالصوت الحيّاني وبنغمات تتسق أحيانا وتنشز أحياناً، ومعهن الطبْل والرِّق والصاجات ، والعيال في الجلاليب الشفّافة يرقصون في فسحة العربية الضيقة "سالمة يا سلامة .. رحنا وجينا بالسلامة" السيقان منحوفة أو رَبْلة أو عظميّة أو مدملجة مرفوعة أمام عينيّ ، تبدو حلقة الأستيك العريضة الملوّنة تحبك استدارة الفخذ وتشدّ الشراب الحرير الأبيض ..

كانت واحدة منهن ، على الأخص ، ضخمة وركاء ، شمخ ثدياها ، متفجريْن من تقويرة الفستان الواسعة . هاثلان ، فخمان ، لهما مجد ، بسمرتهما الناعمة ، لمحتُ عليهما نزّ قطرات العرق الخفيف ، يتموجان معها في حميا الغناء : "سالمة يا سلامة" .

من تباريح الوقائع أن المحامى العام لنيابات جنوب الجيزة أمر بسجن سيدة تدعى صَدَفات إبراهيم جمعت فى وقت واحد ، بين ستة أزواج موزعين بين الجيزة والمنيا والاسكندرية والقاهرة والبحيرة وبنى سويف ، تزورهم جميعاً بانتظام ، وتقيم أساساً فى بيت زوجها الأخير فى الجيزة .

وأن تلميذات ، فى تيبينج، ولاية بيراك الشمالية بماليزيا، يتقاضين عشرين سنتاً فقط (أى ثمانية فى المائة من الدولار الأمريكى) مقابل السماح لرجال بتحسس وجناتهن ، وأن هذا المبلغ يرتفع مع تنامى رغبات الزبون فى تحسس مناطق أخرى من وجوه التلميذات فى المدارس الثانوية، الوجوه فقط.

وأن مباحث الجيزة كشفت عن سر غموض مصرع طالبة بكليّة السياحة والفنادق ، فى العشرين من عمرها ، بعد أن عُثر على جثتها ملقاةً على الأرض داخل شقة أسرتها بشارع حسين عمّار بالعمرانية ، ممزقة الملابس. تبيّن أن ابن عمها وراء الحادث ، عندما فوجئ بالفتاة بمفردها داخل الشقة ، فحاول اغتصابها . قاومته ، وتناثرت فى أثناء مقاومتها محتويات الشقة ، وفاجأت الفتاة ، فى غمار المقاومة ، أزمة قلبية إثر هبوط حاد فى الدورة الدموية . ماتت .

أكد الكشف الطبى على الفتاة أنها ماتت بكراً .

لاذ ابن عمها بالفرار إلى سينا ، كان يعمل محاسباً هناك فى شركة خاصة ، وقبض عليه .

ودارت العجلة المعروفة من الإجراءات ، التحقيق والنيابة والمحاكمة .

ماذا كان ثمن موت تلميذة السياحة والفنادق ؟

وماذا يمكن أن أقول عن هذه الحكايات والوقائع التى تفوق خيالات الشطح والجنون ؟ ما الذى أفعل إذ يشط بى جماح الكتابة بها ، والقصّ واللصق ، دون أن أملك لها كبحاً ، دون تقيّة ؟

أهذه أيضاً محنة لا مفرّ من أسرها ؟

عندما انتهى المؤتمر على خير ، أقرّت القرارات والبيانات وتُليت رسائل التحية من الرؤساء ، والرسالة الختامية من أمين عام "حزب الثورة الشعبية" هو القائد الأعلى للجيش وللحرس الوطنى وللشرطة ، كبير قضاة وكبير أطباء الجمهورية المهندس الأعظم والمخلّص ورئيس سحرة القبيلة الكبرى ، رئيس الدولة الذى دخل القاعة مدججاً بالنياشين والأوشحة ومحاطاً بكوكبة حرس الشرف المسلّح ، المصافحات والقبلات الأخوية ، صادقة أو مصنوعة حسب الطلب ووفقاً للظروف ، سواء .

انفض المولد إذن، وبعد العشاء اجتمعنا نحن السكرتارية الفنية ، رجالاً وبنات ، وبعض المندوبين الأصدقاء، منهم أحمد فتيح مندوب فلسطين وعبد الكريم الجيلانى مندوب اليمن الديمقراطية (حينئذ) فى شاليه محمد رفيق، فُتحت زجاجات الشمبانيا والويسكى التى جئنا بها على حسابنا الخاص من المطار، شربنا وغنينا أغانى سيد درويش وداود حسنى، قمر فى السما يْلالى يطلع لم يبالِ، وأم كلثوم طبعاً وعبد الوهاب أيضاً، رقصَ حازم على واحدة ونص، وقامت ماجدة فأدت رقصة مُلْهَمة عرفت كيف تهز صدرها الكبير وردفيها الرفيعين نوعاً ما، طوّعت جسدها اللدن لموسيقى فريد الأطرش المسجّلة ، على الضباب الخفيف فى رؤوسنا وراحة المرهَقين فى جسومنا، على الفرح بالخلاص من كدّ المؤتمر

وشدّ الأعصاب فيه .

الساعة الثانية بعد نصف الليل أوينا إلى الفراش، أخيراً، من غير همّ التفكير في مشكلات الغد ، لكني كنت ما أزال متوتراً وإن كنت مفرّغ الروح، منهك العقل والجسم معاً. رنّق النوم بعينيّ، لماماً. وخيّل إليّ بعد زمن لا أدري مداه أنني أسمع شيئا في باحة المبني الذي أفرده الحزب لضيافتنا .

كان الحرس قد انصرفوا إلى حال سبيلهم كما عرفت عندما عدنا للنوم، لم يبق منهم فيما أقدّر إلا واحد أو اثنان يغالبان النوم على أبواب المبنى من الخارج .

فماذا يحدث إذن ؟

خرجت نصف نائم بالفعل .

على نور القمر الاستوائي الناضج ساطع التدوير ، في سماء رائقة حارّة عميقة الزرقة ، رأيت جسماً يطفو في حوض السباحة ، هناك على الطرف البعيد .

ثم إذا هو يعوم ببطء ونعومة ، لا يكاد يشق سطح الماء الساجي .

وكأنني في حلم تبينتُ ماجدة تسبح ، عارية الصدر ، ثدياها الكبيران يطفوان قبلها على الماء المشعشع بضوء السماء ، وكأنما اهتزاز رقرقة الموج الطفيف ، والضوء العلويّ يضخّمان تدوير ثدييها فإذا هما هائلان ، على بطنها المخنصر الدقيق الذي يعلو ويهبط في حركة السباحة الرتيبة ، وجهها يرتفع على الماء ويغوص ، وشعرها الحالك الطويل معقوص ومربوط بتوكة معدنية تومض ، ازدادت حلكة سواده

من البلل، بالكاد لمحت القطعة السفلية من ملابسها الداخلية تلمع بلون أزرق موشّى بحاشية بيضاء رفيعة من الدانتيللا ، تترجرج فى تراوح الماء ، وتبادُل اندفاع وانطواء الساقين السمراوين الطويلين .

رفعت رأسها عندما وصلت عندى ، وأنا على حافة حوض السباحة ، وحدى فى الليل . نظرت إليّ ببساطة وعُمق بلا خجل ولا اعتذار ولا رغبة فى التفسير والتبرير ، نظرة غامضة خيّل إليّ أنها استمرت أمداً طويلاً ، ثم استدارت وراحت تذرع الحمّام ، ذاهبةً إلى بعيد .

دخلت ، ولم أنم حتى الصباح .

خيّل إليّ أننى أسمع زئير السباع وحمحمة الحيوانات الحوشية فى الغياض والأحلام والآجام القريبة من مبنى الحزب .

التحديق فى عين الشمس التحديق فى الظلام النظر بلا تورُّع إلى أشلاء الروح المعراة نَشْق نشوةٍ خريفية ثقيلة الوطء الركض فى مضمارٍ وعر غير مُعَبَّد المهاد خلف خيولٍ ثائرة الأعراف بلا لجام .

سقوطاً إذن فى مهاوى الوقائع دون ورع والتمرغ فى حمأة الأحداث وفواجع الصحف اليومية التى لا يبالى بها أحد .

كأننى بهذا الاعتراف أمام كاهنٍ غير مرئىّ ألتمس مغفرةً لا أحتاجها حقاً ولن تأتى على أيّ حال .

عمارة القلب الغاصّ بأشواق الهوى المضطربة تتهاوى أنقاضُها من غير صوت .

***

(١٠)

المحنـــــــة

كانت السيارة المرسيدس - بنزْ تشق الليل بقوة ، أزيز المحرك ثابت ومتصل وخافت مهدهد يغرى بالنوم . حسين (أو خوسين) السائق الأسمر الذى أتى من بنجلاديش إلى بلاد النفط واللبن العسل هذه ، راسخٌ فى جلسته إلى عجلة القيادة ، والرمال الفسيحة لا تنتهى ، تتتابع وتنبسط ثم تعلو كثبانها وتغور إلى جانبى الطريق الأسود العريض الناعم .

نور السيارة الأمامى الساطع وحده ينير الليل ، الصحراء - فى طنين المحرك واحتكاك العجلات بالأسفلت - تبدو فى إحساسى مجرد ديكور خارجى ، صورة سمعية بصرية تتذبذب على شاشة تليفزيون ، غير محسوسة ، غير حقيقية .

أين منها تلال أشعار العرب والنوُق والظباء وآكام التشبيب بهند وسعاد ، وشدّ الرحال والتفجع على أطلال "البيوت" ، آثار مضارب

الخيام المهدودة جرياً وراء الكلأ والغدق الهتون .

كم حلمت بها ..

عشت صباى بين كثبانها ومهادها ، تمثلتها وابتعثتها ورصدت لها روحى الفتيّة ، وأحببت البدوية التى أسميتها ، فى هوس الهوَى العذرى من جانبى وحدى ، ليلى الأخليلية ، مخزومة الأنف بحلقة ذهب غليظة ، لعلها هى كل مهرها ، محزومة الخصر بقماط عريض أحمر باهت على ملابس فضفاضة سوداء مزركشة بنقوش وتطريزات حمراء ، قديمة ، تدفع بعصاها قطيعاً صغيراً من الماعز إلى الشوارع الخاوية فى الصبح . الأغنام الهزيلة تلتقط ما فى الشوارع من ورق الشجر أو ورق الصحف سواء ، تخرج وهى تثغو وتتدأدأ من مضارب العرب الرثة وخيامهم المرتوقة بألف رُقعة ، المنصوبة فى الرمل المرتفع على تلّة هينة ، بين روث جمالهم وبعر معيزهم وروائحهم النفاذة فى تلك الساحة الرملية الحجرية الخالية ، وسط بيوت محرم بيه ، وراء شارع مروان ، من داخل شارع عرفان ، أخرّم منها فى طريقى للمدرسة العباسية الثانوية ، أول سنين الحرب ، أو قبلها بسنة .

وملء روحى قصيدُ أمرئ القيس وطَرَفَة بن العبد وأشعار عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة وكُثَيِّر عزة ، والبحترى والمعرى أيضاً ، وخيالات الفلوات والفيافى ، نيران القِرى ، دموع الخنساء ، عواء الذِئْبان ، وعبق الخزامى البرية وشقائق النعمان والريحان ، والخيل والضرب والطعان ، تقويض الحبال وشدّ الأطناب ، حتى إذا خرجت إلى شارع عرفان وغابت عنى هندُ ليلى دعْدُ سعاد تلفت القلب ، وحسٌّ الحضارة مجلوبٌ بتطرية

وفي البداوة حسٌ غير مجلوب ، ورائحة حيوانية وجسدانية فجة وخام .

أما هذه فصحراء عصرية فى آخر القرن العشرين ، من وراء زجاج المرسيدس محكم الإغلاق على وشيش التكييف ، حواشيه تهبّ عليّ بلذعة بردٍ اصطناعي خفيف ومنعش جداً .

ثم تقتحم السيارة تلك المدينة .

تدخل الشارع الرئيسي . يمتد الشارع طويلاً ، طويلاً ، لا وصول إلى آخره .

على جانبيْ الشارع بنايات عريضة من دور واحد أو دورين ، ثم عمارات شاهقة ، ناطحات للسحاب تذهب بعيداً فى السماء ، كلها منيرة ساطعة الأضواء ، وكلها خاوية .

ليس ثمّ إنسان . ولا أثر للحياة .

أسماء الأسواق والمحلات بالعربية والإنجليزية بالنيون المتراقص ألوانه الحمراء والزرقاء الزاهية تتتالى المولْ وراء المول ، سوبر ماركت ، محلاّت وصيدليات وسينمات ، ركام الساعات والكاميرات وآخر موديلات الڤيديو والتليفزيونات والراديوهات والمكانس الكهربية والشفاطات والشريات الضخمة من وراء الواجهات الزجاجية العريضة الساطعة ، ألواح البلّور السميكة تبرق تبدو من ورائها المراتب الاسفنج والمخدات البلاستيك والثلاجات الشاهقة وأحواض الغسيل السيراميك وأحواض الاستحمام الچاكوزي وسلطانيات المراحيض الملونة ومواعين الألمونيوم اللامعة والمواقد الكهربية وبالغاز والأفران الميكروويڤ للطهي الفوريّ ، السيارة تمرق فى الشارع الصامت الفارغ تتخايل فيه ، من واجهات

المحلات ، الكراسى المذهبّة والأرائك الأمريكية من آخر طراز والغسالات بفتحاتها الأفقية والرأسية وأجهزة الكىّ وأجهزة الفَرْم والعصر والتشطير والتقطير والتخمير وأجهزة التسمير والتمليط والرىّ بالتنقيط والتحوير والتبليط وإطارات الصور فضيةً وذهبية ومنقوشة ومنحوتة مفرغة ومعمورة وآلات ترشيح وتحلية الماء وخراطيم الرشّ المضلّعة قضبان غليظة متمكنة كلّه كلّه م الموانى ، من طوكيو إلى تابيه من أمستردام إلى سنغافورة ، من مارسيليا إلى كوالالمبور وكلّه كلّه عليه بطاقات المنبَع وماركات المصنع وتعليمات التشغيل وضمانات الأعطال .. ليس هناك في هذا الحشد الحاشد اللامع الأنيق فاكهانىّ واحد يوحّد الله من بني آدم ولا خضرىّ تستروح العين طزاجة بضاعته وتستأنس الروح بمساومته على السعر ويقول لك إنه يستفتح بك على الله ، الفواكه والخضر والسمك واللحم بدلاً من روائحها وملامسها العُضوانيّة كلها مرصوصة لا شك فى الثلاجات أو الخزانات الحديد أو البلاستيك ، وراء جدران المُولْ أو السوبر ماركت ، ملساء مصمتة ملفوفة فى البلاستيك أيضاً ، مغلّفة ، مطوية ، معلّبة ، سابقة التجهيز ، أصبحت تروساً فى آلة عملاقة عمياء .

السيارة ما زالت تذرع المدينة المفرغة من العَمَار لا تصل إلى نهاية هذا التيه المُهندَس المخطط من الشوارع الرئيسية والجانبية ، كلها ساطعة، ناصعة ، لامعة ، وكلها خاوية .

ليس ثَم إنسان .. ولا أثر للحياة .

مدينة من مدن النحاس فى ألف ليلة وليلة المعاصرة ، حيطان بيوتها

طوبة من بلاستيك وطوبة من ألمونيوم ، أبوابها مرصعة بعيون إليكترونية للتجسس والتبصص والتصنّت، وليس ثمّ من تقع عليه الأشعة المنبثقة عنها ، ولا ما وراء الأشعة.

مسحورة .

المردة الوافدون من خلف جزر واق الواق رصدوها للخواء ، أفرغوها من أهلها وبُعرانها ونوقها ، من غنمها وجواميسها ، من رجالها ونسوانها ، من صنّاعها وتجارها وكُتّابها ، من الحدادين والخياطين والعطارين والنجارين والسقائين ، من النسّاخين والإسكافية والصيادين والبياطرة والرخّامين والفحّامين ، من الزيّاتين والغنّامين والخراطين ، من الصاغة والمناديلية والميقاتية ، من الضاربين بالرق والدفّ والراقصين واللاعبين بالودع وبالبيضة والحجر ، ومن العاشقات والأمهات والراقصات والمرضعات وبائعات الهوى والأحلام والبصل الأخضر والكُرات ، من الجدات الحكّاءات والزوجات مُعمرات البيوت ، من الحوامل ومن العصافير والحدأ والعنادل .

دَحُوها ، مسّحوها ، مسّدوها ، وصقلوها .

خواء مشع بألوان النيون وذبذبات الإليكترونيات ، صارخة دون صوت، بدمدمة وغمغمة وهينمة خفيضة ومُنذرة .

أم أنه كانت هنا - فقط - خيام وبيوت من الحجر تأوى السمّاكين وصيادى اللؤلؤ ورعيان الغنم ، تقوم الآن فى موقعها مدن الألمونيوم والبلاستيك والإليكترون ، تهبّ عليها رياح البحر الهندى - أو المتوسط - أو الأحمر - لا يهمّ ..

نشرت مجلة "لى ميساچيه" الكاثوليكية فى غضون ١٩٨٧ أنه جاء فى تقرير أصدرته منظمة العمل الدولية بچنيف مؤخراً أن ما يزيد على مليار شخص، أى ربع سكان العالم، بلا مأوى، أو يعيشون فى أكواخ حقيرة.. منهم مائة مليون ليست لديهم مساكن على الإطلاق ينامون فى الشوارع فى مداخل المنازل أو تحت الجسور وفى الخرائب المهجورة، وحوالى عشرين مليوناً من الأطفال والمراهين يعيشون فى شوارع مدن أمريكا اللاتينية ، وحوالى ثمانين فى المائة من سكان المدن الأفريقية تكتظ بهم الأحياء الفقيرة.

وفى ٥ فبراير ١٩٨١ استنجد "عادل أحمد عبد الغفار" صارخاً فى "الأهرام" "نحن ٢٧ أسرة تفترش العراء بحى الشرابية الحكر الجديد بشارع الجامع أمام مصنع المكرونة منذ ٦ مايو ١٩٨٠ . قامت محافظة القاهرة بهدم المنازل التى نسكنها بحجة توسيع الشارع . الجميع يسدون الآذان عن شكوانا" .

حتى لو وجد "عادل أحمد عبد الغفار" من يسمعه ومن ينجده ، فهل فى ذلك ما يعوضه عن سنة أو أقل أو أكثر من التشرد هو و٢٧ أسرة ؟ وهل وجد ربع سكان العالم – على الأقل – نجدة ؟

فى قصاصة أخرى ، عثرت عليها بين ركام أوراقى من صحيفة لم أكتب اسمها ولا تاريخ صدورها أن المهندس محمد محمود من المدرسة الصناعية الثانوية فى ديروط ، كتب يقول: "سيدى هناك حسبة احترنا فيها.. كنتم تقولون إن إحدى فنانات الدرجة الثانية تكلفت ديكورات شقتها ٥٠ ألف جنيه ، منها ٢٠ ألف جنيه للمطبخ ، ونحن مجموعة من

الجامعيين جلسنا نتخيل كم ممكن أن يتكلف أحدث مطبخ فى العالم ووجدنا أنه لا يمكن أن يصل إلى جزء من هذا المبلغ .. لا بد أن هؤلاء الفنانين يأكلون ويشربون كما نقرأ فى روايات الأساطير ، فى صحافٍ من ذهبٍ وفضة" .

كان ذلك من زمان ، القصاصة عندى مصفرّة من القِدَم الآن الخمسون ألف جنيه الهزيلة أصبحت خمسين مليون ثمن شقة فنانة أخرى - من الدرجة الأولى بلا شك - عرفنا عنها من صحيفة "الدستور" فى ٢١ يونيو ١٩٩٦ ، حينما انضم عبد الغفار أبو زهرة إلى جوقة الصارخين فى البرية ، النافخين فى قربة مقطوعة، فكتب يقول عن صوابٍ أو جرياً وراء إشاعات ، الله أعلم : "ثمن شقة الفنانة ١٥ مليون دولار أى ما يوازى ٥٠ مليون جنيه مصرى (وإيه يعنى؟) ما رأيكم لو تمّ توزيع ثمن شقتها على الملايين المحتاجة ، كم سيسعَد الملايين فى هذه البلد . أقسم لك بالله العلىّ العظيم أننى صاحب عمل متواضع وبيتى وأولادى الثلاثة وعملى مهددون بالانهيار من أجل ١٥ ألف جنيه هى ديونٌ علىّ. وأنتم تقولون إن فلاناً وفلانة يسكنان فى شقة ثمنها ٥٠ مليون جنيه .. لماذا لا تأخذ الدولة من هؤلاء الضرائب الحقيقية دون تلاعب فى الإقرارات الضريبية وتعطى ملايين الشباب لكى يبدأوا حياتهم دون أن يتجهوا إلى السرقة والإرهاب" .

يبدو أن مجلة روز اليوسف ردّت على عبد الغفار أبو زهرة ، عن غير قصدٍ طبعاً - بعد سنة كاملة وأسبوع واحد : "الفنانة رفعت أجرها كراقصة فى الحفلات والأفراح إلى ١٢ ألف جنيه فى حفلات وسط

القاهرة ، وإلى ١٥ ألف جنيه فى الأماكن النائية على أطراف القاهرة . بعد أن كانت تتقاضى عشرة آلاف جنيه أياً كان مكان الحفل" .

الولد يقف على باب الأوتوبيس ، بلا مبالاة بالآلاف أو الملايين ، قدمه على الأرض وقدمه الأخرى على السلم ، فيهما صندل بلاستيك دخل سيرُه بين الإبهام وما يليها ، فى يده قفص خشبى مشبّك أصلى تفوح منه رائحة البيض أو الفراخ ، ليس من البلاستيك المسوّى المصقول بل من الخشب الحقيقى (ما أندر الأشياء "الحقيقية" ! وما معنى "حقيقى" على أى حال !) على رأسه طاقية اسكندرانى من طواقى الصيادين ، وضع ذراعه خلف رأسه واستند إلى الباب كأنه ينتظر دون لهفة ودون ملل أيضاً قيام الأتوبيس الذى لا يتحرك ، ولن يتحرك أبداً ، لأنه فى أول أيام العام ١٩٩٢ ، يا فتّاح يا عليم ، وتحت عنوان "المحنة" كتب زغلول محمد سعد ، مدرس مساعد بكلية الفنون الجميلة ، ١٤٥ شارع إمام إبراهيم بولاق الدكرور ، إلى "بريد الأهرام" العتيد ، يقول : "فى مساء الأحد ١٥ ديسمبر توجه أخى المحاسب حسين محمد سعد لشراء بعض الحاجات المنزلية من منطقة وسط البلد ، ولم يعد حتى منتصف الليل مما أثار قلقنا وخرجت للبحث عنه فى أقسام الشرطة والمستشفيات فلم أجد له أثراً وأبلغت النجدة فأخبرتنى بأن أخى غير موجود فى أى قسم ومرّت علينا أربعة أيام عصيبة دون أن نعلم شيئاً عن أخى حتى فقدنا الأمل فى عودته ولكم أن تتصوروا حالة أمه وإخوته الذين لم يتوقفوا عن البكاء .. وفى الثالثة بعد منتصف ليلة الجمعة فوجئنا بأخى يدخل علينا المنزل وهو فى حالة يرثى لها وبعد أن هدأنا

روعـه بدأ يحكي لنا ما حدث له فـقـال إنه فى أثناء عـبوره الطريق فى ميدان الإسعاف فـوجئ باثنين من المخبرين يطلبان منه بطاقتـه الشخصية وبمجرد أن أظهـرها لهـما ألقيا القبض عليه وقـاداه إلى إحدى سيارات الأجرة الميكروباس وبعد رُبع ساعة امتلأت السيارة بالعديد من الشباب وانطلقت بهم إلى قسم حدائق القبة وهناك تعرضوا لكل أنواع الإهانات وأخبرهم ضابط المباحث بأن هناك جريمة قتل وأنهم لن يغادروا القسم إلا بعد حل لغز هذه الجريمة والتوصل إلى القـاتل وعرض عليهم صورة لأحد المجرمين ولما لم يتعرف عليه أحد انهال عليهم المخبرون بالضرب بمنتهى القسوة ثم احتجزوهم فى غرفة بالقسم حتى يوم الأربعاء حيث نقلوهم فى الواحدة بعد منتصف الليل إلى قسم عابدين ومنه إلى قسم الأزبكيـة وفى صباح الخميس نقلوهم إلى مجمع المحاكم بالجلاء وأمرت النيـابة بإخلاء سبيلهم فأخذوهم مرة أخرى إلى قسم الأزبكية ومنه إلى قسم عابدين ثم مديرية أمن القاهرة ثم إلى قسم عابدين حيث أطلقوا سراحهم فى الثانية بعد منتصف الليل" .

فلماذا يجأر الوعّاظ بحسن نيه ربما وبأصوات عاليـة متشنجة ، بالعربيـة الفصحى القديمة ، من فوق المنابر بأن المعصية تودى بأصحابها وأن الطاعة لله ولأولى الأمر منكم معلومة من الدين بالضرورة ، ولماذا يدعون تحت القباب وعلى صليل الناقوس فى القداديس ، للمرضى أن يشفيهم والمساجين أن يخفف أسْرهم وللنيل أن يفيض ويزيد ويباركه الرب بينما "كثير من الضحايا يتساقطون يومياً فى مختلف الأماكن العامة كضحايا السيارات والأوتوبيسات والقطارات وحتى ضحايا المشاجرات .. وعندما تحضر سيارة الإسعاف تحمل المصابين فقط .. أما

الضحايا "الموتى" فترفض حملهم وتبقى الجثث ممددة فى الشوارع لمدة ساعات مغطاة بالورق والمناديل" ذلك سؤال أظنه بقى دون جواب .

فى ١٦ ديسمبر ١٩٩٦ سأل محمود المراغى "خلال العشرين عاماً الماضية تسلمت مصر أكثر من ستين ملياراً من الدولارات أى نحو ٢٠٠ ألف مليون جنيه بالأسعار الحالية للعملة ، فأين تمّ إنفاقها ؟ وقبل ذلك وبعده فهى الأموال التى لا تخضع على ما أظن لرقابةٍ كافية وقد ظل الجهد عدة سنوات لمجرد ضبط الرقم فى البنك المركزى كم أخذنا ؟ ولمن ندين ؟" .

لست أعرف الإجابة ، فهل من يعرف ؟

"إننا نسمع عن ثروة نائب مجلس الشعب المتهم بالاتجار فى المخدرات والتى تقدر بنحو ثلاثمائة مليون جنيه ، ونسمع أن ثروة النائب الذى نجح بالتزوير تقدر هى الأخرى برقم مماثل إلى جانب كشوف البركة التى تتضارب بشأنها الوقائع وتختلط فيها الحقائق بالشائعات" .

ألا تحفزنا تباريح الوقائع إلى الجنون ؟

السيارة التشايكا الفخمة تشق ريف ضواحى موسكو ، بقوة ، أزيز المحرك ثابت ومتصل مهدهد يغرى بالنوم ، فقد كنا شبعنا من الأكل الفخم والخطب الفخمة والشرب الفخم التى عنيت لجنة التضامن السوفيتية (والحزب طبعاً) بأن تزودنا بها جميعاً . خرجنا فى جماعات صغيرة راضية من المطعم الدفىء فى وسط الغياض المحيطة بقصر أركنجل ، كنا قد طفنا بقاعات القصر وأبهائه وتملينا بالنظر إلى تحفه ولوحاته ، خلعنا الأحذية ولبسنا أخفافاً من اللباد الناعم حرصاً على الباركيه الفخم .

يومها رأيت الأرشيدوق الامبراطورى ميخائيل ميخائيلوفتش رومانوف الذى مات من مائتى عام ، رأىَ العين ، وتحدثت معه وجهاً لوجه . رأيته .

ثم تجولنا فى حدائق القصر الجميلة المعتنى بها ، وأخذنا الصور التذكارية المعتادة ، ونحن نرتدى المعاطف الثقيلة والكوفيات أو التلافيح والإيشاربات والقبعات والشابكات الفرو ، كلها تكوّمت الآن فى السيارة على الأرضية وعلى المقاعد وعلى حجورنا ، بينما الأمين العام ، ما زال وسيماً فى كهولته الفخمة ، يصغى باستمتاع وما يوحى بنوع من الحنوّ الرجولى الشبقى إلى صوت سلوى الملىء بالأنثوية والدلال والمقدرة .

الأقراط والعقود والسلاسل التى تستبيحها سلوى لنفسها دائماً ، تصلصل بجانب وجنتيها وعلى جيدها الذى يبين دسماً من فتحة الزرار العلوى المفكوك وعلى صدرها الوفير المحبوك ، فى الحيّز المزدحم بنا فى السيارة ، وقد أصرّ الأمين العام بسماحته ودماثته المعهودة على أن نعود معه فى السيارة السوداء الفخمة التى لا يركبها عادة إلا كبار أعضاء الحكومة أو الحزب أو كبار الزوار ، وترك بقية المندوبين والمرافقين يركبون الباص ، وفى التشايكا مقاعد صغيرة تُطوى وتنبسط أمام المقعد الرئيسى الكبير ، رائحة الجلد ونفحات تَزاحُمنا الحميم تلفحنا ، وعلى أحد المقاعد الصغيرة كانت سلوى قد احتشد الحيّز المُتاح بها وبصوتها العذب المِغْناج إلى حدٍ ما .

كنت أحس قطرات العرق الخفيفة تتفصد على وجهى وتحت إبطى فى

الدفء والزحمة ، بينما أغصان أشجار الصنوبر والدردار والبتولا مثقلة بالثلج الأبيض البكر ، أراه من نوافذ التشايكا شديدة التدفئة المغبشة قليلاً من بخار أنفاسنا ، ومحرك السيارة يئز فى طنين هادئ رتيب ، يساورنى بإغفاءة مخطوفة لحظات على ترجيع الصوت الرخيم .

يا ليلُ ، الصَبُّ متى غده

أقيام الساعة موعده ..

يا ليلُ ، الصَبُّ متى موعده ؟

متى ؟ متى ؟ متى ؟

أوشك الكيل أن يطفح ، بل طفح وانتهى الأمر ، متى الخلاص من التردى ، من الفساد ، من نهب البلد وانتهاكها ؟ متى ؟

ها نحن .. هذا أنا أغصّ وأشهق وأنوح وأصرخ .

وتبّاً - كما كان يقال فى ترجمات عمر أمين عبد العزيز لروايات الجيب قديماً - تبّاً لمواضعات الفنّ القصصى والروائى السليم : الهمس والإيحاء والإيماء والإشارات المرهفة والتلميحات والرموز ودعوى أن الدماء الخفية التى لا تُرى السارية تحت الجلد هى أمارة السلامة ، أما التى تطفح على الجلد فهى علامة العطب والجرح . فقد أثخنتنا الجراح ودماؤنا تنزف .

أهذا انقلاب على عقيدتى الفنية طول العمر ؟ أم هو سباحة على الرغم منى فى بحرٍ طامٍ من تباريح الوقائع وشطط الجنون ؟

لم لا ؟ وقد ظلت تساورنى منذ الصباح الباكر ، ومن الصبا الباكر ، وما زالت تراودنى بقوة ، نزعاتٌ مفاجئة أكاد لا أغلبها أن أنحرف أمام

سيارة فارهة مسرعة لا تلوى على شىء، أحس جسمى ينحرف - وحده - كأنه يهمّ بها ، أقاومه ولما أكَدْ . وأنا أرى جسمى ينقذف إلى فوق يطيـر من وقع الصـدمـة ، وتتطاير الأطراف فى الهـواء ، ثم يرتطم بالشارع ، تنشرخ الجمجمة ، الأشلاء مهروسة تحت العجلات . فى الأدوار العالية يدور رأسى إذ أرى هذا الجسم يتطوح ويتدهور ويصطدم بالأرض القاسية شديدة الصلابة . فى محطات السكة الحديد أبتعد عن الرصيف وعن غواية القضبان التى تدعونى إليها بنعومة وإلحاح ، إذ يهدر القطار بكل شموخ صدره وهو ينفث البخار الأبيض الكثيف ، أو يهرّ هرير الأسد الكهربىّ المكبّل هذه الأيام .

لِمَ لا ؟

الفن القصصى ؟ طُظّ !

هأنذا أكشف - دون اهتمام - رقبتى لسكاكين النقاد من كل صنف، أضع رأسى على الطبق أمام تلمظ أصحاب النظريات والتنميطات .

طُظّ !

***

(١١)

رقصة الشيتا مُشرئبة العنق

عندما نزلنا بمطار أكرا كان الليل الأفريقى قد حلّ .

أم هل كان ذلك فى داكار ؟

نزل الركاب القلائل على مدرج الطيران العريض المسفلت ثم مشينا على أقدامنا نحو مبنى المطار ..

ساحة المطار مفتوحة تحت القمر المدوّر الواسع ، محمرّ اللون قليلاً ، يصعد بسرعة من الأفق . رائحة الأرض المحترقة الكثيفة تملأ السماء . لم يكن ثمّ أنوار ساطعة ولا واجهات زجاجية ولا جدران صمّاء شمّاء ، بل براح غامض فسيح يوحى بأنها قريبة : الأحراش الحوشية الملتفة على بعضها بعضاً فى تقاربٍ حميم وعدوانىّ من غِيلة الغابة ، فهل كنت أرى فى النور الشحيح من مصابيح المطار الواهنة لون الأرض الحمراء الداكنة، أم كان ذلك من وهمى ، أو لعله من لعب الذاكرة بى .

أقبَل إلينا وفد "حزب مؤتمر الشعب" فى غانا ، يحمل إلينا ترحيب الحزب وقائده الأوسافيجو المخلص كوامى نكروما .

كنت أنا ومرسى وبهاء فقط ، طليعة المؤتمر الرابع لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية الذى عرفناه فيما بعد بمؤتمر وينيبا . كانت الحرارة ، فى مايو من ذلك العام الغابر ١٩٦٥ ، ثقيلة الوطء ، وفى دقائق أقلتنا السيارة الإنجليزية السوداء الفخمة إلى فندق امباسادور فى العاصمة . سوف تأتى جوازات السفر والإقرارات الجمركية ، مختومة مصدقاً عليها ، فيما بعد .

أزيز محرك السيارة الذى لا مفرّ منه يصحبنا فى رحلة الليل القصيرة الغامضة ، ترافقُنا على جانبى الطريق أحراش الغابة كأنها تتربص بنا وتغُول ، تسقط عليها أنوار كشافات السيارة الأمامية ، تنتهكها وتختفى . سوف أقطع هذا الطريق بعد ذلك مراتٍ عديدة من أكرا إلى البلدة الصغيرة وينيبا التى سيعقد المؤتمر فى "المدرسة الأيديولوجية" للكوادر الحزبية فيها . مُنح الأساتذة والطلبة إجازة خاصة ، وجُندّ معظمهم ، صبياناً وبنات ، لمرافقة وفود المؤتمر وخدمتهم .

صدمتنى أضواء الفندق ، وفخامته الفلاّحى التى عفا عليها الزمن قليلاً ، ومع تقدم الليل جفانى النوم تماماً ، ذهنى يدور ، كمحرك سيارة فى عنفوان حركته ، حول مشكلات المؤتمر ومهامّه الوشيكة .

بعد الدوش الذى نزلت مياهه علىّ ساخنة جاهزة لا تبترد ، أويت إلى الفراش ، ولكن صعدت إلى غرفتى ، بلا رحمة ، من الملهى الليلى فى الدور تحت الأرضى ، أصوات موسيقى الچاز صاخبة ، متلاحقة الضرب

والخبط والقعقعة ، نواح النحاس الأجش ، وسرسعة الكمان وغناء نسوى ثاقب مترام .

ضقت ذرعاً بالأرق والضجيج ، فقررت أن أنزل، بعد منتصف الليل، آخذُ كأساً لعله يُعيننى على النوم الذى كنت فى أمسّ الحاجة إليه .

(معذرة عن أكليشيهات الكلام)

الراقصات الغانيّات في چوبات ضيقة جداً وقصيرة جداً على الأجسام الفتية المتفجرة الداكنة تتلوى بعفوية وانطلاق كأنما هى التى تصدر عنها الموسيقى ، هذه الأجسام هى التى تحرك الموسيقى ترتفع بها وتخبو ، وليس العكس ، الموسيقى تنبعث فعلاً من هذه الأجساد المرنة اللدنة تدور وتندفع وتنكص وتنحنى وتثب ، وليس من الأوركسترا الصغير في آخر القاعة .

ومهما كانت الوجوه السوداء اللامعة الوسيمة أو جافية العِظام ، مخضوبة الوجنات وقحة العيون مضرجة الشفاه بالروج الفاقع ، وجدائل الشعر الأجعد مخصوفة أو منفوشة ، مضفورة أو منشورة ، فإنها تظل حميمة القربى من الغابة الأصلية ، إن كانت ترقص الآن تحت الأنوار الكهربية الملونة المتقلبة فإنها تظل عارية ، مدهونة فقط بزيت النخيل ، تمارس طقوس العبادة الجسدانيّة تحت القمر البكر العنيف .

أو هكذا تصورت ، فى سذاجتى التى لا بُرء منها .

كان مرسى ، بجسمه المدكوك القصير ووجهه المربّع الباسم المندّى بالعرق وشعره الأكرت القصير يرقص مع غانية رشيقة أطول منه ، ببدلته الكاملة والكرافتة والقميص ناصع البياض ، ومع أن حركته بارعة

ومضبوطة كانت زميلته ، بليونة جسدها وتلقائية موسيقاه ، تجعله يبدو كأنه دمية محكومة بآلية محسوبة مبرمجة الوقفات والسكنات .

فرغت من كأسى ولم أجد فى نفسى أدنى رغبة فى النوم .

خرجت إلى الشارع الصامت الهادئ .

على بعد خطوات انفسح أمامى ميدان السوق النائم ، تحت أنواره الكهربية الخافتة لأنها عالية على عواميد رفيعة متباعدة ، نور القمر الذى اكتمل سطوعه الآن ينصبّ فى قلب الليل .

كانت فى ساحة السوق نيران صغيرة متناثرة ، تنطفئ ببطء فى كوانين من الطوب أو الحجر مثل التى كانت عندنا فى الفلاحين ، وفى مواقد تفحّ بضعف تستمد غازها من اسطوانات صغيرة ، ما زالت عليها طاسات طهى أكل السوق ، لمحت فيها نفايات عظام شواء ، وبقايا عجينة الموز المقلى بزيت النخل نفاذ الرائحة ، سوف تلاحقنا هذه الرائحة طول المؤتمر ، ونتف لزجة من عجائن طعام غامض القوام واللون لاصقة بأطراف الطاسة .

الرائحة فى سكون هواء الليل فيها حرافة حادة رازحة ، فيها عبق ياسمين أو مانوليا أفريقية فيما خيل لى ، قوى مع زهمة عضوية كأنها من مخلفات حيوانية .

كانت سيدات السوق هن ملكات هذا الليل .

بدينات جداً ، جالسات على أردافهن الهائلة ، معتمرات بعمامات ضخمة عالية متعددة الطبقات ، ملتحفات بأردية سابغة لامعة منقوشة بزخرفات تبدو فى الأنوار الخافتة المخايلة كأنها تحمل طلاسم أو شفرات

لا تُفض ، ملتفات بهذه الأوشحة حول البطون المقببّة المكينة ، والسيقان الربلة المطوية تحت أعجازهن ، وأمامهن عشرات من الأطباق الصغيرة ، بلاستيك أو فخار أو ألمونيوم أو قرع عسليّ مجفّف ، بها سوائل كثيفة القوام وعجائن تبدو مخضرة أو قاتمة ، ومقاطف ومغالق وسلال من الخوص الطريّ أو الصلب ملؤها حبوب جافة وبقول وبهارات نفاذة الفَوْح تعرفت منها حبوب الكولا والحبهان والمستكة والقرنفل ولم أتعرف غيرها كثير ، وبعضهن قد فرغن من شغل اليوم ، مستلقيات محتضنات رضيعاً أو صغاراً يأوين الآن إلى وثارة طيات حنانٍ أوليّ ، مستغرقين في غيبوبة نوم مستريح ، على حصير دقيق الضفائر متلاصق الخيوط ، أو على أبسطة ملونة نصلت زهوتها من زمان ، ما زالت عيونهن النجلاء مفتوحة ، بتسليم وصمت ، على الليل وعلى ما يخايل فيه بأنه مجهول ومخوف وغير مسمّى .

فى السوق ، بعد نصف الليل ، سكون يوحى بانحسار مؤقت لعاصفة البيع والشراء والفصال والخناق والمصالحات والضحكات والمعاكسات والصفقات التى تموجت وتقلبت وتناوب مدّها وجزرها طول النهار وردحاً من الليل .

كانت سيارات الشرطة الجيب واقفة على أطراف السوق خالية من عساكرها .

عدت إلى غرفتى فى الامباسادور ثقيل الخطى ولكن خفيف القلب بشكلٍ ما ، ومليئ الروح ، ونمت على الفور .

سافرت إلى وينيبا فى الصباح الباكر لكى أبدأ الإعداد الفنى

للمؤتمر، وبقى مرسى وبهاء ليكونا فى استقبال الأمين العام والسكرتاريين والوفود .

وكان علىّ أن أعود إلى أكرا عدة مرات لاستكمال الإعداد .

قطعت الطريق بين وينيبا وأكرا فى ليل الغابات الموحش الغاص بالتهديد والفزع عدة مرات ، أربعين ميلاً فى الذهاب ومثلها طبعاً فى العودة ، كل مرة . وكان سائقو السيارة الأفارقة يذرعون هذا الشوط بسرعة خارقة كأنهم يفرون من حضور الغابة الرازح المحتشد بالأرواح والقوى غير الأرضية ، على جانبى الطريق ، تفاجئهم أحياناً بيوت النمل الأفريقى مبنية من الرمل والهشيم على حافة الغابة قريبة جداً من عرض الطريق تقوم كالأبراج العالية ، فجأة ، بين عشية وضحاها .

فى أحد هذه الأشواط انقلبت السيارة برئيس الوفد اللبنانى ، شكيب جابر ، ومات . كنت قد عرفته فى مؤتمر موشى ، طويلاً دمثاً قائم العود ذكى الملامح ملؤه حماسة القلب بقضايا العروبة والاشتراكية . فى اليوم التالى مباشرة انقلبت سيارة أخرى برئيس وفد سيراليون ، ج . ت . أ . دالاس – چونسون ، على الطريق نفسه ، ولقى مصرعه ، لكننى لا أذكر منه إلا وجهاً مدوراً مبتسماً داكن السواد يتحدث بلكنة بريطانية فصحى، أم هل تلعب بى الذاكرة مرة أخرى ؟

أما زلت أحيا مع الموتى ؟

أطيافهم الآن أقوى حضوراً منهم أحياءً .

فى القاهرة ألقت المباحث القبض على عصابة مكونة من مسعود زكى حسين وحمودة محمد عبد السميع وشقيقه جمعة ، تخصصت فى نبش

القبور ، في منطقة منشاة ناصر ، وسرقة الجثث المدفونة وبيعها للدارسين في كليات الطب ، عُثر في حوزتهم على كيس ممتلئ بعظام الموتى وكرتونتين بداخلهما ٩ جماجم آدمية ، واعترفوا بأنهم كانوا يبيعون الجمجمة بمبلغ خمسمائة جنيه وكل قطعة أخرى بخمسين جنيهاً .

ومع امتهان الموتى في هذا الزمن الذى يستمر فيه ويستشرى امتهان الأحياء ، وتُمتهن فيه هوية البلد وتراثها الذى لعله لم يبق لها غيره ، يكتب لنا مختار السويفى أن من التخريف البشع كتاب - أيْ والله كتاب - يدعى فيه مؤلفه المصرى - تصوّرْ - أن قوم عاد هم الذين بنوا الهرم .. استناداً إلى أن أحجاره الضخمة يصل وزن الحجر الواحد منها إلى عدة أطنان ويستعصى حملها أو رفعها على مقدرة البشر العاديين . أما قوم عاد فقد كان طول الواحد منهم يتراوح ما بين ١٥ و ٢٠ متراً وقيل ٤٩ متراً . وكان الرجل منهم يتمتع بقوة ألف رجل .. وأن معابد الكرنك والأقصر ودندره وإدفو وكوم امبو وغيرها من المعابد الضخمة هى بيوت كان يسكنها قوم عاد ، ثم جاء الفراعنة فنقشوا عليها نقوشهم وكتبوا عليها أسماءهم ، فالفراعنة عنده لصوص وهم أكفر وأفجر وأطغى خلق الله ، كررها ثلاثين مرة فى كتابٍ من ثمانين صفحة، وقال أيضاً إن التماثيل الضخمة التى يدعيها الفراعنة لأنفسهم والتى يصل ارتفاعها إلى عشرين متراً أو أكثر هى لأفراد من قوم عاد سَخَطهم الله وهم جالسون أو واقفون فى أماكنهم ، وأن العلماء والمؤرخين الأجانب يعلمون أن قوم عاد هم الذين بنوا الأهرام وأبا الهول والمعابد والمسلات .

يروى التربى جاد الله ، ناشف الوجه ، غائر العينين ، يلّف رأسه

وعنقه بتلفيحة ضخمة متعددة الطوايا ، أن "حوش الشيخ إبراهيم النجعاوى أحد علماء الأزهر الشريف بُنى عام ١٩٣٥ ... وفيه ٦ مقابر مكونة من عينٍ للرجال وأخرى للسيدات" . فى صباح ٢٩ ديسمبر ١٩٩٦ ، وفى الساعة التاسعة صباحاً أرسلت ابنتى لرى الزراعات داخل الحوش كالعادة ، ففوجئت بأن المقابر مفتوحة .. على الفور أبلغت أصحاب المقبرة. ونزلت فى حضورهم واكتشفت أن اللصوص نهبوا عظام ٢٣ جثة من ثلاث مقابر خاصة بالسيدات فقط ولم يقربوا من مقابر الرجال .

أما الدكتور عبد الإله النجعاوى الأستاذ المساعد بمعهد بحوث المناجم والمحاجر ، بسمته الرصين ، النظارات الطبية ، والبدلة الكاملة ، وبداية الصلع ، وهو من أصحاب الحوش المنهوب فيقول إن جده كان شيخ مشايخ رواق الصعايدة بالأزهر الشريف ، وإن "الشرطة لم تتوصل إلى الجناة الذين انتهكوا قدسية المقابر وحرمة الموتى ونهبوا عظام والدتى وشقيقتى وعمتى وبقية نساء العائلة .. هناك سر غامض فى هذه الجريمة، كيف تسرق عظام وجماجم الموتى لصحنها وخلطها بالهيروين وبيعها للمدمنين .." .

فى الحوش الكبير وراد الباب المشبّك بأعمدة حديدية طويلة وقوية، ترك الواغلون حصيرة قديمة كانوا ينامون عليها ، ربما ، فى أثناء قيامهم بمهمتهم المروعة ، وآثار شموعٍ كانوا يعملون فى ضوئها المهتز الخافت وهم ينزلون من فتحة المقبرة إلى جوفها يستخرجون منها الجماجم والعظام الجافة.

لم يكن ذلك كله جديداً تماماً ، قُبض فى الأربعينيات على عطّار وامرأته وفى حوزتهما كميات كبيرة من الهيروين المخلوط بمسحوق جماجم الموتى، وعُثر على سلة بها ستّ جماجم بشرية ، فثم تشابه تام بين لونى الهيروين والجماجم البشرية القديمة ذات اللون البنى الفاتح ، تُطحن الجماجم فى خلاطات خاصة وتمتزج بالهيروين بنسبة ٢ كيلو مسحوق جماجم إلى كيلو جرام واحد هيروين خام . فهذه تجارة عظيمة الربح .

فى الأربعينيات أيضاً ، فى كازينو دوفيل وفى سكارابيه على شاطئ ستانلى ، وفى الستينيات ، فى كازينو المعمورة ، رأيت ديونيزيوس ، هل جاء من أكرا ، أم من أثينا ؟ وشهدته يرقص الهالى بالى والتويست مع البنات ، وكانت السماء الاسكندرانية فسيحة فوق أشجار النخيل والسنط التى تهتز أغصانها مع صرخات الترومبيطة ونواح التشيللو وسرسعة الفيولينة وخبطات الطبل وصفقات الصنوج النحاس ، تحفزنى كلها ، مع نبض السكوتش فى دمائى ، إلى التطوح بإيقاع محكوم مع أوديت ، ثم ينفلت الإيقاع - والعيار - مع ضربات جنون الموسيقى ، نفحات البحر تأتينا من وراء أبراج السكارابيه ووشيش عجلات السيارات القليلة على أسفلت الكورنيش المبلول ، من وراء السوبر ماركت ومطعم ماكسيم ومبنى التليفون ، وسور البوص وسعف النخل الجاف ، وجاء السبع الأسود تهتز لبدته الشقراء كثيفة الشعر على رقبته المكينة ، رفع ذيله الطويل فاصطدم بقدمى العنز . اهتز جذع پان البشرى على الحافرين المشقوقين ووثب على السبع فورك عليه وامتطى صهوته وهبط السبع قليلاً ليُمَكّنه من اعتلاء ظهره العريض .

الرؤوس تتدحرج تحت أقدام الراقصات ، والأعين المفتوحة على ذعر النهايات تجف مع عصف الموسيقى تزول المؤق والحدقات وتبقى محاجر العيون عميقة مظلمة فى جماجم صحراوية مكسورة .

تَضَرُّع الموسيقى إلى السماء المفتوحة لا أعرف هل يستجاب أم يستنكر تلويات أجساد البنات فى الچوبات القصيرة بين الساقين تكشف الأفخاذ السمراء تسقط عليها أضواء الحبال المغروزة بالمصابيح الكهربية المدورة الملونة معلقةً بين جذوع النخل تتذبذب الأنوار المتقلبة على حراشيف النخل الخشنة تنانين نباتية قائمة ينوس سَعَفُها باستجداء رحمةٍ لن تأتى وأوديت تلين وتتهاوى بين ذراعىّ عندما تحس توترى الصلب ملتصقاً بها تقول بصوت خافت "أنت تعرف كيف ترقص" .

ولأن المياه كانت مقطوعة عن المدرسة الأيديولوجية وعن المؤتمر كنا أحياناً نخطف نصف ساعة فى الصباح المبكر ونندبّ من غير ملابس فى مياه المحيط التى ترتمى على صخور وينيبا ، نختار فجوات يهدأ الماء فيها ، بين جزر صخرية مدببة يتموج البحر فيها بالرغوة والغضب ، وبين اتساعات ضحلة من مستنقعات ملحية عطنة قليلاً .

بعد يومين أتى لنا المرافقون والمرافقات من طلبة المدرسة ، بجرادل ماء حلو ، واخترعنا - أو أعدنا اختراع - الدوش التقليدى بأن نعلق الجردل بين قائمتين علويتين ونربطه بحبل نجذبه فيندلق الماء بحساب ، أو يطسّنا بقوة فنشهق من الصدمة ، حسب شدة الجذب .

وبذلك أمكننا أن ننصب عدة الشغل وعتاده ، من آلات كاتبة وطابعات استنسل ، وخزانات لحفظ الأوراق والوثائق والملفات ، وفردنا

مناضد العمل واستلقطنا الكراسى من غرف الإدارة ، وجهزنا ثلاث قاعات متجاورة للترجمة ثم للآلة الكاتبة ثم للطباعة بالاستنسل ، وبينها بهو كبير اتخذت فيه قاعدة أركان الحرب ، ومعى عديلة وهناء للتوثيق والتسجيل ، أما توزيع الوثائق على المندوبين والمراقبين والصحفيين فكان فى غرفة ضيقة لها نافذة تطل على فناء المدرسة ، وأمامها من الناحية الأخرى ، مبنى أفريقيا التى تشغل قاعة الاجتماعات الكبيرة الطابق الأرضى منه .

ودارت - كما يقال - عجلة العمل المأثورة .

وفى لحظة انقطع كل شىء .

فى قلب السكون المتوتر الرازح ، والحرارة الثقيلة ، كانت الأشجار وحشية الخضرة تسقط من غصونها قطرات المطر المليئة ، صامتة ، بلا حفيف ، لا حراك بها ، كأنما تنتظر شيئاً لا قِبَلَ لأحد به ، الهواء راكد تحتبس فيه الأنفاس .

أقبلت من ناحية المحيط سحابة داكنة صغيرة ، ازدادت سرعتها واشتدت حلكتها وهى تتسع وتنبسط لها أجنحة قاتمة عريضة ، اختفت زرقة السماء ، الهواء يفح فحيحاً مكتوماً يعلو ويحتد فإذا هو صفير ثاقب ، الأشجار تتطوح تحت العصف المفاجئ للريح التى أصابتها جِنة من دوامات تصدر عنها أصوات كالعواء ، اسودت السماء تماماً وأخذت تزمجر ، هزيمها المحتشد يطبق على الأفق من كل ناحية ، يحيط بمبنى أفريقيا ويرتطم بجدران المدرسة ونحن نجرى نغلق الأبواب وزجاج النوافذ ونحن نقاوم هجمة الرياح ، ونضىء الأنوار الكهربائية فى العتمة النازلة

علينا وسط النهار بينما زئير العاصفة يحاصرنا ويهددنا ويضرب قلوبنا كأن سباع الغابة جميعاً تنقضّ علينا من السماء ، أو من حيث لا نحتسب على أى حال ، والمطر ينهمر يدق النوافذ والجدران بخبْطٍ متسارع ثم بسيول متصلة متدفقة تقذف به الريح يميناً ويساراً فتتلاطم خيوط المطر الكثيفة .

سقطت صوارى الأعلام القائمة فوق مبنى أفريقيا وانحنت جذوع الأشجار واندفعت أغصانها ملتفة بعضها ببعض إلى ناحية ثم إلى الناحية الأخرى .

وفى لحظة انقطع كل شيء مرة أخرى .

انقشعت السحابة السوداء . سكنت العاصفة كأن لم تكن قط .

عاد كل شيء ساخناً ينفث أنفاساً مبللة تثقل الصدور من جديد . الفتيان الغانيّون طلبة المدرسة الأيديولوجية كلهم فى زيٍ موحد : القميص الأبيض نصف كم والبنطلون الأسود المستورد من الصين الشعبية، تلمع عيونهم السوداء ناصعة بياض المُقل ، ذكية لماحة ، لم تُطفئ الأيديولوجيا بعد حيويتهم ومَرَاعة صباهم ، الفتيات يرحن ويجئن فى قاعة المؤتمر وغرف المندوبين ومعنا فى السكرتارية الفنية لاكتساب الدربة على الاجتماعات الدولية ، لا شك ، أثوابهن السابغة الملفوفة ضيقة عند الأرداف منسدلة بعدها عند الساقين بفتحة طويلة ، عاريات الأكتاف اللامعة بنعومة التمسيد منذ الطفولة بزيت النخيل الذى تلاحقنا رائحته النفاذة فى كل مكان ، فى المطعم المدرسى بموائده الخشبية وأمامها دكك من غير ظَهْر ، وفى قاعة الاجتماعات ، وحيثما دخلت

علينا فتاة أو فتى يمسح شعره الجعد بالزيت ، فى غرف الإقامة أو العمل أو فى المطعم المدرسى على صــوت أفــران الطهى واصطدام المواعين والملاعق أو المغارف المعدنية ، حركة الفتيان والفتيات يخدمون أعضاء المؤتمر فى المطعم السخن تلف فى سقفه مراوح ضخمة تزيد من هبوب الحرّ وفوح رائحة الزيت ، يذهبون ويأتون بخفة ومرح وهم يضحكون ، ولكن من غير كبير كفاءة ، لا بأس ، هُبر اللحم تُهبد أمامنا فى الأطباق البلاستيك وأعواد خضر السلاطة ضخمة تسد النِفْس ، الوجبة إذ تتكرر يوماً بعد يوم ظهراً ومساءً عافتها النفوس ، فلجأنا إلى خزيننا من الجبنة الرومى وعلب التونة والحلاوة الطحينية التى جلبناها معنا من القاهرة احتياطاً للطوارئ ، نفعت !

عندما خرجت من المطعم ، كأننى ألجو بنفسى ، واجهتنى العظاية الهائلة، كما تواجهنى كل يوم ، ظهراً ، بعد الغداء .

تنتظرنى فى الحديقة الأمامية ، تنظر إلىّ بعينيها الجاحظتين البراقتين تدوران فى كل اتجاه وتتوقفان علىّ ، تشب على قدميها الخلفيتين المفرطحتين ، ذيلها الطويل بحراشيفه المدورة على الأرض ، مشرئبة العنق ، كأنما تترصدنى ، أنا وحدى ، لسببٍ لا أعرفه ، ولعلنى كنت أحدس أنه إثم ما ، لا .. لست أنا .. لست مسئولاً عن القتل ، لست مسئولاً عن الموتى .

أم أننى - فى النهاية - لا مَهْرب لى ..

ما أبعدها - هذه العظاية المنتقمة - من قريبتها الوديعة ، السحلية الصغيرة الخوافة ، تجرى من أمامى فى غيط العنب أو الطرانة .

أما هذا الديناصـور المُقزّم ، فى وينيـبا ، فيـوشك أن ينقض ، بين الأزهار اليانعة الضخمة فاقعة الألوان ، متفتحة بشراسة ، فى الحديقة المسورة .

الأمـازونة فى خوذتها النحاسيـة قامت أمامى فى حديقـة المدرسة الأيديولوجيـة ، تمسك بالرمح الطويل ترفعـه فوق رأسـهـا ، كأنما تلعب بالشومة فى ساحة التحطيب عند مسارح حوريس على إيقاع العازفات بالهارب والعود فى أخميم ، قميـصها يحبك جسدها ويلتف يدور بين ساقيها ، يميس وشاحها من على الكتفين وراء الظهر المنسرح ، ترقص بالكعب العالى على خضرةٍ مراع بين قطع شطرنج ضخمة ارتفاعها نصف متر أو أكثر ، وجذوع النخل تحيط بها ، سامقة ، لا يعتورها سأم .

أتت أنثى الشيتا التى أحبها تشم رأسى المجزوز المرمى منذ أحقاب على رقعة الرمل بين الزهور الوحشية ، وقد اسودّ وجفت عظامه من زمان ولكنه ما زال ينزف ، ودائرة القمر البيضاء حادة الحواف تصب علينا ضوءها البارد القاسى ، وهى ترقص حول الرأس المقطوع رقصة ثملٍ وجذلٍ ترتشف دماءً ما زالت طرية بعد كل دهور الفراعين واليونان والقبط والعرب وأهل الغرب من الإنجليز والأمريكان .

العـود أيضـاً ملقىً على الأرض ، بجانب الرأس المقطوع مفتـوح العينين ، أوتاره ما زالت قوية وسليمة ولكن الأصابع المتمرسة لم تعد تمسها بحساسية المستهام بالصَبَا والنهاوند أنا هويته وانتهيت .. هل انتهيت من هذا الهوى وهل انتهى منه أبداً ؟

تندفع الشيتا راقصة على شاطئ وينيبا وتثب على صخور المكس

ترتطم بجسد پان نصف الحيواني نصف الإلهي وتعود خاطفة السرعة كالبرق كأنما سوف تلتقط الرأس المقطوع ثم تنكص عنه وتعود ، تهب في رقصتها مشرئبة العنق انفتح فمها المشقوق عن أنياب أكالة طويلة حادة رفعت ساقيها الأماميتين في الهواء الرطب المندى بغبش فجر البحر وامتدت ساقاها الخلفيتان مشدودتين إلى آخر عضلة مستندتين إلى الرمل تحفران فيه تحت مخالبها المسننة بين موائد الملهى الليلى سكاربيه امباسادور كازينو المعمورة قام عنها أصحابها منذ لاحت تباشير الشفق المخضّب بدم السماء ديونيزيوس ما زال ممسكاً بصولجان مجده ، مستقراً وراسخاً الآن ، عريدته قد استنفدت كل عرامتها ، عارياً من كل عنفوان، فجّ ساقيه وركب الشيتا المنقّطة الجسد رأسها كأنه رأس أفعى ضخمة ، تندفع تحته إلى كثبان سيدى بشر والمندرة المكسوة بغابات النخيل الهادئة ، تتدلى من أعناق النخل سباطات البلح المحمرّ الناضج، هبتّ الشيتا لتوّها من أمام فندق ڤيكتوريا تحت ثلوج كاليمانچارو بعد أن جاست بحرص وصمت وبطء على هضبتها المسطحة ثم غابت في غيلة غاباتها المخوفة التى تقطع السبيل أمام أى واغلٍ في محانى الجبل ومهاويه ومكاسره ثم وقفت مشرئبة العنق على غصن شجرة ضخم مستدير مقطوع تتشمّم الأفق المطير . ذراع مبتورة مرفوعة للعناق بلا جدوى في قلب أعشاب الساڤانا المترعرعة المونعة بنضارة غير إنسانية غذتها الأشلاء البشرية صمتت موسيقاى الآن تماماً وفي العالم وحشة الأبد .

في غمار التردى والموت والفساد ينفجر كورال السيمفونية التاسعة بأقصى ما يمكن أن يصل إليه الصوت الإنسانى الذى يوشك أن يكون

إلهيـاً حقـاً فى إنشـاد مجد الحيـاة فى الترنم بملء الصـدور ملء الأفق ببهجة الوجود وسموق الحب الذى لا يساوقه شىء فى هذه الحيـاة وليس ثم إلا هذه الحياة.

كأس ويسكى وقطعة شيكولاته وعبّاد الشمس الأصفر والأبيض وزهر البرتقال ، هل ثمّ أبسط من هذا ، ما أعظم مجده ، وهواء البحر المنعش، لوحة لرينوار مليئة بالجسد الأنثوى البضّ وزقزقة عصفور وحيد .

***

(١٢)

رتبة "روم إيلى بكلربكى"

"أنعم الجناب العالى برتبة روم إيلى بكلربكى على سعادة إسماعيل صبرى باشا الذى كان وكيلاً لنظارة الحقانية ، وبالنيشان المجيدى الأول على سعادة صالح ثابت باشا الذى كان رئيساً لمحكمة الاستئناف الأهلية، بمناسبة إحالتهما على المعاش .

ويوجد الآن فى فنادق العاصمة ٤٠ ضابطاً ألمانياً كلهم بالإجازة . وطريقة ألمانيا أن كل ضابط يسافر بالإجازة إلى بلاد أجنبية يكلف بوضع تقرير بما يراه فى تلك البلاد حتى تنتفع الحكومة بآرائه فهؤلاء الضباط الأربعون الذين يأتون للنزهة .."

"فى أول مارس سنة .."

هنا تنقطع القصاصة التى وجدتها بين أوراق طفولتى أو صباى ، فلعلها من مجلة كان اسمها "كل شىء والدنيا" .

طبعاً هؤلاء الضباط الأربعون ليسوا بجواسيس ولا أي شيء من هذا القبيل ، هم فقط ينفعون حكومة بلادهم بآرائهم ، كلهم ، الأربعين ، لا أقل .. وفي مصر الآن كم عدد "الضباط" الأمريكان الذين ينفعون بلادهم بآرائهم ؟

وبينما يركن الشاعر الرقيق الذى كان وكيلاً لوزارة العدل حينذاك إلى سنوات المعاش وقد أنعم عليه السلطان العثمانى، أو لعله الخديوى.. إلى آخره ، "أصدر الكاتب البارع محمد المويلحى ، فى ٢٧ منه مؤلفاً ثميناً دعاه (حديث عيسى بن هشام) من ثلثمائة وأربعين صفحة ، وهو يتناول الحياة الاجتماعية المصرية ويصفها كما هى فى مباذلها بأسلوب انتقادىٍّ شائق وثمنه عشرون قرشاً ويباع فى جميع المكتبات" .

وفى اليوم نفسه ، ٢٧ منه "حدثت خلال الأربع والعشرين ساعة المنقضية وفيات بالطاعون البشرى فى البلينا ودشنا ، وإصابات به فى أخميم وبنى مزار ."

وفى اليوم التالى كان عبد الرحمن حماد يشتغل فى مقطع حجر فى جبل المقطم بواسطة اللغم فانفجر اللغم بغتة فمزق الرجل ومات لوقته .

طبعاً ليس من الصعب جداً أن أحدد ذلك العام، ولكنه ليس من المهم.

أما فى ٢١ يوليو عام ١٨٨٣ على وجه التحديد فقد كتبت الأهرام العتيدة :

"المليك العزيز .. من ذا شاهد طلعة المليك العزيز بالموكب الحافل ولا تنبعث أشعة إسعاده ذات اليمين وذات الشمال ولا ينفى عن عقله الوَجَل ويبات ليله قرير العين طيب الخاطر غير جازع ولا منشغل البال للأخبار

المشئومة فإنه أعزه الله وأبلغه مناه يركب فى عشية كل يوم محفوفاً برجال معيّته الكرام ماراً فى عباب يُطارح القوم التحيات مسكناً رعبهم، مزيلاً من القلوب رهبة الخطب ، لا برحت العناية الإلهية ترعاه مؤيداً منصوراً بإذن الله تعالى .."

والمليك العزيز ، بعد عام بالضبط من استقدامه قوات الاحتلال التى جثمت على صدر البلاد سبعين عاماً هو ، بالطبع ، الخديوى توفيق .

حفظه الله ، حبيب الشعب ، الرئيس المؤمن ، الذى اخترناه .. زعيم الملايين .. بالروح والدم .

ما زال النفاق العظيم - وأسوأ - متفشياً ، إلى ما شاء الله ..

وما زالت ضربات الذين نحبهم أكثر إيلاماً ، فى سياقٍ آخر .

فى ليلة منذ عدة سنوات شرب صديقى الذى أحبه كثيراً زجاجة نبيذ كاملة ، بعد انقطاع عن الشُرب دام طويلاً .

كان ذلك فى غرفة صديقنا صبحي راسم المكتظة بالكتب . النيل غير بعيد عن الشارع الجانبى الهادئ ، وكنا فى صحبة محمد برادة الناقد والروائى المغربى الكبير ، وآخرين لم أعد أذكرهم الآن ، أرى صوراً غامضة مستبهمة لهم ، على الأريكة والفوتيات ، على ضوء أباجورة المكتبة قوية النور ، لعل منهم الصديق سامى خشبه ، أصبح صديقى الآن عَلماً من أعلام أدبنا المصرى ، روائياً مرموقاً أذيعَ فى التليفزيون مسلسلٌ رائج مستطير الصيت مأخوذ عن رواية شهيرة له، وهو فى الوقت نفسه ناقد حصيف ومفكر يُعتد به ، ومحطّ الأضواء .

ليلتها ، ١٨ ديسمبر ١٩٨٨ على وجه الدقة ، وبعد أن سكر صديقى

دون أن تبدو عليه أمارة على الشمل ، رماني بكبيرتين .

الأولى أنني جزء من "المؤسسة" مؤسسة الدولة يعني ، شئت أم أبيت، وأنني دفعت بجاليري ٦٨ إلى حضن الدولة ، عندما مولها ورعاها يوسف السباعي وجمعة شعراوي ، أو كما قال .

سوف يقول غير ذلك تماماً عن جاليري ٦٨ في قابل الأيام ، وما من حرج على المرء أن يغيّر رأيه أو أن يرى وجه الصواب بعد أن عُمّي عليه في مسألةٍ ما .

طبعاً دحضت التهمة بعنف الصدق وحجة الواقع الذي لا يمارَى فيه . وأتساءل الآن ، حتى لو فرضنا أن التهمة صحيحة - وهو فرض خاطئ من الجذور ، وجائر أيضاً - ألم يكن هذا من عمل نظام عبد الناصر الذي يرفعه صديقي الآن إلى ما يقرب من مقام الأولياء ؟

أما "المؤسسة" فلم أخطُ فيها خطوة واحدة ، طيلة حياتي . وليسمح لي الصديق أن أقول بشيء من الشر : لعل "المؤسسة" أيضاً تضمّ نقيضها في صحف المعارضة المروّضة أو صحف الدور التي طوتها الدولة تحت جناحها، على السواء . لم أنضوِ لحظة تحت رأية أيٍّ منها ، وكم كانت الفرص متاحة ! لا بأس بطبيعة الحال من هذا الانضواء ما دام الكاتب صادقاً مع نفسه عفّ القلم والضمير ، صحيح . لكنني مع ذلك لم أنضوِ ، دعك من أكون "جزءاً" من المؤسسة . فلم يكن التضامن الأفريقي الآسيوي قطعاً من مؤسسات الدولة وإن أسهم عبد الناصر في إنشائه ورعايته . بل كان حركة تحرير .. المهمّ .. قُصْر الكلام ..

ما من حاجةٍ بي للاعتذار أو التفسير أو الدفاع ، لكن صديقي ،

ليلتها ، هو الذى ذهب يلتمس لى العذر ، فمن المفهوم ، كما قال ، أننى أحرص على بيتى وأولادى ، ولعل المبرر أيضاً ، كما قال ، إننى فى النهاية قبطى ، والقبط معروفون بالحرص والحيطة ، هذا كله مشروع، كما قال .

لم أحتمل ذلك منه إلا لأننى أحتمل عبء الحب .

فهل قلت له إننى لست "قبطياً" بهذا المعنى الذى تلمّسه عندى ، أيضاً ، أعز أصدقائى فى مناسبة أخرى ؟

تلك من تباريح الوقائع التى لا يبرأ وجعها .

أتذكر الآن باستغرابٍ قليل أننى حملت وحدى ليلتها عبء دحض الاتهام وسط صمتٍ كأنه تواطؤ من الأصدقاء .

وأتذكر بوضوح قاسٍ وجه صديقى الصعيدى داكن السمرة ، عظمياً ، نحيفاً ، وعينيه الصغيرتين اللامعتين بذكاء وقّاد ، يتكلم بهدوء كامل، يرمينى بالكبائر .

أما الكبيرة الثانية فهى أننى فى رأيه قد تخليت عن تراث رفاعة رافع الطهطاوى ، عن العقلانية ، عن العلمانية وعن العلم ، وأننى - أنا أيضاً - أفسدت تكوين وعقليات وكتابة شباب الأدباء والشعراء، بما أغرقت كتاباتى فيه من غوصٍ فى دواخل النفس وعكوفٍ على الذاتية وتحليل المشاعر والأحاسيس ونأيٍ عن الواقعية والاستنارة . تهمة إفساد الشباب على هذا النحو لا أنكرها - إذا صحت - وحسب القالب المأثور هى شرف لا أدعيه ، ولى فيه على الأقل رفيقان : مايْ وست وسقراط .

أما دواخل النفس فهى قلب الواقع ، أما الذاتية فلا انفصال لها قط عن هموم الجماعة ، أو الطبقة ، أو الفئة ، أو الوطن ، وأما العلمانية والعقلانية فهى من جوهر الروح عندى .

ليست شعوذات الجنّ والجنون التى أحكى عنها هنا إلا صرخة وجع أخرى من وقع ضربة العطب الذى أصابنا ، هى دعوة تحذير أيضاً ونداء إنذار .

عندما ذكّرت صديقى ، بعد ذلك بسنوات ، بتلك الليلة وما جرى فيها أنكر ما قال بحسمٍ قاطع . أكد دون تردد أن ذلك لم يحدث ، ولم أجادله ، لكننى لست - بالطبع - واهماً .

قالت أ.ف.ب. أن شرطة تاكارازوكا ، قرب أوساكا ، اعتقلت يابانياً فى الثالثة والثلاثين بعد ما عثرت على جثة جدته (٩٢ عاماً) التى كان يحتفظ بها فى ثلاجة منزله ، لأسابيع عدة . وهو من أتباع طائفة دينية ناشطة فى الهند ، وقال إن "الآلهة ستحمى جدتى . لا تزال حية" .

وهأنذا أضرب فى شوارع القاهرة المتراكبة بزحام الناس والمركبات ، القابعة تحت خيمة التلوث المستشرى ، ينخر فى نخاعها فسادُ الهواء ، عطب النيل، خرابُ الذمم، سقوط الضمائر، بلطجةُ الأقوياء، بجاحةُ الأثرياء، جفاوةُ الواغلين القادمين من الصحراء، غيبوبةُ الهائمين فى سبحات البانجو والهيروين، يغتصبون البنات فى الشقق والمزارع والخرابات يغتصبون الأراضى والبيوت يشهرون أسلحة الفلوس أو القوة الغشوم أو ثغرات القانون وروتين التقاضى الغالى البطىء ، ويطعنون بالسلاح، بالتكفير أو بالمطاوى والسنِج أو بالديناميت والرصاص، سواء.

"الاغتصاب" كلمة أصبحت شائعة تكاد تكون يومية ، مألوفة ، بل مقبولة . كأنها الآن من سنن الحياة فى آخر القرن العشرين وأول الحادى والعشرين ، هى مع ذلك واقعة مبرحة الإيجاع خشنة وخام ومشعثة وعنفها عشوائى ، لا هى مصقولة مروّضة منعمة الحواشى ومتوازنة فى النهاية مع العدالة الشعرية ، كما نراها فى الأفلام والروايات ، ولم تعد - كذلك - مقنّنة مؤطّرة بطقوس بدائية دينية لها إيقاعها وشكلها المرسوم سلفاً بتدرج مراحله الدرامية : الإغواء ثم المطاردة ثم اللحاق ثم الاغتصاب الذى فيه منذ البداية رضىً وتسليم من جانب الضحية ، وفيه، منذ البداية وعلى الرغم من الحُميا والعرامة ، انصياع لشعائر مقررة ومكرسة بل مقدسة .

فهل فى تخبط العدوان وعشوائيته الآن شىء يكشف عن الواقعة بشاعتها الأولية التى كانت الطقوس قد وضعتها تحت أقنعة سبعة ، كما كان كهنة اليونان القدامى يفعلون عند اللحاق بآخر العابدات فى احتفالات زواج زيوس وإيو ؟

هل كان ثم قبول خفى ورغبة مضمَرة فى قبول الاغتصاب من تلك - أو أولئك - اللاتى يتخلفن إلى آخر موكب العابدات ؟

العابدات الباخوسيّات قد ثملن من نبيذ ديونيزيوس ودماء الثيران المسفوحة وجنّنتهنّ الرؤوس المجزوزة من جذور رقابها مفتوحة الأعين مسترسلة الشعر ، والقضبان المجتثة ما زالت منتصبة فوق خصيّها ، والأشلاء الممزعة ما زالت تنتفض بحياة عضوية لا روح فيها .

يجرين بين التلال المراع ويتدحرجن على خُضرة الوهاد يتعثرن فى الهيماتون السابغ الفضفاض فيخلعنه ويقذفن به يلهثن ويصرخن ويعوين ويجأرن بالشهوة والغلمة وعلى عريهن يرتدين الآن جلود الضباع وقرون البقرات فوق رؤوسهن أهِلّة مشرعة ، هن الطريدات القنيصات يغوين المطارد القناص .

فهل فى ذلك تسليم بقدَر الضحية الملقاة على هيكل قدسى للخصوبة المنتزعة من قلب الصدّ والامتناع ؟ بل فيه اندفاع لملاقاة هذا القدر وخضوع – إرادى وكامن – له .

هل قبلت كيمى أن تُغتصب أن تقع فريسة للطغاة والمعتدين الواغلين على طول الزمان، وحتى الآن ؟ حتى الآن كانت قد ذوّبتْهم فى أحشائها.

وتظل مع ذلك نقية طهوراً وبتولاً عذراء لم ينتهكها إلا فعل الحب لا فعل الاغتصاب .

ها أنتِ تُميطين مرطك المشقوق عن جسدك الريّان بين الفيافى الصحراوية عن يمين وعن شمال صدرك الغض بعد تعاقب الأيونات ما زال عذرياً وبطنك مختوم لم يشققه ولن يشقه غاصب . بل أنت تتيحين ولوجه طائعة للمتيم المتعبّد فى محرابك يا أم الصقر يا أم الصبر يا أم الخُمُول واديك ممرع خصيب تحت القهر وتحت الامتثال سواء لا تبخلين بأطايب ثمرك البض المطواع سواءً كان ذلك فى ليل الظلم أو فى ومضات الشمس النزرة التى سرعان ما تغيب أو فى وقدتها المتلظية بالشواظ لا تخففها إلا نسمة الطراوة فى العصارى ، ومع سُمّ المبيدات وسُمّ التليفزيونات زعقات الوزّ على ماء الترع التى جثمت البلهارسيا فى

حواشيها ، ما زلتِ عفية ، جاءت الموتورات الكهربية المؤازرة عوضاً عن سواقي الخشب والحديد ترفع من حابي الذى انصاع للترويض والتدنيس مع كل إلهيته ، مياهَه المحيية الباقية والتي سوف تبقى إلى أبد الآبدين بعد أن تنجاب مخلفات الزئبق وعوادم النفط ولوثات الصناعة وفضلات الحيوان ونتن الجيف البشرية والحيوانية سواء .

كيمي .. كيمي .. حتى متى تقبلين الانتهاك والانتهاب ؟

حتى متى ، بقوة سحرك وحبك ، تحيلين المغتصبين عشاقاً وأبناء ؟

أما كفاكِ .. وكفانا ؟

يا طفلة أبدية لا يعتورها الزمن أنتِ أُمّ المقدسات وأرض الوقائع الصلبة فى آن ، طفلتي البريئة دهريّة الحِكمة خالصة الجسد من كل لوثة ومن كل ريبة - مهما كان من تدنيسه - إلى دهر الداهرين .

أغنيتي لك على ترداد ترجيعها لا نهاية لها .

لا .. لن أملّ من تردادها .

حتى لو لاح ، فيما يبدو ، أن ذلك مبتذل مكرور .

ثُم ما حاجتي - بعد ذلك - إلى أن أحكى حكايات ، وفى ديوان الصحف والمجلات كل ما نحتاج من حكايات .

اعترف دجّال إندونيسى - مثلاً - باغتصاب ٢٣٦ سيدة ، خلال ١٢ عاماً ، بعد تخديرهن فى منزله ، وقال إنه اغتصب فتاة ٩ مرات لعلاجها من الأرواح الشريرة .

وقبلها بعام كامل ويوم واحد كتب يسرى شبانة فى الوفد أيضاً أن

طالباً فى الثانوية استدرج تلميذة عمرها ٩ سنوات وحاول اغتصابها فى منزلٍ تحت الإنشاء بمدينة ١٥ مايو ، قاومته التلميذة ودافعت عن نفسها وهددته بافتضاح أمره فضربها بحجر فوق رأسها ثم دفنها وهى على قيد الحياة وغطّاها بالتراب . المفاجأة أن الطفلة بقيت على قيد الحياة ، وإن أصابتها سجحات وجروح بجميع أنحاء جسدها مع وجود آثار خنق حول رقبتها .

ومن الاسكندرية كتبت سامية عبد الرحمن أن اثنى عشر شاباً تنافسوا على اغتصاب فتاة تبلغ من العمر ١٥ سنة، بالمعمورة، تحت تهديد السلاح .

فى ديسمبر أتصور أن هدير البحر فى عزّ شتاء اسكندرية كان يدوّم إذ ترتفع الموجة الصاخبة المزبدة تصطدم بالسور الأسمنت القبيح وتغور الرمال داخل البحر فتسحب معها ما تبقى من نفايات التصييف .

"قام ستة منهم باختطاف الفتاة إلى شقة أحدهم وقاموا باغتصابها بالتناوب ، وحاول ستة آخرون اختطافها لاغتصابها مرة أخرى" .

أظنهم جرّوها من شعرها الأكرت وكادوا أن يحملوها حملاً فى وسطهم، أظنهم كتموا صوتها ، الذى وَهَن الآن وتحشرج ، بأيدٍ خشنةٍ لا تعرف إلا صلابة الحجر أو عناد أنابيب الرصاص المعدنية .

"نشبت مشاجرة بينهم .. عند قيام إيهاب مصطفى بإخراج مطواة انهال بها على إبراهيم حسين بعدة طعنات أودت بحياته، وفروا هاربين".

هل ساد صمتٌ ، عندئذ ، بين حيطان الشقة الموحشة ، بينما انهلّت السماء المدلهمة بسحب سوداء ، وانهمرت مياه المطر ثقيلة متلاحقة على

زجاج النوافذ فى عتمة آخر النهار ، حتى جاءت الشرطة ..

قُبض على المتهم وتم التحفظ على الفتاة .

"التحفظ .. ؟" يعنى إيه ؟

قبل ذلك بخمسة أيام فقط ، كتب أحمد على الذى لقب نفسه "المظلوم" وسجل عنوانه على وجه الدقة :

"لو أن هناك حرية تعبير وديمقراطية فعلاً فانشروا رسالتى هذه كما هى.

"مررت بتجربة عصيبة وصعبة ولكنها أفادتنى كثيراً وأوضحت لى حقائق كثيرة . وتجربتى هى دخول السجن فى تهمة لم أرتكبها ، وتهمتى هى التعدى بالضرب وكان الحكم فيها الحبس لمدة أسبوع وأحمد الله على ذلك وقد رأيت فى هذا الأسبوع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . تبدأ رحلتى من قفص الاتهام إلى تخشيبة الخليفة وما أدراك ما تخشيبة الخليفة على رأى كاتبنا الساخر حين قال اللى أمُّه تدعى عليه يدخل الخليفة . والخليفة سيدى الفاضل هى حوض تجميع للمحبوسين والمشتبه فيهم لحين ترحيلهم إما إلى السجن أو مديرية الأمن . ولك أن تتخيل مكاناً يتسع لعشرة أشخاص مثلاً يوضع فيه ألف شخص . وهناك كل شىء ملوث الهواء والمكان الخ . (المكان المحترم قليلاً فيه يؤجر بـ ٢٠ جنيهاً فى اليوم) وحتى لا أطيل عليك تم ترحيلى إلى سجن الاستئناف ولن أروى لك عن إهدار كرامة الإنسان هناك ولا الإتاوات التى يقوم الشاويشية وعتاولة المجرمين بتحصيلها على مرأى ومسمع من المسئولين . المهم أن السبب الذى جعلنى أكتب لك

ليس ما قصصته من قبل ولكن السبب أنه توجد كارثة داخل السجون والتخشيبة . الكارثة هى أن تجارة الحبوب المخدرة رائجة جداً والله العظيم بعلم ومرأى إن لم يكن بشراكة بعض الشاويشية ، كما أن تعاطى المخدرات يتم بدون أدنى خوف من أى مسئول . الاسم الشائع سيدى لهذه الحبوب هو (صراصير) بالطبع عند سماعى للبائع وهو ينادي: "حدّ عايز صراصير" ! اعتقدت لجهلى طبعاً أنه يمزح ويقصد تلك الحشرات المنزلية ولكنه كان يبيع تلك الحبوب .."

أما فى الزقازيق فقد قررت النيابة حبس ٢٩ شخصاً من مثيرى الشغب لمدة ١٥ يوماً على ذمة التحقيق وحبس مفتش صحة مركز الحسينية ٤ أيام لاشتراكهم فى مشاجرة نتج عنها مصرع شخصين .. تجمهر أهالى القرية وأشعلوا النار فى منزل الطبيب (الذى تشاجر مع مقاول ومات الأخير) ومنعوا سيارات الإطفاء من إخماد الحريق مما أدى إلى موت الطبيب .

هل كان عيسى بن هشام سيجد ما هو أكثر من ذلك ليصف مباذل الحياة المصرية بأسلوب انتقادىّ شائق ؟

ففى القاهرة فاجأ الزوج العائد من عمله باكراً على غير عادته زوجته (٢٦ عاماً) مع عشيقها (٢٨ عاماً) . جذب العشيق يد عشيقته من غرفة النوم وقادها إلى الشرفة ليقفزا معاً من الطابق الخامس شبه عاريين. وأصيبا بارتجاج فى المخ وكسور جسيمة .

ونشر "مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان" فى "الأسبوع" على عُهدة محمد الحميلى يوم ٦ يونيو ١٩٩٧ (٦ يونيو ، مرة ثانية ؟) أن

٢٥ ٪ من أطفال مصر يعيشون تحت خط الفقر وأن ٧٩٫٨ ٪ من الأحداث الجانحين ليس لهم مأوى وأن ٤٦ ٪ من مجموع أسر هؤلاء الأحداث يعيشون فى مسكن من حجرة واحدة .. وأن الأحداث يقعون ضحية لانتهاكات غير قانونية خلال مراحل القبض عليهم وحبسهم ومحاكمتهم..

هذا كله قديم ، نعرفه تماماً ، أليس كذلك ؟

لعل الجديد أن الدكتور عبد الحى عبيد نائب رئيس جامعة حلوان لشئون الطلاب أعلن أنه سيتم تشغيل خمسة آلاف طالب فى أعمال السباكة والدهانات والتجارة داخل الجامعة مقابل خمسة جنيهات يومياً.

يا بلاش !

حدث قبل ذلك بعشر سنوات تقريباً - كما روت "الأهالى" - أن "ابن ذوات مصرى مجهول" اشترى منضدة طعام يرجع تاريخها إلى أوائل القرن الحالى (العشرين) بمبلغ وقدره ثمانون ألف دولار أمريكانى لا غير.. وقال مثمّن المزادات إن بعض زبائنه من المصريين لا يترددون فى إنفاق مليون دولار سنوياً فى المزادات ولكن بعضهم يفتقد الذوق وأضاف أن هناك بعض الأغنياء المصريين إذا جمعت ثرواتهم فإنهم يصبحون أغنى من الدولة" .

كان ذلك طبعاً فى ١٩٨٧ ، وقبل أن تنقضى خمس سنوات على نهاية القرن العشرين الميمون ، فإن الأهرام الوقور نشرت بقلم د . صدقى قرنى عبد الباقى دكتوراه واستشارى طب الأسنان بالسعودية - هو إذن رجل رصين بلا شك - أنه قد نُشر فى إحدى المجلات الأسبوعية القاهرية

وصف لإقامة فرحين لزواج أسطورى تكلف كل منهما مليون جنيه مصرى بالتمام والكلام .. ارتدت العروس فستاناً مشغولاً باللؤلؤ والماس ، ذيله على مسافة طولها خمسة أمتار كلها مشغولة بالأحجار الكريمة ، تاج العروس من الألماس والذهب الأبيض الخالص . بدأ مهرجان الزفاف بحضور العروس محمولة على هودج مطلى بماء الذهب حولها مجموعة من الحراس يرتدون ملابس من الحرير أزرق اللون ، أشبه بليالى ألف ليلة وليلة، التورتة على شكل طاووس يتحرك بالريموت كونترول ، العشاء جمبرى وكافيار وسيمون فيميه وفواكه البحر والبر ، محليّة ومستوردة ، أحيت الحفل فرقة برازيلية جاءت خصيصاً حصلت على عشرات الآلاف من الدولارات ، غير تذاكر السفر والإقامة ، وغير نفقات الفرقة الموسيقية المصاحبة وعدد أفرادها ٢٥ فناناً وفنانة . حدث هذا فى مصر التى يعيش أكثر من ثلاثة أرباع سكانها فى ضنك وعوز لا يتجاوز دخل الفرد فيها ٦٧٠ جنيهاً سنوياً . (يعنى أكثر قليلاً من ٥٥ جنيهاً فى الشهر) ولا تذوق الملايين الكادحة فيها طعم اللحم إلا كل "موسم" ويضيف الدكتور صدقى قرنى :"احذروا صيحة العريان وتململ المحروم !"

عيسى بن هشام كان حقه ، بعد مائة عام ، يقرأ ما نشرته الأهرام الوقور نفسها فى ١٩٩٦/٨/٤ "استمعت لخطب الجمعة فى أماكن مختلفة إلى نفس المرويات عن القبور التى تنشق عمّالاً على بطّال ليخرج منها مسوخ الموتى وعن الرضع الذين يتكلمون فى المهد غير المسيح عليه السلام وعن السبعمائة زوجة لكل مؤمن وعن خطوة سيدنا آدم التى كان مقدارها مسيرة ثلاثة أيام ودواب البحر التى تصعد وفى فم كل منها

لؤلؤة والثور ذى السبعين ألف قرن يحمل عليها الأرضين السبع وغير ذلك من الخرافات عن كتب عصور الانحطاط أو المدسوسة على كتب التراث من أعداء الدين .. المسألة إذن .. ضرورة تجفيف منابع الجهل والخزعبلات" .

أما ذلك الذى اعتاد محررو صفحات الحوادث فى الصحف أن يطلقوا عليه صفة "العجوز" فقد كان طيلة عشر سنوات - يا ربى ، عشر سنوات - أسبوعاً بعد أسبوع ، جيلاً بعد جيل من ٨٦ إلى ٩٦ ، من عادته كل صباح على الله أن يأخذ بأيدى تلميذات مدرسة أمام عزبة المطار شرق الاسكندرية ، يساعدهن على عبور الطريق السريع ، وفى حادثٍ وصفه محرر "الأهرام" بأنه مأساوى (أليس مأساوياً ؟) لقيت تلميذة بالابتدائى مصرعها صباح يوم ٢١ / ١٩٩٦/١٠ تحت عجلات أتوبيس إحدى المدارس أثناء عبورها هى وزميلتها الطريق المواجهة لمدارسهم ، وأصيبت تلميذتان أخريتان . بعد المأساة بنيت مطبات صناعية لإجبار السيارات المارة على الوقوف أمام منطقة تجمع المدارس الثلاث ..." (ما كان من الأول ..!)

أما ذلك "العجوز النبيل" الذى ضاعت تضحياته ثم حياته نفسها هدراً تحت عجلات الأوتوبيس ، فهل كان عيسى بن هاشم (أو محمد بك المويلحى) يضن عليه بما يعادل الآن رتبة "روم إيلى بكلربكى" الرفيعة أو على الأقل ما يعادل النيشان المجيدى الأول ، بعد أن أغفلت "الأهرام" أن تذكر اسمه ، حتى .. أم أن النيشان والرتبة ، المكافأة الحقيقية ، هى أداء العمل نفسه ، بحبٍ ودون انتظار لجزاء ، دون سعى إلى الحصول على ميدالية أو على "جزء من السلطة" أو انضواءٍ تحت جناح مؤسسة .

ثم .. يعنى .. ماذا ؟

ثم ماذا ؟

هأنذا - يا كيمى - أسقط فى الوهدة المتحدِّرة فى قلب واديك الخصيب، تحت وقدة شمسٍ لا ترحم ، أعرف أنها إلوهية .

الجبل الشرقى متعرج الشِعاب خشن الوُعور صاعداً إلى يمينى بما يبدو أنه مذلّلٌ مسالكُه ما عرفت إلا عندما طرقته حقاً أنه عسير المتوقّل منيع المنال وإلى شمالى كثبان صخرية وطيدة الرسوخ تخفى فى طواياها كنوزاً تتأبى على الزمن وتغور إلى عمق سحيق .

على عجينة بطنك الوثيرة الخمرانة تمرغتُ .

أعرف أن خنسو القمر مقترن ببهائك لا انفصال له عنكِ

إذ تفتحين لى حضنك يا حبيبة أعرف فيه موئلى وملاذى وأقترن بذاتى وتتحد أقانيمى . أفى داخل طواياك أبحث عن ثمل الوجود أم أرزح تحت وطأة الوجود ؟

أحسو نبيذ النكتار السماوى لكى أعبر إلى الضفة الأخرى .

نضوتُ عنكِ تفاويف النايلون الشفاف فما وجدت بعدها إلا حرير جسدك حشوهُ نشوةُ شبقٍ لا يشوبها شوْب فى شموخكِ وشموسكِ معاً .

أقول : ألم تسأمى هذه الترنيمة التى تتكرر حتى ليكاد يقتلها الملل؟ أم أن طزاجتها بِكرٌ لا تذوى ولا تغيض ؟ بينما هدير المفاعلات النووية لا يكف عن الدوران وعن التهديد والفانتوم بأرقامٍ تزداد ارتفاعاً يحلق حوامًا على مهادك وفيافيكِ أو هو رابض لا يريم عيونه الاليكترونية لا تغمض لحظة ، نبع البراءة فى قانا الجليل لم يتحول خمراً

بل فاض بالدم وطغت على أمواج الدم أشلاء الأطفال لأن الصواريخ والقنابل حصيفة ، عارفة ، تدرك تماماً إلى أين تذهب ومَنْ تصيب ، الأسلحة العلمية في أيدٍ لا أخلاقية تقتل ببرودٍ موضوعي جاف ، بلا أدنى انفعال ، أليس كذلك ؟ وما معنى "لا أخلاقية" - على أي حال - في عصر العولمة والسَدَاح مَدَاح المرسوم لنا بكل دقة على جداول وخرائط الإنترنيت والكمبيوتر والإليكترون ؟ ما معنى رطانةٍ لعل الأيام قد عفت عليها ؟

كان حزقيال النبي قد قال ، من زمان ، ولعله ما زال يقول الآن :

"كانت عليّ يد الرب فأخرجني.. وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنةٌ عِظاماً .. وإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هي يابسة جداً .."

العظام الكثيرة جداً اليابسة جداً تحت أقدام الزمن من كاركالاّ ودقلديانوس إلى صبرا وشاتيلا من البوسنة والهرسك إلى جوهانسبرج من غابات الأمازون إلى مزارع القطن في تنيسي ، جبال منها في أرشيف الخِمير الحمر في كمبوديا ، مُرقّمة مبطّقة مؤرّخة بالدقة العلمية والصرامة الآسيوية معاً .

قال حزقيال النبي : "أيتها العظام اليابسة اسمعي .. هأنذا أُدخل فيكم روحاً فتحيون وأضع عليكم عَصَباً وأكسبكم لحماً وأبسط عليكم جلداً .. أجعل فيكم روحاً فتحيون .."

"وقاموا على أقدامهم ، جيشٌ عظيم جداً جداً .."

نيران المحرقة تصعد من الخشب المغمور في زيت النفط إلى الوجه المستبشر الساكن والعينين المحدّقتين إلى سماواتها الداخلية الفسيحة ،

فرسان محاكم التفتيش ما زالوا يحملون المشاعل لإيقاد المحارق ، ما زال أصحاب الطيالس والبيادق والأقماع الشامخة على الرؤوس يطوفون حول المحابس وينقبون فى بطون ما أراقته الأقلام ويتشممون ما وسمته المحابر ويَلِغون فيما يريقون مما أجنته السرائر ، ما زال حاملو الحراب الطويلة والصنج والسيوف والكلاشينكوف وعُوزى والعبوات الناسفة يشهرونها يُحدِقون بالجزر القلاقل المحصنة التى يلوذ بها فتية وشيوخ آمنوا بأن العقل هو الإمام حقاً فى الكتيبة الخرساء .

تفحمت السماء على أصوات التراتيل المسطورة باللاتينى والأمريكانى طقوس الاستتابة والاستنابة وتقبيل الرموز اسودّت الجسوم وساحت الأعضاء تحت لعق النيران القاسية وفوح احتراق اللحم البشرى عشرات ومئات وآلاف وملايين ممّن دُعوا بالسحرة والكفرة والهراطيق والمجانين والمثاليين والحالمين وسائر ألقاب النبز والنفْى جحافل وراء جحافل من الشهداء اسودّت عظام الهيكل الذى بقى شامخاً منصوب العماد بعد أن انطفأت النيران .

هل تبقى ثم ضرورة لا مفرّ منها لاقتضاء هذا الثمن ، على طول الزمن .

***

(١٣)

وَلَد للبيع

فى ١١/٤/١٩٩٠ "قُبض على أحمد المهدى موسى نصر (٣٨ سنة) وهو يعرض ابنه محمد المهدى (٣ سنوات) للبيع مقابل ٢٠ ألف جنيه ، وهو بوّاب بمنطقة الملك فيصل" .

البواب الصعيدى بعمامته العالية البيضاء وشاربه الكث والتلفيحة الثقيلة على كتفيه يحمل ابنه المبتسم "الذى يربت على يد أبيه" بين ذراعيه المفتولتين ، الكمّ الواسع لجلبابه ينفرج عن فانلة محمرّة ، تماماً وفقاً للمواصفات التقليدية ، مهما شطّ بنا هَوَس الوقائع ، الولد ينظر إلينا - إلى المصوّر الذى نشر الصورة فى "الأهرام" - فى استمتاعٍ واضحٍ بما يجرى حوله من اهتمام وضجيج وأضواء وحدب عفوىّ أو مصنوع سواءً من الناس .

عشرين ألف جنيه ، سنة ١٩٩٠ ، بمناسبة مقدم شم النسيم .

ثمن لا بأس به .

لكن الصفقة لم تتم ، أولاد الحلال فتنوا على الرجل الغلبان وفَتَشوا السرّ وجاءت الحكومة توقف المراكب السايرة .

قبل ذلك بمائة عام بالتمام والكمال "علمنا أن آل بطرس الكرام فى سوهاج أحسنوا وفادة الماركيز هارتنكتون . أعدّ له جناب عزتلو عبد الشهيد بطرس موكباً حافلاً سار فى خدمته إلى أبيدوس ثم زار معمل السكر للعائلة المذكورة وامتدح ما رآه منهم من حسن الوفادة .. وأعجيب شيء سمعناه حديثاً وإن كنا لا نجزم بصحته مع كثرة الشواهد والأدلة عليه أن امرأة من ناحية أبو قرقاس وضعت منذ تسعة أشهر طفلاً صغيراً ذا أسنان كاملة . فاندهش به أبواه اندهاشاً غريباً ، وشاع خبره بين جيرانه فظنّوه ولياً وأخذوا فى إكرامه وتعظيمه ، ولأسباب مجهولة حملته أمه وقصدت مصر، ولم تلبث هناك مدة من الزمن حتى رجعت إلى بيتها فقامت إحدى النساء ورفعت شكواها عليها مدعية أن ذاك الطفل ابنها ، وتلك سرقته منها بينما ذهبت لتستقى ماءً ولم تعد تعلم كيفية سيرها ..!!"

فهل سرقة الأولادِ - وربما سَعْىُ الأباء إلى بيعهم - ممارسات قديمة ؟

واقعة غريبة من نوعها ، أبلغت وصيفة كمال عمّار ، وهى عاملة بمستشفى خاص بشارع قصر العينى أن طبيباً يدير المستشفى لتوليد السيدات الساقطات ثم بيع أطفالهن غير الشرعيين للسيدات اللاتى لا ينجبن مقابل مبالغ مالية كبيرة ويشاركه طبيب آخر وممرضة يقومان باستخراج شهادات تفيد ولادة هؤلاء الأطفال بالمستشفى لتسهيل

استخراج شهادات ميلاد لهم بأسماء آبائهم الجدد ، ويزاول الطبيب صاحب المستشفى تلك التجارة منذ عدة سنوات .

قالت وصيفة كمال عمّار أن شخصين استدرجاها بعد أن أخبراها أن مدير المستشفى فى انتظارها لأمرٍ هام ، وأقلتهم سيارة أجرة ، على الفور ، توجهوا بها إلى الطالبية بالهرم ، وصعدا بها إلى إحدى الشقق وأوثقاها بالحبال واعتديا عليها بالضرب ثم أجبراها على التوقيع على شيكات على بياض لمنعها من إفشاء أسرار المستشفى ، خاصة بعد أن باعت إدارة المستشفى طفلاً حديث الولادة إلى سيدة مصرية هى ثريا (٤٥ سنة) قالت إنها لم تنجب منذ ١٨ عاماً وهددها زوجها يحرينى الجنسية بالطلاق ، فتوجهت للمستشفى للكشف عليها، إلا أنها رأت طفلاً حديث الولادة بإحدى الغرف وعندما سألت عنه أخبروها بأنه ليس له أب أو أم فعرضت على مدير المستشفى شراءه مقابل ألفى جنيه. أما وصيفة كمال عمّار فقد ذهبت لمساومة السيدة وزوجها لإعطائها مبلغاً من المال إلا أنهما رفضا فهددتهما بالإبلاغ عنهما، فأرسلا شخصين أرغماها على التوقيع على الشيكات.. قرر الطبيب لمندوب الأهرام أثناء وجوده بقسم الشرطة أنه لا يعلم شيئاً عن تلك الوقائع ولم يرتكب تلك الأفعال وأن أحد الأشخاص انتحل صفته وباع هذا الطفل دون علمه.

وفى الصين يلتقط المختطفون الأطفال ، خاصة الصبية ، من شوارع المدن وينقلونهم بعيداً إلى المناطق الريفية الشاسعة لبيعهم لأزواج لا ينجبون.

الفتيات والنساء الصغيرات يُبعن كذلك كزوجات للمزارعين أو

لتجارة الجنس المزدهرة في الصين .. ضبطت السلطات أكثر من ١٣٠ ألفاً من تجار الرقيق بين عامي ١٩٩١ و ١٩٩٦ وأنقذت ما يزيد عن ٧٠ ألف سيدة وطفل كانوا قد بيعوا . يقدر محللون وخبراء سعر الصبي أو الفتاة الصغيرة بما يتراوح بين ألفي إلى خمسة الاف يوان أي نحو ٢٤٠ إلى ٦٠٠ دولار .. ليس من السهل القضاء على تجارة أوجدها اليأس مع أن عائلاتٍ تدمَّر وأشخاصاً يفقدون حياتهم في تلك التجارة السرِّية ، وبعض الضحايا يقبلو وضعهم الجديد على الرغم من الإساءة والاغتصاب الذي تتعرض له بعض السبايا ، فمن المستحيل اجتماعياً عودتهن إلى ذويهن ، بل قد يجبرن على العمل بالدعارة ..

كانوا ينامون على شط ترعة المحمودية ، متناثرين ، غارقين حقاً في النوم، لعل أكبرهم لم يبلغ بعد التاسعة من العمر ، خمسة أو ستة أطفال، لا يتميز الصبيان من البنات إلا بقطعة المنديل التي لا لون لها على الشعر الأكرت ، الجلاليب كلها متشابهة ، رمادية متربة منحسرة عن سيقان ممصوصة سوداء ، بضاعة جاهزة للسوق .

كانت أنفاس الماء في الترعة تأتيني - ليلتها - مُثقلة بالنذير واستحالة عمل أي شيء ، ١٤ مايو ١٩٤٨ ، كنت أعرف أنه سيقبض عليّ ، في اليوم التالي ، لا محالة ، سوف تندلع حربنا المحبطة على "العصابات الصهيونية" وسوف تقام دولة "إسرائيل المزعومة" كنت على موعد مع حسين العمري ، رئيس عنبر في مصانع بوليفار ، موقوف عن العمل لنشاطه النقابي ، ناحلاً ، متهضم الوجه ، مشتعل العينين وكثيف الشعر ، كان مسلولاً ، وكنت أزوره في بيته في النزهة ، وليلتها كان

علينا أن نفكر ونتدبر ماذا نصنع عند إعلان الأحكام العرفية غداً ، كانت حكومة النقراشي قد أعلنت عزمها على دخول الحرب ، وكان الموعد في قهوة بلدية ، هي أقرب إلى غرزة أيضاً ، على شط المحمودية، تحت الشارع عند النزهة ، مصباح النور الكهربي الوحيد المصفرّ، وابور الجاز ، ودكة طويلة وثلاث أربع كراسي على الأرض المبلولة جنْب الماء مباشرة . أيامها لم يكن عندى غير الچاكتة الزرقاء الطويلة من "معونة الحرب" والبنطلون الرمادى المتهدل الذى لم أفلح أن أعيد إليه طياته مهما وضعته تحت المرتبة طول الليل ، ساعات الليل القليلة التى أنامها على أى حال ، لم يكن مظهرى - حتى مع النظارة الطبية - مختلفاً كثيراً عن رواد القهوة البلدى ، الثورى الذى حصل على ليسانس الحقوق منذ سنتين، الذى يعمل الآن فى البنك الأهلى المصرى قلعة الاستعمار البريطانى على آخر أيام مجده .

فَوْح مياه المحمودية فى عتمة الليل المنقطة بأنوار متناثرة هو نفسه هَيْج عبق مياه النيل فى أول الأربعينيات ، عندما وقفت على الرأس الحجرى الداخل إلى قلب النيل - قبل أن يُدجّن ويُلجّم ويُلوّث - فى الطرانة قرية جدتى أماليا ، الجسر الحجرى القوى يحجز الموج المحمرّ إذ يهضب ويهدر ويدوّم بسرعة ، ويقوم حياطة من غائلة الطوفان . ناديت الجنيّة التى ذاع وشاع أنها تطلع فى عز الظهر ، وتنزل بالفتيان إلى غور النيل ، وبأعلى صوتى النزق تحديتها ، وطلبت إليها أن تجىء ، وهأنذا وحدى ، أمامها . وما زال هذا الصوت نزقاً ، حتى الآن .

لم تأتِنى الحورية الساحرة وتوقعنى فى أسرها إلا بعد ذلك بسنين عدداً.

وسوف يهبّ عليّ هذا العَبق المائي الثقيل بعد ذلك أمام دجلة ، في السبعينيات .

كأن هذا النفح الخصيب ، من دجلة أو النيل ، يعزيني عن التجارة العقيمة في أرواح البشر وأجسامهم ، أياً كانت أعمارهم أو أجناسهم .

وفي هذه الأيام إذ يوشك هذا القرن العشرون الميمون على الانتفاء ، أرى أفواجهن ، روسيات شقراوات ممشوقات أو وافدات من جمهوريات الاتحاد السوفيتي المنهار ، يتدفقن على الشوارع والكاباريهات وفرق الرقص الشعبي وأفراح الفنادق في القاهرة ، أو على القصور والسرايات في الرياض والكويت والبحرين والإمارات ، تسترعي سمعي فجأة ، في العجوزة أو الدقي أو المهندسين ، جملة روسية موسيقية عذبة الجرْس ، وألتفتُ فإذا بهن جميلات رشيقات أو ممتلئات مدوّرات الوجه والجسم ، يسرن في الشارع بخطىً متحررة واثقة ، المكياج المتقن على الآخِر في عز الصبح على الوجوه الناصعة ، العيون الزرق أو السود ذابلة قليلاً ولكن مكحولة بعناية ، والجوبة قصيرة على الساقين الربلتين أو منسدلة حريرية شبه شفافة ، تماماً كما كنت أراهن ، أيام بريچنيف وجورباتشوف في شوارع موسكو ، أو تِفليس .

وفي أوائل السبعينيات كنّ يتدفقن من قرى مصر وكفورها وعاصمتها ، مع تراحيل الفواعلية والسمكرية والبويجية والأطباء والمهندسين وخريجي التجارة والحقوق الذين يشتغلون جرسونات أو عتالين أو مرمطونات - أو في المكاتب المكيّفة - من الرياض وجدة والكويت إلى طرابلس وبغداد - يرصفون الطرق ويقيمون العمائر - ومن

أثينا وڤيينا - يبيعون الصحف - إلى لندن وباريس - يغسلون الصحون ويبيبعون السندويتشات .

لماذا أسوق حكايةً مأثورة مشهورة ؟

لأنني في تلك الفترة كنت أتردد على بغداد القديمة الجميلة - على رغم القَهْر وجوّ الطغيان المتستر تحت دعاوى أيديولوجية عريضة - من خلال مؤتمرات وندوات التضامن الأفريقي الآسيوى ، تلك كانت أيام "التحالف" المزدهر بين البعث والشيوعيين والأكراد ، تحالف القوى الشعبية كما كان يقال .

كم زرت مقر لجنة التضامن والسلام العراقية في الڤيللا الصغيرة الأنيقة في ذلك الشارع الجانبي الهادئ غير بعيد من دجلة ، وكم شربت القهوة العربية المرة الفوّاحة بالهيل والمستكة يقدمها القهوجي العراقي في زيه البدوى بالسروال الواسع والصديرية التقليدية والعمامة ، في ضيافة المناضل الشيخ عزيز شريف الذى كان يعيش على تراث كفاحه القديم أيام الملكية ، وحكايات سجنه وهربه من الأسر . كان يقظ الذهن سمح الوجه ، دمث السلوك وعنيد ، روّضت الأيام والسنوات - ربّما - من صلابته وإن لم توهنها ، وكان يعزني كثيراً .

معه ، ومع الشباب من أعضاء لجنته ، شيوعيين وبعثيين ، من صمدوا بعد ذلك وقتلوا أو هربوا ، ومن سقطوا وانصاعوا وآثروا السلامة وأكل العيش أو ذهبوا إلى الحرب ولم يعودوا ، سهرنا على شطّ دجلة في العشيّة ، على أنوار متراقصة ، وخافتة ، عند "أبو نواس" على مقربة من الجسر الشاهق والمباني الشامخة الحديثة على طرفيه ، كنا

نختار السمكة الكبيرة التى تضرب بزعانفها فى مياه "البئر" الدائرية المبنية بالحجر فوق سطح الأرض ، وإذ نشرب ما تيسّر مع مزّة خفيفة ، لا نشهد الذبح والسلخ وبقر البطن وتفريغ الحشا ، إنما تقوم السمكة الضخمة أمام لهب النار ، تُشوى على هينة ، يُدار بها أمام وَهَجان اللهب المتقد فى الليل ، هدير دجلة قريب جداً ، أنفاسه الرطبة القوية - بعد حرّ النهار - تؤذن بحضورٍ لا سبيل إلى نسيانه ، وإذ تثب سورة الشراب إلى الرؤوس مع الضحك والحكايات والتحليلات السياسية الحريصة المحسوبة غالباً - أو المتهوّرة المهموسة سراً فى النادر - يطيب المسجوف ويستوى وتُقدم المزع السخنة الطرية ، عبقة محموشة وفائقة اللذة ، على أطباق من الورق تتشرب سمنها وذفرها وتترك اللحم الطيب المحمرّ الذى لا مثيل للذاذة طعمه المضبوط ، بدقةٍ تكون رياضية ، بين اللدونة وتماسك القوام .

المسجوف هو الوجبة المرموقة المشتهاة سواء كان ذلك عند "أبو نواس" أو فى الحفلات التى يقيمها لنا أعضاء الحزب - أى حزبٍ لا يهم - فى البيوت من طابق واحد مستجنّة بين أشجار حدائق لفّاء نجوس بين ممراتها وغرفها ، على الفوتيات الوثيرة والسجاجيد الناعمة ، بين حسناوات رائعات الجمال واللطف ، ليّنات المكسر ، فيما يبدو ، ولكن فيهن صلابة مكنونة مدثرة بوثارة سائغة ، بلثغة ولغوة عربية عذبة الإيقاع ، نتبادل النكات السريعة والأحاديث الوديعة مع شبابٍ وكهول ، قادة وزعماء ، لا أكاد أتبين مَنْ هم ، عرفتهم بعد ذلك فى المنافى ، فى براغ أو موسكو أو دمشق أو كوبنهاجن ، بعد أن دبّ الشيب إلى رؤوسهم ، وراحت زهوة

الثقة بأن "التاريخ" معهم، وأن الانتصار - وكل مغانمه - فى متناول أيديهم.

أما نحن ، من السكرتارية الفنية المصرية ، فقد كنا نُودع غرفاً ليست فخمة ولا أى شىء من هذا القبيل ، فى فنادق متواضعة أو على الأكثر متوسطة ، تُسمى "صحارى" أو "دجلة" أو "أطلس" تملكها وتديرها فى الغالب عائلات صغيرة نشطة وكفء من الأرمن أو الأشوريين ، أجهزة التكييف التى لا غنى عنها لا تتوقف لها قرقعة ونشنشة ووشوشة ليل نهار ، ولكن الفَرش ناصع البياض والنظافة ، نأوى إليها على أى حال مجهدين مستنفدين من الشغل فى الترجمة والمراجعة والرقْم على الآلة الكاتبة والطبع على الچستتنر ، وعلىّ أن أسيّر وأستخلص آخر دماء العطاء من هذا الفريق الصغير كلهم حماسة وتضحية غير مضنونة بالجهد والوقت والمقدرة .

كنا نتناول عشاءً متأخراً فى المطعم على سطح الفندق ، فى ليل بغداد الرائق الحارّ ، تحت سماء داكنة الزرقة تومض بنجومها التى لا حصر لها ، وأنوار الأباچورات الصغيرة الصفراء خافتة على موائدنا ، عندما صعدت إلينا بنت بلدنا الراقصة التى كانت عندئذ مجهولة تماماً ، ولم نكن نعرف ، أيامها ، أن زماننا كله سوف يُسمى باسمها .

كنا قد سمعنا من زميلتينا هناء وعديلة أن جارتهما فى الغرفة المجاورة راقصة مصرية وأن فرقتها الصغيرة تشغل غرفتين أيضاً فى الفندق .

صعدت إلينا تسلّم على طريقة أهل البلد الأصلاء ، عبلة ممتلئة

قليلاً، لكن رشاقتها ، وليونة جسمها واضحة ، كَدَش شعرها الأجعد خشن ، وجهها مسمسم ، صحيح ، سمرته صابحة وناعمة . كانت تربط قدمها اليسرى برباط أبيض . بعد التحيات والسلامات والذى منه قلنا لها طبعاً "سلامتك .. ماذا حدث؟" قالت : "أبداً حاجة بسيطة والله ، رجلى اتخبطت على المسرح ، عين بقى وصابتنى النهاردة الخميس" وضحكت بصوت خفيض وهيّوب من كل هذه الوجوه ، رجالاً وسيدات ، مُتعلمين "ويتسوع سياسة" قادمين من بلدها فى "مؤتمر" والله أعلم ماذا كان يدور بذهنها الصغير الذكىّ عن معنى هذا "المؤتمر" لكنها إكراماً لنا وعلى سبيل الشهامة ومجدعة بنات البلد ، وبعد إلحاح قليل من بنات المؤتمر، ورغبة واضحة شرهة فى عيون رجال المؤتمر ، رقصت لنا - بقدمها الجريحة - فى ثوبها الخفيف السابغ على جسمها المطواع الصبىّ فى روعة صباه ، بعد أن حزمتها هناء ، يابا ، بالإيشارب الحرير التى كانت تخفيه فى حقيبة يدها .

صفقنا لهذه الراقصة المغمورة على سطح فندق صغير فى بغداد أوائل السبعينيات ، ونسيناها .

هل يمكن الآن أن ننساها ؟ هل يتركنا أحد ، هل تتركنا هى ننساها ؟

فى ١٩٩٧ سوف تؤمن على ساقيها بسبعة عشر مليون جنيه ، فتذكرنا بالرمز الأنثوى أسطورة الثلاثينيات والأربعينيات ، مارلين ديتريتش ، وسوف يسهر على أمنها أربعة حراس أشداء ، ليل نهار ، يطلق عليهم "حرس الجسم" Body Guards .

ذلك الجسم الموهوب الذى لعله أدهش الناس قليلاً ، فى زيّه

الفرعونى المحبوك عليه والمحزوم بعناية ، لعله كان عندئذٍ ، من عشرين عاماً أو نحوها، حراً طليقاً غير محزوم .

وفى أغسطس ١٩٩٥ "بكثير من عدم التصديق وكثير من علامات الاستفهام وهز الرؤوس وضرب الأكفّ بالأكفّ قابل بسطاء المصريين أخبار وصول أول سيارةٍ مصفحة صنع ألمانيا إلى القاهرة لتدخل أسطول الخدمة لدى هذه الراقصة : أغلى راقصات مصر أجراً وأشهَرهن الآن فى القاهرة . أما ثمن السيارة فيزيد على مليونى جنيه . اعتبر البعض هذا الخبر من نكات المقاهى الشعبية فى حوارى القاهرة .."

بعد أن سهرتُ قليلاً أشهد رقصة بنت بلدى ، بعد انفضاض المؤتمر ، كان عندى موعد مع صديقى الشاعر العراقى الذى كنت أعزه كثيراً ، فى صباح اليوم التالى .

كنت ألتقيه فى القاهرة ، قبل ذلك بسنوات ، فى "ريش" أو فى "لاباس" حيث كنت أجد يحيى حقى أحياناً ومعه بنته وزوجته الفرنسية طيبة الجمال، أو فى بيت صديقى الرسام أحمد مرسى على مشارف غيطان العجوزة - عندما كان فى العجوزة غيطان - وكان أحمد مرسى قد عرفه أثناء إقامته فى العراق ، مدرّساً فى مدرسة "العاقولية" بالقرب من بغداد ، فى منتصف الخمسينات ، ورسم له أغلفة دواوينه الأولى التى لاقت نجاحاً مدوياً فى تلك الأيام وترجم معه أشعاراً من پول إيلوار وناظِم حكمت .

دعانى إلى زيارة إيوان كسرى على مشارف بغداد . أيامها لم تكن تحيط به هالة الشهرة العريضة التى أضفاها عليه مجد المنافى ، وكانت

بغداد لا تخاصمه ولا تحتفى به احتفاءً خاصاً فى الوقت نفسه .

خرجنا فى سيارة يقودها فتى مهذب ذكى عرفّنى عليه بأنه مدير المتحف الوطنى ، وعندما وصلنا ، فرشنا سجادة أمام حائط الإيوان الذى طالما تغنّى به الشعراء القدامى ، وبدا لى مثل جدار بيت ريفى كبير خرِب ، وكانت معى سندويتشات الفراخ التى عملها لى صاحب فندق "صحاري" الصغير، وكان أشورياً نشطاً له كرش صغير وعينان ضيقتان وعقلٍ حاسب حريص ، وكان يصغو إلىّ بالودّ خاصة ، إذ تصوّر أننا كلينا من أبناء ملةٍ واحدة تنتمى إلي المسيح الإله المضطهد المصلوب ، فلابد إذن أن ثَمّ ما يربط بيننا بوشائج القربى ، على شطط المزار وانقطاع السبل .

كان معنا الشراب ، والأكل ، والتحرر من روتين الحياة اليومية ، وانفساح الصدر بالهواء الطلق والحديث الطلق ، وكان صديقى ، طول اليوم ، كما يستطيع أن يفعل إذا أراد ، يفيض بالحكايات الشائقة والدعابات الجافة النفاذة يلقيها كأنه لا يفعل شيئاً وهى تنطوى على سخرية قتالة من الناس والأشياء ، وخفة دمٍ لا تُضاهى يندر أن تجدها عند أبناء جلدته ، أو أبناء مهنته من الشعراء .

قلت لنفسى : هذا الحائط الفلاّحى الضخم المكسور ، لا يحيط بشىء ولا يحتوى على شىء ، هو كل ما بقى من مجد الأكاسرة ؟ فماذا يبقى من مجد الشعراء ؟

أخذنى بعد ذلك لزيارة أخيه الترزى البلدى فى دكانه المطلّ ، من شارع جانبى صغير ، على دجلة ، ورحب بنا الرجل الطيب وطلب لنا

القهوة العربية من المقهى القريب ، فجاءت فى الفناجين الصغيرة ، قطرات قليلة مركزة فوّاحة تعيد لنا بهجة التوازن وتطيّر كل غشاوةٍ من خمول ، كاد الرجل يطير من الفرح لزيارة أخيه وضيفه المصرى ، دجلة العريق يهضب غير بعيد ويموج بقوة مياهه المحمرّة العفية هديره يأتى إلينا كأنما ليعيد إلينا حُلماً مطمئناً افتقدناه فى النيل ، عَبْر حفيف سيارات خاصة قليلة وهدير مصفحات ومدرّعات صغيرة عابرة ، بينما فوح القهوة العربية المُرة يملأ صدرى بنشوة خفيفة ورائحة الأقمشة البلدية الثقيلة اللامعة والمنقوشة ، مفروشةً ومطويّة على منصات واطئة فى الدكان ، توحى لى بأننا - بشكلٍ ما - لن نموت .

لم أره مرةً أخرى ، ولا أعرف عنه شيئاً ، لكنى أحببته بقدر ما أحببت الشاعر ، وربما أكثر .

أما فى ١٩٨٧ - بعد تلك الزيارة بخمسة عشر عاماً أو نحوها - فقد انتحر ترزى من قليوب ليتخلص من ديونه ، ومن حياته . وقف على قضبان السكة الحديد وأشعل النار فى نفسه .

ليس ذلك كله إلا من قبيل تباريح الوقائع ، فقط بذاتها ، من غير إضافة أو حشو أو تدبيج .

فهل فى اختيار هذه الوقائع وترتيبها وما تتركه فى النفس من وجع ، قدرٌ من سذاجة الثوريّ القديم الخائب ، واستغرابه وغضبه وتمرده على ما ليس فيه غرابة لأنه واقع الحياة الصلب ، منذ البدء وحتى النهاية ؟

فى ذلك العام نفسه "وبعد أربعة أسابيع من البحث والتحرى ومن خلال فحص ٢٥٠٠ شخص من جميع أنحاء الجمهورية توصلت مباحث

القاهرة إلى الجُناة فى حادث سرقة مسكن الشيخ محمد متولى الشعراوى وألقت القبض عليهم ، وهم ثلاثة عاطلين من بينهم اثنان يقيمان بالجمالية ، اعترفوا بسرقة ٥٥ ألف جنيه نقداً تم إعادة ٣٧ ألفاً منها ، ومجوهرات تقدر بنحو ١٥٠ ألف جنيه ، تم إعادتها جميعاً .. تمكن المتهم الأول من كسر شرفة الشقة وفتح الدولاب ثم استولى على المبلغ وكمية كبيرة من الساعات والمجوهرات والمُسدس من داخل الدولاب .. وقاموا باقتسام المسروقات فيما بينهم ، وقام المتهم الأول بإخفاء المشغولات الذهبية ، وهى عبارة عن ٧٨ قطعة ذهبية مختلفة ، داخل إناء من الصفيح غطّاه بالرمال والأسمنت ووضع عليه هوائى تليفزيون خاصاً بشقيقته .."

وإذ يجرى الزمن جريه الذى لا مهرب منه ، وبعد عشر سنوات ، نشرت الأهرام أيضاً فى ١٩٩٧/٧/١٥ أن "محكمة أمن الدولة العليا قضت بمعاقبة عبد الوهاب الحباك ، الرئيس السابق للشركة القابضة للصناعات الهندسية ، بالسجن عشر سنوات وتغريمه مبلغ ٢٤ مليون دولار ، وخمسة ملايين جنيه ، وإلزامه بردّ مبلغ مماثل لإجمالى هذه المبالغ إلى الدولة ، وذلك لاتهامه بتحقيق كسبٍ غير مشروع بلغ تسعين مليون جنيه .. استبعدت المحكمة جميع الأموال التى لم تطمئن بشكل قطعى إلى قيام المتهم بالاستيلاء عليها ، كما راعت المحكمة فى حكمها ظروف كبر سنّ المتهم ، وقال الحباك بعد صدور الحكم إنه راضٍ بالحكم على الرغم من أنه ما زال مقتنعاً بمشروعية ثروته وأن ضميره لا يؤرقه على الإطلاق .."

(بعد ذلك برّأته محكمة النقض وأعادت القضية للحكم فيها من جديد).

هل يهون تهريب الأموال ؟

أما تهريب الإنسان فقد تحول إلى تجارة عالمية رائجة ، من خلال "شبكة سفر السيدات والأطفال ، من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية ، للعمل فى أنشطة الدعارة والجنس أو حتى استغلالهم مِهنياً بعد إيهام الضحايا بأنهم سيعملون فى مهنٍ معينة ، تربح هذه التجارة ما بين خمسة وسبعة مليارات من الدولارات سنوياً ..

.. ما يقرب من مليونى سيدة قد اضطررن إلى ترك بلادهن ، ومعظمها دول فقيرة ، بعد إيهامهنّ بأنهن سيعملن راقصات بأجور مجزية فى دول أوروبية إلا أنهن يفاجأن باستخدامهن كفتيات ليل ، أو بائعات للخمور فى الملاهى الليلية بأوروبا ..

.. وازدهرت تجارة الأطفال القادمين من دول أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية فى السنوات الأخيرة ، بعد أن أصبح خطر الإصابة بمرض الإيدز دافعاً للبحث عن فتياتٍ صغيرات يمارسن الأنشطة غير الأخلاقية .."

حتحور وحدها تبكى

العصابة السوداء تحيط برأسها الإلهىّ ، أذناها منتصبتان ، الدموع لا تنسكب مع أن عينيها مغرورقتان .

حاجباها على محجرى العينين النجلاوين ، رقيقان ، مسحوبان .

شفتاها مليئتان ، تكتمان التوجّع القديم الذى لا جدوى منه .

***

(١٤)

لم يُصبه الدور

في يوم ٥ نوفمبر ١٩٩٦ كتب زغلول توفيق جرجس من بني سويف إلى "بريد الأهرام" منجم الوقائع العجيبة والأخبار والآراء المونقة الغريبة!

"أخبرني صديق طبيب يعمل بالتأمين الصحي بهذه الواقعة ورأيت أن تصل إلى المسئولين عن التغذية المدرسية لخطورتها ، فقد قال : جاء تلميذ في العاشرة إلى عيادة التأمين بالمدرسة وهو مغمى عليه فلما أفاق سألته عن إفطاره فقال في براءة "دوري ما جاش النهاردة" . فلما استفسرت منه قال إنهم ستة إخوة وأبوهم محدود الدخل منظم بينهم الإفطار بالدور يوماً بعد يوم (ثلاثة كل يوم) فأحضر له الطبيب سندويتش فاسترد الطفل حيويته وتوجه إلى فصله في نشاط .."

وفي ١٨ يونيو كتب حسن عبد الفتاح في "الدستور" الفضايحية المعارِضة (طيّب الله ثراها) أنه "في حفل زفاف س. ح. خ. إلى ر. ك. رجل الأعمال في أكبر فنادق البلد .. تمّ تجهيز البوفيه كما يلي :

خمسون كيلو كافيار ، خمسة وعشرون كيلو بيض سمك نادر أحمر ، لحوم البط المدخن والغزلان والديوك الرومى المدخنة بالفستق وعش الغراب وسلاطات أرانب برية ولحم أحمر مملح مخصوص من سويسرا وثلاثمائة كيلو استاكوزا وكان الجمبرى الچامبو بالهَبَل ، اللحوم كانت مطبوخة بحاجة اسمها تروفش .. وجميع أنواع الجبن المستوردة من فرنسا وانجلترا ويقال إن سعر القطعة يتعدى ١٢٠ جنيهاً استرلينياً .. والحلويات مش ح قولّك .. أما ديكورات الفرح فهى ثمانية آلاف متر حرير مستورد ، طبيعى ، لتغطية جدران القاعة .. وعلى كل ترابيزة شمعدانات من الفضة الخالصة ووزعوا وردة فضة تحمل خرزة زرقاء لكل سيدة مدعوة لزوم مَنْع القرّ ، فستان العروسة من أكبر محل أزياء فى فرنسا الخاص بالملكات والأميرات . وعلى الموائد قطع معدنية مكتوب عليها "بسم الله الرحمن الرحيم" وعلى الوجه الآخر أسماء العروسين بماء الذهب .. زفة العروسة تمّ تبخيرها بالبخور السعودى الفاخر الذى يتم تبخير الكعبة به وثمن الكيلو منه ٣٠ ألف جنيه تقريباً .. ستة زنوج طوال عراض أحضروهم مخصوص، حملوا ستة مباخر.. وبعد انتهاء هذا الجو الروحانى الجميل والزفة على آيات القرآن الكريم، بعدها على طول بدأت الزفة مع الراقصة دينا، وكانت بدلة دينا وأعضاء فرقتها من نفس لون ونوع الحرير الموجود فى القاعة .. الورد المستورد من هولندا وفرنسا غطى القاعة والطرق المؤدية إليها، وهو نوع من الورد لم يدخل مصر من قبل.."

وفى صحيفةٍ معارِضة أخرى أن أطباق الحلوى من الفضة الخالصة هى من الهدايا التى قدمتها بعض الشركات لعددٍ من المسئولين بمناسبة العام

الجديد ، يقال إن الطبق الواحد بما يحتويه من شيكولاته فاخرة لا يقل عن خمسة آلاف جنيه .

أما عربة اليد المركونة إلى حائط بيت القاضى فقد كانت تفوح منها رائحة البلح الأمْهَات البنّى اللامع والرُطَب الأسود قِشرته المغضّنة تنفرج أو تلتصق بلحمه المتماسك الغض ، الأحجار العتيقة تجاوز التمر اللدن الطرى ، الزمن العريق ما زال ضرورياً منتصباً فيه فتوة الشيخوخة وعنفوانها رغم التآكل والتحاتّ ، بإزاء شىء بطبيعته عابر وزائل وبضّ الطزاجة وعلى عكس الحيطان يأتى لكى يذهب لا ليبقى .

كان مدحت شعبان قد جاء من اسكندرية ، هاتفنى فى البيت ، وتغدينا معاً ونزلنا ليشترى الميزان الحساس الذى كان يحتاجه فى معمله بوزارة الصحة ، فى أبيس ، لحساب الوزارة طبعاً .

كنا قد خرجنا من معتقل "أبو قير" منذ سنوات قليلة ، سبقنى إلى الخروج ونُقلت إلى معتقل الطور ، ثم أُعِدت إلى أبو قير ، وبقيت فيه وحدى تقريباً مع قلةٍ قليلة لم تكن تربطنى بهم إلا صلة الحبس ، أما أصدقائى فكانوا جميعاً فى الخارج .

تلك الأيام الأخيرة الموحشة كانت قاسية

كل الزمن ، سنتين إلا أقل قليلاً ، قبل ذلك ، كان – بشكلٍ ما – بهيجاً مشرقاً بالأمل والإرادة القوية والعزم المعقود على الكفاح على الرغم من السجن والحصار وغارات عساكر الأمن الليلية "المفاجئة" بحثاً عن الممنوعات ، وكنا دائماً نعرفها مقدماً ونحسب حسابها – البركة فى عساكر الحراسة المنتظمة الطيبين وفى القِرشين لزوم الشىء – وكنا نخفى

"الممنوعات" ندفنها فى رَمْل الفناء وراء حيطان الثكنات الإنجليزية التى كانت هى المعتقل ، أما الممنوعات فلم تكن إلا الأوراق التنظيمية والنظرية الثورية ، والكتب الماركسية والتروتسكية ، أما كل شىء آخر، تقريباً ، فقد كان مسموحاً به فى معتقلات فاروق ، من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٠ ، وما زلت أحتفظ بكتبٍ من القصص والشعر الإنجليزى عليها ختم "معتقل أبو قير" وإمضاء القومندان .

ومع أن مدحت كان من "حدتو" بينما كنت تروتسكيًا فقد توثقت بيننا زمالة وصداقة عميقة وحميمة .

كنت أطوف معه فى العصارى - أى قبل الطابور المسائى الذى نقف فيه على هيئة صفوف من خمسة ، يعدنا فيه الضابط النوبتجى والعساكر ، ينادوننا عليه "سانْك سانْك" cinq cinq ، لماذا بالفرنسية ؟ ربما لأنه فى الأيام الأولى كان معنا اليوغوسلاف ، شيوعيين أو من خصوم تيتو على السواء ، والروس البيض المهاجرين إلى اسكندرية منذ سنوات طويلة هرباً من الثورة البلشفية العتيدة ، هم أيضاً اعتقلوا فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وطبعاً الشيوعيون القلائل من الحلقات الماركسية الأجنبية ، وكان معنا أيضاً عددٌ من شباب اليهود وكهولهم ، من جماعات الكشافة الإسرائيلية ونادى مكابى والجمعيات الخيرية والصهيونية على السواء .

فى تلك اللحظات التى تسبق طابور سانْك سانْك ، يوشك ضياء النهار أن يغيب ، وتسقط علينا أنوار الكشافات الساطعة الدوّارة من الأبراج العالية على أركان الأسوار الشائكة - فقط من السِلْك الشائك-

ويقف في الأبراج عساكر الجيش بالمدافع الرشاشة ، يهتفون بين الحين والحين بصوتٍ عالٍ ، كأنما ليطردوا عنهم ، هُمْ ، وحشةً ما : "مين هناك".

في تلك اللحظات بالحنين غير المفهوم وغير المحدّد ، وبالأشواق غير المفصح عنها ، كنت أطوف مع مدحت شعبان حول حوش المعتقل ، يسألنى عن برنارد شو مثلاً ، فأفيض في الحديث عنه ، أو عن معنى الرومانسية ، أو عن الشعر الجاهلي . من أين كانت هذه الأحاديث تتدفق؟ مخزون من القراءات والذكريات والأفكار تصورت أنني نسيتها ، يهضب فجأة ، عن الفابيّين والبرناسيين، عن ألدوس هكسلى، أو الديسمبريين ، عن زينوفييف وبوخارين، وكان التقارب العقلي والجسدي بيننا يخفف - لحظات - من وطأة الوحشة وأوجاع الروح الدفينة .

كنا في صيف ذلك العام وحتى أواخر أكتوبر نقضي النهار بالشورت القديم القصير وقميص نصف كُمّ والصندل أو حتى الشبشب المشحتف ، كأننا حُفاة . وكنا نسير ذراعاً في ذراع ، وتيار كهربى من التفاهم الذهنى والجسمانى معاً يسرى بيننا ، على رغم الاختلاف في الانتماء العقائدى والإيديولوجى ، كان في صداقته لى نوع من الشجاعة وتحدى تعليماتٍ من زعمائه - صريحة أو مضمرة لا أدرى - لكن زعماءه كانوا يعملون على أن "يكسبونى" أيضاً ، فربما كان ذلك كله جزءاً من خطةٍ مدروسة ، وربما لم يكن .

في بيت القاضي كان عبق التاريخ - في أذهاننا - يمتزج بروائح الحاضر التى لم تكن نقية تماماً ، الناس يعيشون الآن وليس في تصورات التاريخ كما تتراءى لنا ، ما لهم هم وهذا التاريخ ؟ يعبرون تحت العقود

الحجرية الضخمة ، أمام الجوامع وبجانب الحيطان الشامخة ، تحت المآذن السامقة والقباب القديمة ، عربات الكارّو مركونة على أبوابٍ خشبية مقوّاة بحديد صدئ ومسامير غليظة "إوعَ يا فندى .. إوعى ياست الكلّ.. اللهمّ صلِّ ع النبى" من السائقين وهم يشقّون طريقهم - حرفياً يشقّون السكة بين المارّة وباعة البلح والجوافة والقهوجية والشغيلة فى دكاكين البقالة والورق الدشْت والمواعين والعصير العرقسوس والمنجة فى البرطمانات مدوّرة البطنِ والسندويتشات والبُمبار والسِبَح والعطور والبخور والموازين والسِنَج والصاغة فى الدكاكين الضيقة المظلمة والغائرة فى الحيطان ، يطرقون ويعصرون وينادون ويفاصلون ويعتلون ويحطّون ويشربون القهوة على موائد معدنية مدورة صغيرة لها قوائم رفيعة غير مستقرة على أرض الرصيف ، لا يعرفون إلا يومهم وشغلهم وهموم العيش ورزق العيال ، ولا يتشوفون إلا إلى حَجَرين من المعسّل وشفطات الشيشة وإذا فتحها ربنا نَفَسين الحشيش مع الصُحبة الجدعان ثم العودة إلى أجساد نسوانهم ليلاً والغوص فى عجينها الدسم أو لحمها الضاوى سواء ، والانكفاء حتى طلوع الفجر ، الوضوء والصلاة والتوكّل ليستعينوا على الشقا بالله ، من جديد .

ما لهم بقى والتاريخ .. !

فى معتقل أبو قير كان معنا اثنان من الروس البيض ، حطّت بهما تقلبات الحياة فى أرضٍ تصوراها أبعد ما تكون عن البلشفية والبلاشفة ، ولكنهما بعد ثلاثين عاماً أو تزيد وقعاً فى الحبس مع شيوعيين من كل صنف ولون ، مصريين وخواجات . أناتولى صامت منطوٍ فى حاله والآخر

صديقى أليكسى ، عجوز ناحل صلب العود ، أشيب ما زال شعره كثيفاً، كتّانة بيضاء ، ورفيع الصوت من العَجَز ، بدأت أتعلم منه الأبجدية الروسى والكلمات الأولية والقواعد الأساسية ، وسوّدتُ كراسات بها ، كنت أحلم بأن أقرأ پوشكين وباكونين ودستويفسكى وتروتسكى بلغتهم الأصلية .. لم نكمل بطبيعة الحال ، وفقدت الحلم كما فقدت أحلاماً كثيرة ، مثل كل الناس ، عندما نُقلت إلى معتقل الطور وأفرج عن أليكسى لست أدرى متى وإلى أين .

فى لواندا التقيتُ بأليكسى مرة أخرى .

كان فى الوفد السوفييتى إلى مؤتمر التضامن الأفريقى الآسيوى مع أنجولا ، بعد استقلالها عن البرتغال بعام واحد .

الخالق الناطق أليكسى .

أبيض الشعرْ متهضم الوجه عظمىّ القامة لا يتكلم إلا الروسيّة ترجم له عنى أنفير فاليبكوف - صديقى أنْوَر والى بك إذ أعيد اسمه إلى أصله العربى - عندما قلتُ إننى عرفتُ منذ سنين شبيهاً له ، كأنه أخٌ توأم ، فى المعتقل فى اسكندرية . فقال لى إنه من مخضرمى ثورة أكتوبر ، كان صبياً عندما حارب فى صفوف الجيش الأحمر تحت قيادة ليون تروتسكى ، قالها بصوتٍ خشنٍ غير هيّاب فيه نوع من استماتة الشيوخ الذين لم يعودوا يخافون شيئاً . أما أنور فقد ترجمها لى - بالعربية - هامساً ، كان اسم تروتسكى - مجرد الاسم - ما زال محظوراً على عامة الكوادر فى الحزب ، وعامة الناس من باب أولى ، ولكن فاليبكوف كان من النخبة، وكنت أجادله أحياناً - باللغة العربية-

وحدنا ، دون شهود ، عن الديمقراطية والمركزية ، وعن الانشقاق التروتسكي الذي كنت أعتبره هو الأصل وأن المنشق هو ستالين ، وعن محاكمات موسكو ١٩٣٦ ، وعن طرد كامنيف وزينوفييف وانتحار لونا تشارسكي وما ياكوفسكي ، إلى غيرها من القضايا التي عفا عليها الزمن وكنسها التاريخ ، وأقول لنفسي : هذا ما يبدو الآن فقط ، أما في جوهر المسألة ، فمن يدري ؟ لعل هذه القضايا مما لا ينالها الزمن ..

بعد انفضاض المؤتمر ، في ٤ فبراير ١٩٧٦ ، وإقرار البيان العام ، خرجت أمشي على الكورنيش المطلّ على الأطلنطي، في مغارب آخر صيف أنجولا . وكان كل شيء هادئاً ، موحشاً، خاوياً، والمحيط ساجٍ غافٍ يترقرق موجه في دفقات خافتة أحسها أبدية لا شأن لها بالتاريخ ولا بالزمن.

كأن الحرب الأهلية المستعرة غير بعيدٍ من العاصمة لا توجد .

في الصباح رتبوا لنا موعداً للقاء رئيس الجمهورية الفتية ، أجستينو نيتو، طالما كنت ألقاه في مؤتمراتنا ، وطالما ترجمت له ، وعنه ، في مكتب يوسف السباعي المصقول المعتني بنظافته واعتدال ضوئه وهدوئه ، في مقر التضامن الأفريقي الآسيوي ، المبنى الرشيق العريق المُصادَر من إحدى أميرات أسرة محمد علي ، في المنيل .

دخل معي عزيز شريف ، رئيس وفد التضامن ، وخطا إلى الغرفة الواسعة في قصر رئاسة الجمهورية، بحيوية شيخٍ قضى حياته مناضلاً في العراق وفي المنافي، وعندما قدمني التشريفاتي الشاب المُحكم إلى الرئيس نيتو، هجس بنفسي أن ثمّ اختلافاً واضحاً بين الزعيم المكافح

القلق العنيد أيام النفى والتطواف فى الآفاق ، وبين رئيس الجمهورية المستقر الذى وصل أخيراً ، مهما كانت الحرب تنوش أطراف البلاد بل وتتوغل في جسمها ، قال نيتو للشاب الأنيق ناعم النبرة "أعرفه لا حاجة أن تقدمه لى . هذا صديق قديم" وضحكنا ، كانت تلك من المرات القلائل، بل لعلها المرة الوحيدة التى رأيت فيها ضحكةً على هذا الوجه البشوش ، المربع تقريباً ، لامع العينين دائماً بالذكاء المتوهّج، داكن السمرة، ليس حالك الزنوجة . قلت له "سيدى .. أسعدنى أن أترجم لك بالعربية قصيدتين نشرتُهما فى "لوتس" مجلة الكُتاب الأفريقيين الآسيويين ، أنا أرسل المجلة بانتظام إلى مقرّ الحزب فى لواندا ، منذ الاستقلال" .

بدت على الوجه الرقيق المعقود على إرادة صلبة أماراتُ اهتمامٍ غير ديبلوماسىّ وسألنى عن عنوان القصيدتين وهل وجدت صعوبة فى الترجمة، فقلتُ له بل وجدت متعة ، وأحس الرجل أننى لا أجامل ، فشكرنى بابتسامة دون كلام .

مات بعد ذلك بسنوات قلائل بالسرطان ، وما زالت بلاده تمزقها الحرب الأهلية ، حتى الآن ، بعد عشرين عاماً . والمجاعات ، والفقر المروّع .

لكن أنفاس الأطلنطى ذلك المساء على كورنيش لواندا كانت تعيد إلىّ نسماتٍ رضية تهب على وجهى المتقد بالحنين والحصار والإحباط تأتينى مشقلة أيضاً ببلل اليود وجفاف صحراء "أبو قير" معاً ، والأحاديث الطويلة بالقرب من الأسوار الشائكة ولكن من غير أن نقترب

منها جداً ، مع صديق راحت به الأيام .

هل كنت أزور مدحت شعبان فى بيتهم القديم فى ڤيكتوريا ، قبل المعتقل أم بعده ؟ كان شارع أبو قير أيامها خاوياً ويبدو لى فسيحاً ، حتى أصل إلى البيت المبنى من دور واحد ، عمله أبوه من أيام الملك فؤاد ، حجر أبيض عريض وجنينة فيها أشجار برتقال وتوت وارف وكافور عملاق ، أثاثه تفوح من خشبه رائحة القدم ، القطيفة على الفوتييات والكنَب ناصلة قليلاً ولكن ألوانها قوية .

عندما تزوج بعد ذلك خلّف بنتاً وحيدة هى بدورها خلّفت بنتاً وحيدة ، ماتت زوجته بسرطان قاسٍ ومهما انهمك فى مختبراته ومحاليله الكيمياوية وموازينه الحساسة ، ومهما شغل نفسه بها فقد حدستُ أنه ظل وحيداً ، ومفقوداً .

ثم انقطع عن الرد علىّ كلما عيّدت عليه أو سألت عنه ، زارنى مرةً ، يمكن أو مرتين ، وانقطع .

كأنما ظل يخامره حسٌ بالإثم .

هل بعنا إيماننا ؟ بكَمْ ؟ باللقمة والهِدْمة ؟ هل خذلنا أنفسنا ؟ أم انشعبت بنا الطُرق ، وكان لكلٍ منا طريق ؟

كانت السيارات القلائل تمرق على الكورنيش ، دون صخب ، دون تزاحُم ، النخيل السلطانى يميس سعفه ، لواندا ، الأنفوشى ، هاڤانا ؟ البيوت الفسيحة الصامتة والغرف العالية والشبابيك العريضة المطلة على قوارب الصيد المركونة فى سِيف الماء ، شِباك الصيادين مفرودة عليها ، والسور المنخفض قد خفف من صوت العالم وراءه ، الأمواج

الصغيرة ترتمي تحت الحجر بوداعة لا اطمئنان إليها مع ذلك ، أنوار الجيران في بيوتهم المكنونة تنكشف أمام أعين المحبين .

فما أهمية أنّ السلطان حسن البلقية ، سلطان بروناي ، أقام حفلاً بمناسبة عيد ميلاده ، تكلف ٢٥ مليون دولار .

وما أهمية أنّ متجر ڤواسي الفرنسي لبيع الملابس النسائية منح مليون دولار للممثلة الدانمركية بريته نيلسن مقابل ١٢ ساعة فقط تقضيها وحيدة في مصاحبة أمير من العائلة الملكية السعودية بجناحه الفاخر في فندق مارتينيز ، لأنه يرغب أن يشرب قهوة معها . لكن السعر لم يتوقف عند حدود المليون دولار .. مَنْ دفعها على كل حال ؟

وما أهمية أن منظمات الإغاثة الدولية حصرت ما بين ثمانية إلى تسعة ملايين سوداني جائع في ١٩٩١ ، بينما نفقات الحرب في ذلك العام بلغت ٤٣٠ مليون دولار كما يقول وزير المالية السوداني ، ونحو بليون دولار حسب مصادر سودانية مستقلة .

في ٢ فبراير ١٩٩٧ - بعد انفضاض مؤتمر أنجولا بإحدى وعشرين سنة ويومين - كتب الدكتور شعبان عبد العزيز ، كلية الدراسات التجارية بالكويت : "قرأت إعلاناً بالأهرام عن مطعم بالقاهرة يقدم وجبات إفطار وسحور رمضانية شوربة عدس وخضار ، شوب قمر الدين، طبق فتة بالأرز ، نصف دجاجة أو قطعة اسكالوب ، طبق محشى أو طبق أرز بالخلطة واللوز والبندق ، ٦ قطع كفتة داود باشا ، طاجن خضار باللحم ، ثلاثة سلطة وواحد طرشي و ٢ خبز وقطعة كنافة أو بسبوسة أو جاتوه أوبقلاوة ، هذا عن وجبة الإفطار ، أما وجبة السحور فهى فنجان

عدس ، ٢ بيضة مسلوقة أو بالبسطرمة أو باللحم المعصّج ، طبق فول بالزيت والليمون، زبادى ، ٢ خبز ، قطعة كنافة أو قطايف أو بقلاوة أو بسبوسة أو جاتوه، قيمة وجبة الإفطار ٢٥ جنيهاً ، وقيمة وجبة السحور ١٢ جنيهاً يا بلاش.. !

فماذا عن الجوعى فى أنجولا وموزامبيق ، فى الصومال وأثيوبيا ، فى بوروندى ورواندا ، وفى قرى مصر وحواريها الذين يكتفون عندنا بالمشّ والجعضيض ، ما زالوا حتى الآن ، أو بفحل بصل وقطعتين فلافل وعيش ؟

أفريقيا .. أفريقيا .. ماذا فعلنا بالاستقلال ؟ ماذا فعلنا بأنفسنا بعد الاستقلال ؟

فى يوم ٤ يونيو ١٩٩٧ قالت أمينة فهمى فى "الدستور" إن الطعام يُطلب بالفاكس من هارودز فى لندن أو فوشون فى باريس ويأتى بالطائرة، يوضع فى حقائب خاصة تحفظ حرارته وتحفظه من الاهتزاز ، تسافر معه مضيفة يدفع لها الزبون ألف دولار نظير قيامها باستلام الطعام وشحنه معها على الطائرة وتسليمه فى مطار القاهرة ، وتنتهى مهمتها هنا ، ويرتب الزبون أموره فى المطار وتشهيلات الجمارك . أما الطعام فهو لحم الطاووس فى الزيت أو سوسيس الطاووس ، سعره ٢٠ جنيهاً استرلينياً للكيلو ، وتحتاج العزومة إلى حوالى ٧ كليو جرام ، صنف آخر من لحم البط له نوعان بارد وساخن ولهما لونان مختلفان وسعر الباكيت من وزن ٦٣٠ جراماً بالضبط يبلغ ١٢ جنيهاً استرلينياً وتحتاج العزومة إلى ٨٠ باكيت ، ، وهناك صدور ديك رومى بعش

الغراب والفستق ، ولحم حيوان القنغر المدخن بـ ٧٠ جنيهاً استرلينياً ، ولحم النعام بـ ١٠٠ جينه استرليني للكيلو ، وصنف مدهش هو سلمون مدخن بالعسل ، بحسبة بسيطة تبلغ تكاليف الطعام وحدها ، لعزومة متوسطة العدد ، حوالي ٧ آلاف جنيه استرليني أي ٤٠ ألف جنيه مصري ، وبالطبع هناك أصناف أخرى : فواجرا تروفيه بـ ١٥٠ جنيه استرليني للكيلو ، أو ديك رومي بالفواكه البرية مصبوب في قالب من الچيلاتين ، واستاكوزا الواحدة أكثر من كيلو وربع بسعر الكيلو ٧٠ جنيهاً استرلينياً . وتحصل الشركة التي تتولى العملية كلها على عمولة، غير مبلغ يتراوح بين ١٥ إلى ٢٥ ألف جنيه مصري ، على سبيل الأتعاب ..

كفاية .. حاجة تقرف .. ألم تغثَ نفوسكم ؟

ومثل أي يومٍ كانت السحب البيضاء الرجراجة ضاربة إلى غُبرةٍ كهباء تحلّق فوق رأسها وقد اتخذت هيئة طائر الوقواق له سيقان الأرنب الوحشي وعيناه قاسيتان ، وكان شعرها مسترسلاً في ضفائر مستقيمة . وكان الرجل يمضي في سبيله ، يرتدي حذاءه المفلطح عريض المقدمة ، وبنطلونه الوحيد المهدّل الذي لم تفلح المرتبة طول الليل أن تحتفظ له بطياتٍ حادة ، وكان محنيّ الظهر قليلاً وعلى قميصه من الخلف ثقب كبير مشعث الحوافّ جفّ الدم حواليه ، من أثر نفاذ رصاصةٍ قديمة مستقرة بين أضلاعه ، وكأنه يتحدث إلى هيكل عظمي لامرأة ، ما زالت معلقة به شرائح من اللحم صفا وخَلص من كل نتن الجيفة ، نصف وجهها حيٌ ما زال ، لكنه معتم ونفاذ النظرة ، ونصف وجهها شاحب أبيض كأنه نصف قناع جامد ، وعلى شفتيها شبح ابتسامة منسية .

امرأة عارية من فوق السحابة المُسِفّة على الأرض تطلّ على كل شيء، أنفها أقنى ، مقدمة رأسها صلعاء ، الشعر الأشيب يتدفق على مؤخرة جمجمتها الصلبة ، نهدها ضامر لكنه منتصب وقُمعى الشكل ، ردفها ثقيل كأنه يجرها إلى أسفل ، تنفخ فى البوق الكبير تدوى صرخاته المتقطعة كأننا فى اليوم الأخير ، بينما الطفل يحمل بين ذراعيه الضاويتين ديكاً أكبر من جسمه كله ، ساكناً فى حضنه ، شاكياً منقاره الأحمر إلى أعلى وصامتاً ينذر بأذان الفجر أو هجعة الليل المترامى فى أفلاك محاصَرة مسدودة .

أيهما للبيع ، الولد أم الديك ؟ على مَنْ يأتى الدور ؟

بين هذه المسوخ رأيتها تحدق إلىّ بصمت ، بعينين نجلاوين تذهب نظرتهما الحادة مثل شَبَاة سيفٍ إلى عمق قلبى بجرحٍ مفتوح لا يندمل ، على فمها سلسلة غليظة الحلقات تسدّه ، تكمّمه ، تغلق على بوحه وأنينه ، تنزل حلقات الأصفاد المدوّرة المتواشجة حول عنقها الأتلع الأملود تُحدِق به لم تكمل عملها بعد .

وعلى تراب الأرض الطيبة مدفونة الخصب جلستُ ، صاحياً غير سكران بالألم ، أكتب على أوراق متناثرة وألصق بها قصاصات الصحف التى تحمل إلىّ تباريح الوقائع ، وأقاوم شحطات الجنون .

إدوار الخـــراط

٢٣ مسـرى ١٧١٣

٢٩ أغسطس ١٩٩٧

التنويعات

إدوار الخرّاط

○ إدوار الخرّاط (إدوار قلتة فلتس يوسف) .

○ روائي ، وقصّاص ، وشاعر . اشتغل بالنقد الأدبي والتشكيلي ، وعمل بالترجمة ، وكتب للإذاعة ، وقام بتحرير عدة مطبوعات . ولد في ١٦ مارس ١٩٢٦ في الاسكندرية لأبٍ من أخميم في صعيد مصر وأُمٍّ من الطرّانة غرب دلتا النيل ، وحصل على ليسانس الحقوق في ١٩٤٦ من جامعة الاسكندرية.

○ ٤٥ ش أحمد حشمت – الزمالك – القاهرة ١١٢١١ ، الهاتف ٣٤١٦٣٦٧

– عمل أثناء الدراسة ، عقب وفاة والده في ١٩٤٣ ، في مخازن البحرية البريطانية في القباري بالاسكندرية ، ثم مترجماً ومحرراً بجريدة "البصير" في الاسكندرية ، ثم موظفاً في البنك الأهلي بالاسكندرية حتى ١٩٤٨ .

– اعتُقل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، في عهد الملكية ، سنتين ، في معتقلات "أبو قير" و"الطور" .

– ثم عمل في شركة التأمين الأهلية المصرية بالاسكندرية حتى ١٩٥٥ ، ثم مترجماً في السفارة الرومانية بالقاهرة .

– تزوج في ١٩٥٨ وله ولدان وأربعة أحفاد .

– في ١٩٥٩ عمل بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ثم في اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين حتى ١٩٨٣ واستقال منهما بعد وصوله إلى منصب السكرتير العام المساعد في كلتا المنظمتين .

– عمل بعض الوقت مستشاراً لرئيس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية وللأمانة العامة لاتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين ، وهو الآن متفرغ للكتابة .

– سافر إلى معظم بلاد أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا ، في رحلات عمل .

– شارك في إصدار وتحرير مجلة "لوتس" للأدب الأفريقي الآسيوي ، ومجلة "جاليري ٦٨" الطليعية ، وعدة مطبوعات لكلٍ من منظمة التضامن الأفريقي

الآسيوى واتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين .

- ترجم إلى العربية خمسة عشر كتاباً منشوراً فى القصة القصيرة والرواية والفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع ، كما ترجم للبرنامج الثانى فى الإذاعة المصرية عشر مسرحيات طويلة واثنتى عشرة مسرحية قصيرة وكتب له تسعة وعشرين برنامجاً إذاعياً طويلاً ، وشارك فى برامج وندوات ثقافية متعددة فيه ونُشر له عدد كبير من الدراسات والمقالات والترجمات والأحاديث فى المجلات الأدبية المصرية والعربية .

- دُعِى أستاذاً زائراً فى كلية سانت أنطونى بأوكسفورد خلال فصل الربيع عام ١٩٧٩ وألقى عدة محاضرات بالإنجليزية عن الأدب المصرى الحديث فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية جامعة لندن ، ومركز الشرق الأوسط ، وكلية سانت أنطونى ، جامعة أوكسفورد فى عامى ١٩٧٩ و ١٩٨٧ ، وفى نادى الأمم المتحدة فى نيويورك ، ١٩٨٨ .

- شارك فى ملتقى القصة القصيرة ، فاس ، المغرب عام ١٩٧٩ ، وفى ملتقى الرواية العربية ، مكناس ، المغرب ، عام ١٩٨٣ ، وفى ندوة جامعة لندن عن آداب الشرق الأوسط فى أبريل ١٩٨٧ ، وفى لقاء الروائيين الفرنسيين والعرب ، باريس ١٩٨٨ ، وفى عدة مؤتمرات أدبية فى رونده ، والمريّة ، ومولينا (أسبانيا) وبودابست وتورينو وبرلين وتورنتو ، وقام بجولة أدبية واسعة فى سويسرا وألمانيا فى ١٩٩١ ، وقام بجولة أدبية فى جامعات ييل ، بنسلفانيا ، وبرنستون ، وكولومبيا (نيويورك) فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى ١٩٩٢ . حاضر فى ١٩٩٥ فى البرتغال وايطاليا وانجلترا .

- قام بتحرير العدد الخاص بالأدب المصرى الحداثى (العدد ١٤) من مجلة "الكرمل" فى ١٩٨٤ .

- مثّل مصر ضيفاً على المؤتمر التذكارى الخامس والستين لنادى القلم الدولى فى هامبورج ١٩٨٦

- قُرِّرت روايته "رامة والتنّين" فى جامعة باريس (٨) عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٦ .
- تُرجمت بعض قصصه القصيرة إلى اللغات الأجنبية ، وترجمت روايته "ترابها زعفران" للإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية واختارتها الكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج "كتاب العام" عن ١٩٩٠ . وتُرجمت للإيطالية فى ١٩٩٣ .
- تُرجمت روايته "يابنات اسكندرية" إلى الإيطالية والإنجليزية والفرنسية .
- حصل على جائزة الدولة للقصة عام ١٩٧٣ وعلى جائزة الصداقة الفرنسية العربية من فرنسا عام ١٩٩١ ، وعلى جائزة سلطان العويس فى مجال القصة والرواية عام ١٩٩٤/١٩٩٥ ، وعلى جائزة كافافيس للدراسات اليونانية عام ١٩٩٨ .
- شارك فى ملتقى قابس (تونس) للرواية العربية فى ١٩٩٢ حيث تقرر أن يكون "ضيف شرف" للمتلقى ، وكان موضع تكريم الملتقى فى ديسمبر ١٩٩٣ .
- شارك فى ملتقى القصة القصيرة فى عمّان (الأردن) عام ١٩٩٣ .
- وفى مارس ١٩٩٤ قام بجولة فى خمس مدن إيطالية (تورينو ، فلورنسه ، ميلانو ، روما ، بارى) وألقى فيها محاضرة عن "اسكندريتى ، ملتقى الثقافات : «صورٌ للاسكندرية فى الأدب»" .
- فى عيد ميلاده السبعين أقام له المجلس الأعلى للثقافة فى مصر احتفالية حافلة فى الفترة من ١٩ إلى ٢٢ مارس ١٩٩٦ ، شارك فيها نحو أربعين مبدعاً وناقداً وباحثاً .
- فى أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٦ ألقى سلسلة من المحاضرات فى معهد العالم العربى بباريس عن "الاتجاهات الحداثية فى فن القصّ العربى" .
- كما ألقى فى شيكاغو محاضرة عن "طقوس تحدى الموت عند المصريين" وفى نيويورك محاضرة بعنوان "تنويعات على موضوعات السيرة الذاتية" فى نوفمبر ١٩٩٦ .

قصص وروايات

العمل	بيانات النشر
١- حيطان عالية : مجموعة قصص	القاهرة : الخراط ، ١٩٥٩ ط٢ (كاملة) بيروت:دار الآداب ١٩٩٠ ط٣ (كاملة مع مقدمة ودراسات) الاسكندرية : دار المستقبل ١٩٩٥ .
٢- ساعات الكبرياء : مجموعة قصص	بيروت : دار الآداب ١٩٧٢ ط ٢ بيروت : دار الآداب ١٩٩٠ ط ٣ - القاهرة: مختارات فصول، ١٩٩٤
٣- رامة والتنين : رواية	القاهرة : الخراط، ١٩٧٩- طبعة محدودة بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨٠ ط ٢ - بيروت : دار الآداب ، ١٩٩٢ ط ٣ - الإسكندرية : المستقبل ، ١٩٩٣
٤- اختناقات العشق والصباح : قصص	القاهرة : دار المستقبل العربى ، ١٩٨٣ ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
٥- الزمن الآخر : رواية	القاهرة : دار شهدى ، ١٩٨٥ ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢
٦- محطة السكة الحديد : رواية	القاهرة:الهيئة العامة للكتاب،(مختارات فصول)،١٩٨٥ ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠
٧- ترابها زعفران : نصوص اسكندرانية	القاهرة : دار المستقبل العربى ، ١٩٨٦ ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩١
٨- أضلاع الصحراء : رواية	القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٧
٩- يابنات اسكندرية : رواية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠ ط٢- القاهرة:دار إلياس العصرية،١٩٩١
١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة : رواية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٠ ط٢-القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٢ ط٣، القاهرة: مركز الحضارة العربية،١٩٩٦
١١- أمواج الليالى : متتالية قصصية	القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩١ ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٢

١٢- حجارة بوبيللو : رواية	القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩٣
	ط ٢ - بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
١٣- اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٣
١٤- روائية	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٤
رقرقة الأحلام الملحية : رواية	القاهرة ، مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
١٥-	بيروت ، دار الآداب ١٩٩٥
١٦- أبنية متطايرة : رواية	الإسكندرية ، دار المستقبل، ١٩٩٤
١٧- حريق الأخيلة : رواية	الإسكندرية ، دار المستقبل ، ١٩٩٤
١٨- اسكندريتي : كولاج قصصي	القاهرة ، دار شرقيات ، ١٩٩٧
١٩- يقين العطش : رواية	القاهرة ، مركز الحضارة العربية ١٩٩٨
٢٠- تباريح الوقائع والجنون : تنويعات روائية	
صخور السماء : رواية	

٢١- **شعر**	القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦
٢٢- تأويلات : سبع قصائد إلى عدلى رزق الله	القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩٦
٢٣- لماذا؟:مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥-١٩٩٥)	القاهرة : دار حور ، ١٩٩٦
٢٤- ضربتنى أجنحة طائرك (قصائد إلى أحمد مرسى)	القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات أدبية) ١٩٩٦
٢٥- طغيان سطوة الطوايا (قصائد الإصاتة وقصائد أخرى)	القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩٨
صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامي علي)	

٢٦- **دراسات**	القاهرة : مطبوعات القاهرة، ١٩٨٢
٢٧- مختارات من القصة القصيرة فى السبعينات:مع دراسة	القاهرة : عدلى رزق الله ، ١٩٨٦
٢٨- عدلى رزق الله : مائيات ٨٦ :	القاهرة ، ١٩٨٩
٢٩- دراسة	القاهرة : ١٩٩٠
٣٠- مائيات صغيرة : دراسة	القاهرة : كتابات نقدية ، ١٩٩٤
٣١- أحمد مرسى: دراسة ومختارات	بيروت : دار الآداب ، ١٩٩٣
٣٢- شعرية	القاهرة : دار شرقيّات ، ١٩٩٤
٣٣- من الصمت إلى التمرد :دراسات فى الأدب	أبو ظبى : المجمع الثقافى ، ١٩٩٥
٣٤- العالمى	القاهرة ، المستقبل العربى ، ١٩٩٥

٣٥- مهاجمة المستحيل : سيرة ذاتية للكتابة — دمشق ، دار المدى ، ١٩٩٦
٣٦- مراودة المستحيل : حوار مع الذات والآخرين — عمّان ، دار أزمنة ، ١٩٩٧
٣٧- أحمد مرسى شاعرٌ تشكيليّ — القاهرة،الهيئة العامة لقصور الثقافة (نقوش)١٩٩٧
٣٨- ما وراء الواقع : فى الظاهرة اللاواقعية — القاهرة،الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية)١٩٩٨
٣٩- أصوات الحداثة : اتجاهات حداثية فى القص العربى — بيروت ، دار الآداب ، ١٩٩٨
٤٠- المسرح والأسطورة ، أساطير مسرحيّة
٤١- شعر الحداثة فى مصر — القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨

دراسات معدة للنشر :

٤٢- "الحلم وزهرة المقاومة" : فى الشعر
٤٣- "من العبث إلى الالتزام" فى الأدب الوجوديّ
٤٤- ملامح أسطورية فى مسرح طاغور
٤٥- مواجهة المستحيل:مقاطع أخرى من سيرة ذاتيّة
٤٦- إيماءات عن الفن التشكيلى
٤٧- المشهد القصصى فى مصر
٤٨- أضواء أخرى على الحساسية الجديدة
٤٩- فى الواقعية وما بعد الواقعية
٥٠- فجر المسرح
٥١- فى التراچيديا اليونانية

كتب مترجمة :

٥٢- الخطاب المفقود : مسرحية أ.ل. كارجيالى — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ، ١٩٥٨ (نفد)
٥٣- الحرب والسلام : ليو تولستوى — القاهرة : الدار المصرية للكتاب ، ١٩٥٨ (نفد)
٥٤- الغجرية والفارس : قصص رومانية — القاهرة:الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٨، (نفد)
٥٥- شهر العسل المر : قصص إيطالية — القاهرة :الهيئة للكتاب، (كتب ثقافية)،١٩٥٩،(نفد)
٥٦- فارالاكو : رواية غينية،إميل سيسيه — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب(الألف كتاب)١٩٦٢ (نفد)
٥٧- أنتيجون:مسرحية چان آنوىّ بالاشتراك مع ألفريد فرج — القاهرة : الهيئة العامة للكتاب(الألف كتاب)١٩٦٣ (نفد)
٥٨- مشروع الحياة . دراسة فرانسيس جانسون — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٧(نفد)
٥٩- ميديا : مسرحية جان آنوى — القاهرة: الهيئة العامة للكتاب(مجلة المسرح)١٩٦٨(نفد)

٦٠- الوجه الآخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارنجتون — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٨ (نفد)
٦١- تشريح جثة الاستعمار : دراسة جي دي بوشير — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٨ (نفد)
٦٢- الشوارع العارية : رواية فاسكوبراتوليني — بيروت : دار الآداب ، ١٩٦٩ (نفد)
ط٢- القاهرة: دار الياس العصرية ١٩٩١
٦٣- نحو التحرر دراسة/ هربرت ماركوز — بيروت . دار الآداب . ١٩٧٢ (نفد)
٦٤- حوريات البحر : قصص أمريكية — القاهرة . دار الهلال . ١٩٧٩ (نفد)
ط٢ - القاهرة : شرقيات ١٩٩٥
٦٥- الإسلام والاستعمار : دراسة — القاهرة : دار شهدى . ١٩٨٥
٦٦- الرؤى والأقنعة : قصص مترجمة — أبو ظبى . المجمع الثقافى . ١٩٩٥
٦٧- السرير المائدة : شعر بول إيلوار — القاهرة:الهيئة العامة لقصور الثقافة(آفاق الترجمة)١٩٩٧
٦٨- ثلاث زنبقات ووردة : قصص مترجمة — القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة . ١٩٩٨

مسرحيات مترجمة للبرنامج الثانى ، الإذاعة المصرية

٦٩- النورس — أنطون تشيكوف
٧٠- سوء التفاهم — ألبير كامى
٧١- الحصار — ألبير كامى
٧٢- المجانين — ألبير كامى
٧٣- مسافر بلا متاع — جان آنوى
٧٤- بيكيت — جان آنوى
٧٥- عنقاء كثيرة الظهور — كريستوفر فراى
٧٦- سوناتا الشبح — أوجست سترندبرج
٧٧- انتهت الحرب — ماكس فريش
٧٨- السلام — أريستوفانيس
٧٩- المخرب — سول بيلو
٨٠- فى قلب السنين — إريك بيركوفيتشى
٨١- الأسلاف يتميّزون غضباً — كاتب ياسين (مسرح الجيب)
٨٢- الهولندى — ليروا چونز
٨٣- الأقزام — هارولد پينتر

٨٤- الطريق البنفسجى إلى حقل الخشخاش	موريس ميلدون
٨٥- الولد الحالم	يوچين أونيل
٨٦- بعد يوم واحد	چوزيف كونراد
٨٧- كلمات على زجاج النافذة	وليام بتلريتس
٨٨- البروفيسور تاران	أرتير آداموف
٨٩- الملك والمتسولة	جوفيند داس
٩٠- العذاب	جوفيند داس

رسائل جامعية

1 - Thesis for M.A.

- Temporality and The Ontological Experience in the Work of Virginia Woolf, "To the Lighthouse" and Edwar Al-Kharrat's "Saffron City" : By Maggie H. Awadalla - May 1989 - American University of Cairo. PP.58

2 - Mémoire pour maîtrise

- Rama wa-t-Tennïn, du myth à la mystique, avec traduction de "Mikhail et le Cygne" 1er. chapitre de Rama wa-t-Tennïn, par Catherine Farhi, Juin 1989, Université d'Aix en Province, sous la Direction de Mr. Charles Vial, PP.144+31

٣ - *بحث لنيل شهادة استكمال الدروس الجامعية*

السنة الجامعية ١٩٨٩ - ١٩٩٠ الجوهرى أحمد - "المحكىّ الشعرى فى رواية رامة والتنين"

الرباط ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د. أحمد اليابورى

٤ - *بحث لنيل شهادة الدراسات التكميلية*

السنة الجامعية ١٩٩٠ -١٩٩١ عبد الرحمن الناصير - "الوصف فى رواية يابنات اسكندرية"

الرباط ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تحت إشراف د.أحمد اليابوري

٥ - جزء من رسالة دكتوراه ثالث مرتبة الشرف الأولى

السنة الجامعية ١٩٩١ - ١٩٩٢ محمد مهدى غالى - "صور الشكل السيريالى (توظيف معطيات الحلم والأسطورة وتيار الوعى)"

6 - Thesis for B . A .

- Real and dream-like in Edward Al-Kharrat's Alexandria, by Magda-Lia Bloos, June 1992
  Bucharest University, Romania, under Dr. Mioara Roman supervision.

7 - Thesis for M . A .

- The stream of consciousness techniques in the modern novel : a comparative study of James Joyce's, Ulysses and Edwar Al-Kharrat's The Other Time, by Naglaa Roshdy Al-Hawary, 1992.
  Supervision Prof. Amin al-Ayouti & Dr. Al-Sayed Al-Bahrawi, Cairo University, Faculty of Arts, The English Department. PP.270

٨ - بحث لنيل شهادة الدراسات المعمّقة

السنة الجامعية ١٩٩٢-١٩٩٣ شذاق بو شعيب - "تشخيص الخطاب الروائى من خلال الزمن الآخر رامة والتنين"

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، تحت إشراف الدكتور محمد برادة

٩ - شهادة الكفاءة فى البحث

السنة الجامعية ١٩٩٢ - ١٩٩٣ الصادق القاسمى - "فن القص فى رامة والتنين - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الجنوب ، صفاقس ، تحت إشراف د محمد البارى

١٠ - رسالة ماجستير فى الأدب العربى

السنة الجامعية ١٩٩٦ - أحمد خريس - "ثنائيات إدوار الخراط النصّية" دراسة في السردية وتحولات المعنى" كلية الآداب - جامعة اليرموك (إربد - الأردن) . تحت إشراف د ، خليل الشيخ ، وقد صدر فى كتاب عن دار أزمنة ، عمّان ، ١٩٩٨ .

11 - Thesis for M.A.

Alexandria and Forms of the Chronotope : A Study of Justine. Miramar and City of Saffron, by Ghada el-Koussy, 1997, Supervision Prof. Radwa Ashour, Cairo Unveristy, The English Department. PP.169.

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسنى لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
أنا كنده	كيروجا ترجمة: رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبى فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعبدى صَح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إبنارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوليوس ترجمة د. على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د. غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
مدق بدون نجوم	د. محمود دهموش
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

مسرح ..

العنوان	المؤلف
هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبد الحافظ

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البيـاتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
حواديت لغندى	عصام خميس
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط للمكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
صلاة للودع	صبرى السيد
دنيـــا تناديـنا	طارق الزياد
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسينى
ليالى العنقاء	محمد محسن
غنمة فى حجر صيادها	ناجى شعيب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

دراسات ..

هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
قراءة المعانى فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
البعد الغائب ، نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
زمن الرواية ، صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى الرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان - زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصـــدارات لا تعـبـــر بالضــــرورة عن آراء يتـبناهـا المركـــز

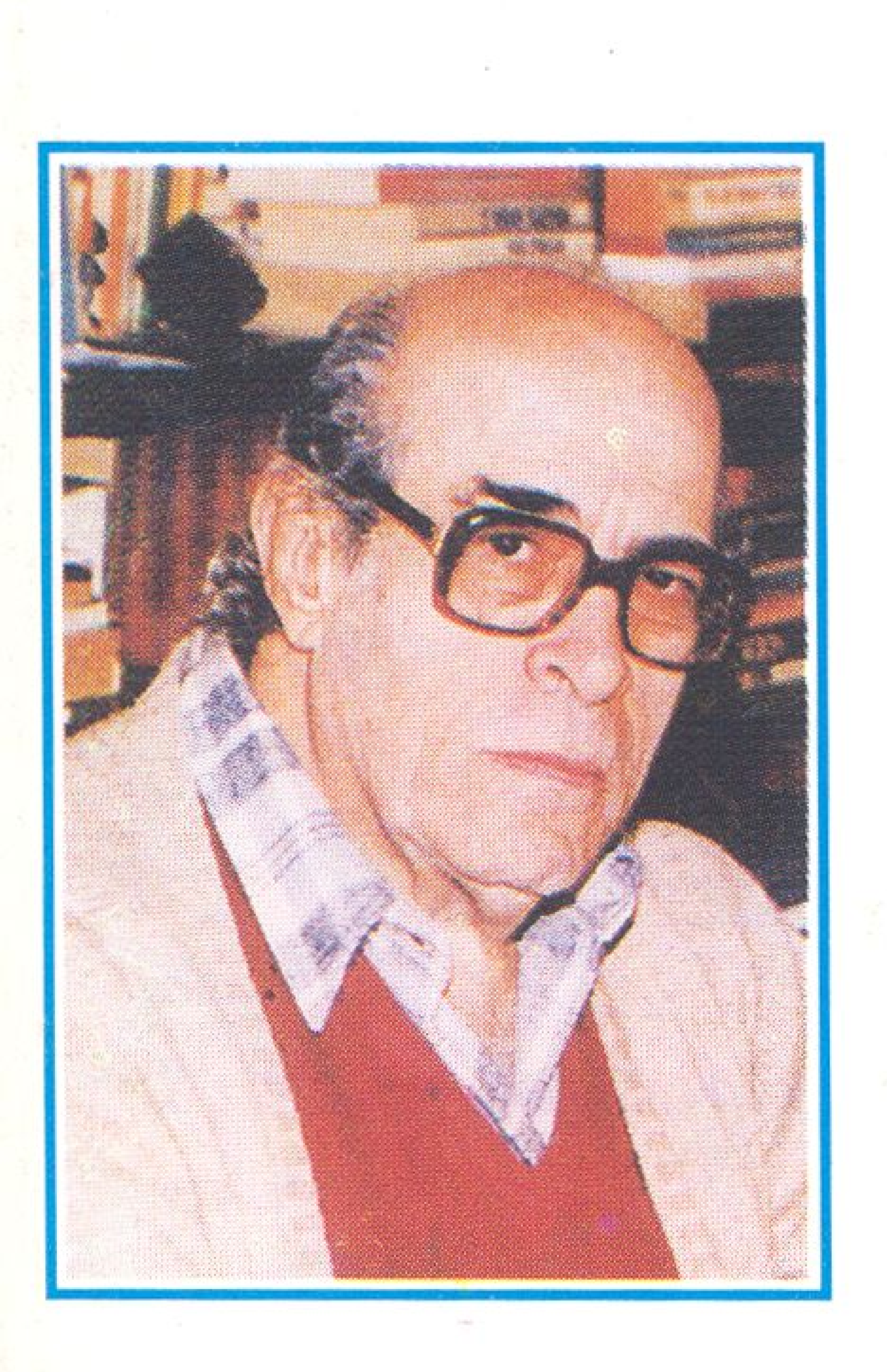
تباريح الوقائع والجنون

"... إن الواقع المتردى الذى نعيشه الآن قد وصل إلى درجة من الإيلام والإيجاع والشراسة والتدنى بحيث لم يعد الكاتب مستطيعاً أن يدارى صرخة الألم .

لذا أتصور أن له ملء الحق الآن أن يصرخ بأعلى صوته ؛ لأن الوقائع مبرِّحة الإيلام لا تكاد تُحتمل ، أصبح من حق الكاتب أن يُعرب عن هذا الألم وأن يدين هذا الواقع ، روائياً ، بأعلى صوته .

لكن هل يتشكل صراع على نحوٍ ما بين المقاطع الشعرية فى هذه "الرواية" وبين القصاصات الصحفية ؟ هل ثمة دلالة لهذه البنية التى تبدو ، لأول وهلة ، متنافرة ؟

هنا قد أتفق إلى حد ما على أنه صراع ، ولكنه صراع جدلىّ يندرج تحت ما أرجو أن يكون بنيةً موسيقية متعددة الأصوات ، أى بنية سميفونية أو بوليفونيّة متعددة المقامات إن صح التعبير ، أى أنها ليست بنية من لحن واحد .. قد تكون أحياناً من ألحان ونغمات متنافرة ، ولكن ما أنشده أن يحكمها نوعٌ من التضافر البنائى" .





مركز الحضارة العربية